خليـــل مطــران الشاعـــــر

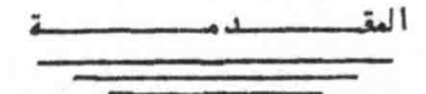
بقلــــم

ميـــشال جحـــــا

[1957]

فهـــــــــرس

المقدمة



لا شك في ان خليل مطران يعد بحق احد شعرائنا المعاصرين الكبار. وقد اخترته موضوعا لاطروحتي لانه اول حداة قافلة التجديد في شعرنا العربي المعاصر. وهو كما حدثنا الدكتور طه حسين شبيه بابي تمام من حيث ان كليهما زعيم مدرسة في الادب العربي ومن حيث ان تاثير ابي تمام لم يظهر قويا في جيله المباشر بل ازداد في الاجيال التي تلته ، كذلك اثر مطران سوف يقوى ويزداد في الاجيال التي سوف تأتي.

وقد شجعني الدكتور محمد نجم على العمل على هذا الموضوع وزين لي فائدته فالموضوع يشمل الحياة السياسية والاجتماعية في القرن التاسع عشر واسباب النهضة الحديثة واثر ذلك في شعر العصر ، ثم انه يشمل ايضا فهم المدرسة الرومانتيكية الغربية بالاضافة الى دراسة شعر مطران وآراء الكتاب فيه وفي الشعراء الذين عاصروه وجاؤوا بعده في مصر. وتلمس مدى تأثير مطران في الشعر العربي المعاصر.

فقد صحبني مطران وصحبته طيلة سنتين ونصف. عاش معي في المكتبة وفي البيت وفي السوق. وكنت اسأل الادباء والشعراء عنه اينما اجتمعت بهم. اوقف "بدوى الجبل" في الشارع واساله عن تأثره بمطران. واكتب الى وديع فلسطين فيفيدني عن حياة مطران. واجتمع بالاستاذ امين نخله فيدور الحديث على مطران. واصادف الاستاذ فؤاد صروف في الجامعة فارافقه الى منزله ويكون مطران ثالثنا في المسير.

وقد اتصلت بغير هؤلاء من ادباء وشعراء واستفدت من آرائهم وملاحظاتهم وان يكن اكثرها لم يزيد على ما كنت قد جمعته من معلومات.

اردت اول الامر ان امهد للموضوع بدراسة عوامل النهضة الحديثة التي رافقت مجيء نابوليون الى مصر ، واثر ذلك على الشعر المصرى في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

ودراسة الشعراء المصريين الذين عاصروا خليل مطران لكي تتم المقارنة بينهم وبينه ويسهل وضعه في المنزلة الادبية التي يستحقها.

واطلعت على مقومات المدرسة الرومانتيكية الغربية لان ملامحها واضحة في شعره. وقد اوجزت الكلام على حياة الشاعر واكتفيت بالحوادث الرئيسية التي تلقي ضوءا على فهم شعره.

ثم اظهرت الملامح الرومانتيكية التي تصف شعره ، وعرضت لمعالجة فنون شعره من قصص ومديح ورثاء وغير ذلك من شعر المناسبات.

وحاولت تقييم هذا الشعر على ضوء النقد الحديث وفهم الشعر انه احد الفنون الراقية الذى يعبر عن مشاكل الحياة الفكرية والجمالية.

وحاولت ايضا ان انصف مطران من حيث هو مجدد وارى تجديده واهمية هذا التجديد على الشعر العربي المعاصر.

وامر آخر عرضت اليه هو وطنية مطران : اخلاصه لمصر وللعروبة ودفاعه عن الحرية.

واني اعترف باني لم اجيء بجديد في هذه الرسالة ، وانما قصدت الى التوكيد على اشياء اهمها : ان مطران هو وسط بين التجديد والتقليد ، وانه لم يتأثر بالادب الافرنسي تأثرا صحيحا على الرغم من انه قد درسه وعاش مدة سنتين في باريس، وان تجديده لم يكن تجديد آساس للشعر العربي الحديث، وانه شاعر رومانتيكي واول من استوت عنده مفاهيم الرومانتيكية ، من شعرائنا المعاصرين وتبلورت . وان شعره مليء بشعر المناسبات الذى ، وان كان في بعضه يرتفع عن المناسبة التافهة ، فهو شعر لا يجدر بشاعر كبير دخل حرم الشعر من الباب الواسع.

واود ان اشكر الادباء والشعراء الذين افادوني في دراستي لخليل مطران وهدوني الى بعض المصادر. واخص بالشكر الاستاذ الكريم الدكتور محمد نجم الذى اشرف على تهيئة هذه الرسالة فكان لارشاداته الحكيمة اعظم الاثر في نفسي .

واوجه الشكر ايضا الى المكتبة الشرقية في الجامعة اليسوعية في بيروت لوضعها بين يدى طائفة من المصادر النادره.

هذا وانا اسأل الله ان يوفقني الى انصاف مطران واقامة الحق في تقدير شعره .

تمهيـــــــــــــــــــــــــد

يهمنا ان نلم بصفات الشعر المصرى في النصف الثاني من القرن التاسع عشر لان في ذلك ما يمهد لمطران وعلى هذا الضوء ينجلي تقييمه.

مما لا شك فيه ان حالة الشعر المصرى في تلك الفترة كانت على خلاف ما يشتهى لها ان تكون ، فالملكة الشعرية قد فسدت حتى كاد الشعر يضل طريقه بين المحسنات اللفظية والبديع والتوشية والتنميق وحساب الجمل وما الى ذلك من ثرثرة وحشو وتطريز .

ولم يكن جميع الشعراء المصريين متشابهين من حيث النشأة والثقافة ، فمنهم من نشأ نشأة دينية ازهرية ومنهم من سافر الى اوروبا ودرس هناك ، ومنهم من نشأ وعاش في البادية ، ومنهم من عاش في الحاضرة على احسن ما يكون التحضر ، ومنهم من كانت ثقافته العربية متينة قوية درس اللغة والشعر القديم وتأثر فحول الشعراء القدامى ومنهم من كانت لغته ضعيفة ركيكة تكاد تكون عامية .(١)

ولكن على الرغم من هذه الخلافات جميعها فان الشعراء الذين درسوا في الغرب لم يستفيدوا شيئا يذكر ، فلم يؤثر الشعر الغربي فيهم على الاطلاق ، ذلك ، لان طابع الشعر العربي باطاره ، وعموده وارتكازه على وحدة البيت ، لا وحدة القصيدة ، ظل مسيطرا على الشاعر المصرى الذى ظلت عينه على الشاعر العربي القديم يتأثر الجاهلي والاموى والعباسي ويحاول ان ينسج على منوالهم معارضا تارة ومقلدا اخرى ، ومقصرا على كل حال .

واكثر هؤلاء الشعراء نظروا الى الشعر من حيث هو كلام موزون مقفى فاذا استقام الوزن وانقادت القافية تم لهم الشعر . والشعر عند هؤلاء يصلح لاى موضوع فهو للتطريز والتنميق ، والمناسبات ، والاراجيز ، والتواريخ وما شابه ذلك خلا العاطفة والشعور والاحساس الصادق .

وارى تسهيلا للبحث ان اقسم هذا الشعر الى ثلاثة اطوار :

الطور الاول : (١٨٠٥ — ١٨٦٣) ويشمل الشعراء الذين عاشوا في ظل محمد علي وعباس وسعيد ويتناول منهم :

١ — علي الدرويش .

٢ — محمد شهاب الدين .

---

(١) العقاد ، عباس محمود — شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي .

الطور الثاني : (١٨٦٣ - ١٨٨٢) يشتمل على عهد اسماعيل الى اوائل الاحتلال ويتناول :

الساعاتي .

الطور الثالث : (١٨٨٢ - ١٩٠٠) من اول الاحتلال الى اواخر القرن التاسع عشر .
ويتناول :

١ - عبد الله فكرى
٢ - علي الليثي
٣ - عبد الله نديم
٤ - محمد عثمان جلال
٥ - عائشة التيمورية
٦ - محمود سامي البارودى .

وعلى كل حال فهذا تقسيم اصطلاحي ، ذلك لان العصور الادبية متداخلة فقد يعيش شاعر في القرن العشرين ويمكن تصنيفه في العصر العباسي لانه ينحو منحى الشعراء القدامي ويتناول مواضيعهم وينسج على منوالهم .

اسباب النهضة وموانعها :

كان لمجيء نابوليون الى مصر اثر بالغ في تنشيط الحياة الفكرية والاجتماعية ذلك لان نابوليون ، وهو ابن الثورة الافرنسية ، كان قد حمل معه بذور تلك الثورة وتعاليمها . فاصطحب بعثة علمية ضمت خيرة علماء فرنسا . وانشأ اول مطبعة ساعدت على احياء التراث العربي القديم ووضعه بين ايدى القراء . وانشأ المجمع العلمي . واقام نظام الشورى .

وكان لاكتشاف آثار مصر ، وخاصة حجر رشيد ، اثر بارز في احياء الروح القومية .

ثم جاء محمد على الكبير ووزع الاراضي على الفلاحين وانشا الدواوين وجلب نبات القطن من اميركا ، واقام السدود ، ونظم الجند ، وانشأ المدرسة الحربية ، ومدرسة الطب ، ومدرسة الالسن وارسل البعثات الى فرنسا .

على ان الصفة العامة لنهضة محمد علي كانت علمية اجتماعية ولم تكن ادبية ، ذلك لان هدفه الاول كان تقوية الجيش فكان يرسل البعثات الى فرنسا للتخصص في فنون الحرب والطب والعلوم وقد انشأ المدرسة الطبية لتجهز الجيش بالاطباء .

فلم تصل نهضة فرنسا الادبية الى مصر في ذلك العهد عن ذلك الطريق، فكان الشاعر المصرى يتغذى على ما وصله من شعر عصر الانحطاط وهو شعر ردئ لا يصلح غذاء لشيء .

وكانت موانع النهضة في مصر ، قبل ذاك كثيرة تتلخص في مانع واحد كبير هو فتور الحياة القومية في عهد من الزمن طويل .

ويدخل في هذا المانع الكبير سائر الموانع الاخرى :

اولا — سلطان الاجنبي

ثانيا — غلبة الاعاجم على البلاد

ثالثا — قلة العلم بالاساليب الفصيحة .

رابعا — ندارة الكتب القيمة بين ايدى المتعلمين على نزارة عددهم .

خامسا — انقطاع الصلة النفسية بينهم وبين شعبهم . (١)

الصفات العامة لشعر الطور الاول :

هو شعر انحطاط وتدهور . جاء بعد زمن مديد من التحكم والاضطهاد ، فمن حكم اجنبي دخيل الى حكم اجنبي دخيل آخر حتى انتهت السلسلة بحكم الاتراك العثمانيين الذين قضوا على كل معالم التحضر . فلم يبق امام الشاعر المصرى سوى هذه النماذج من شعر الانحطاط يقلدها ويتأثرها ويقيس عليها ، ذلك لانه كان قد انقطع عن تاريخ الادب العربي الصحيح بسبب فقدان الكتب وطغيان الجهل وضعف الهمة وانكسار النفس بسبب الظلم الطويل فلجأ الى التقليد والمحاكاة وماتت فيه ملكة الخلق والابتكار بسبب الرق والجهل وفقدان الطريق الصحيح . ومسخ الشعر واصبح صناعة لفظية تتعمد البديع والتضمين والتشطير والمعارضة وحساب الجمل . وكان الشاعر يقوم بهذه العملية وكأنه خارج عنها فلا تظهر شخصيته ولا تتكشف نفسيته ولا تبدو ملامحه وخير

---

(١) العقاد ، شعراء مصر وبيئاتهم صفحة ٨ — ١٢

شاهد على ما نقول علي الدرويش المتوفى سنة ١٨٥٣ صاحب ديوان "الإشعار بحميد الأشعار" فالسجع حتى في اسم الديوان وكذلك حساب الجمل يؤرخ به سنة ١٢٧٠ للهجرة .

يبدأ الدرويش ديوانه بمدح النبي بهذين البيتين ويودعهما ثمانية وعشرين تاريخا :

خير البرايا احمد سما له	بيت رقي في المعالي مورد
اتقى نبي نور طهر عاصم	هو خير اى الرسل بل واحمد

فانظر الى هذا النسج المهلهل ، والى السداة واللحمة فيه واخذ الحرف للحرف والكلم للكلم .

فالشعر — وهو في عرف الدرويش صناعة — فلا بأس ان يكون اعجازا يلفت الناظر ويدهش القارىء فيأتي بالبيت وكل حرف فيه منفصل فيقول :

أاراك ودى ان اراك وان ارى	آرام ودى زاده ودق روى

ثم كل حرفين معا :

كم كوكب لي طالع في حاجر	يزهو بوجه ضاء يا له جأى

ثم كل ثلاثة معا :

قمر بهي فيه همت فما شفا	ضني فتى يظل منه على شفا

ثم كل اربعة معا :

قلبي يهيم لطيب طيبة مقمر	بظبا تجنت لظباء تتقي

ويتبع ذلك بيت كله مهمل :

وهو رسول الله طه احمد	ومحمد روح المكارم والملا

الى آخر كله معجم :

يغيث في ضيق فتى ذى خيفة	نبي فيض يتقي غيث غنى

وهذا شطر معجم وشطر مهمل :

ثبت يقي ثقة يفي ببغية	وكماله سما السماك والسهى

وآخر شطر مهمل وشطر معجم ، فليس من الصعب على الذى يستطيع ان يركب شطرا معجما وآخر مهملا ان يركب شطرا مهملا وآخر معجما :

مولاه ارسله اماما عادلا	يقضي يثيب يزين يشفي يقتفي

الرحلة طويلة شاقـة فلاختصر لك الطريـــق ٠

وهكذا ينتقل من بيت (كلماته من المقلوب المستوى) الى آخر فيه (حرف مهمل وحـرف معجم) وآخر (حرفان مهملان وحرفان معجمان) وآخر (كل كلمة مطلوب ما قبلها) وآخـــر (ثلاثة احرف مهملة وثلاثة معجمة) وآخر (اربعة احرف معجمة واربعة مهملة) وآخر (حـرف منفصل وحرفان متصلان) وآخر (حرفان متصلان وحرفان منفصلان)٠ فلا شك في انك معجب بهذه الفسيفساء ! او ليس هذا اشبه ما يكون بلعب الصغير يعبث بقطع الخشب الملون ينقلها ويبدلها فالاحمر هنا والازرق هناك والازرق هنا والاحمر هناك وزد الى ذلك الاصفر والاخضر ولون الدجنة ولون قوس قزح ٠

ولن انسى ان اذكر لك الكلام المقلوب ـ مقلوب ما قبله ومقلوب ما بعده ـ والبيت الـذى يرد آخره الى اوله واوله الى آخره ، وحساب الجمل ٠ فصاحبنا ـ صانع المعجزات ـ لا يكتفي بكل ما سبق فاذا به شأن البهلوان الذى يبدأ بالالعاب متدرجا من السهـل الى الصعب ويبقي "اللعبة الخطرة" الى نهاية المشهد فينتزع التصفيق وتقوم قيامة الاعجاب٠

فشاعرنا الدرويش يكتب رسالة نثرية مطعمة بالسجع ثم يختار منهـا مفردات يحينها ويعود فيجمعها شعرا فما رأيك بهذا النثر المشعور والشعر المنثور ؟ ! او ليست هذه "قفزة الموت" وقد نجا صاحبنا فهات كفك فلمن ندخر التصفيق ؟ !٠

والغزل عند الدرويش نظم وصناعة فاستمع اليه وقد لبى طلب احدهم في نظم بيتين من الغزل اول كل كلمة منهما عين :

علي على عينيك عذل عواذ لي   عذاب عليها عند عاشقها عذب
عذارك عذرى عجب عطفك عدتي   عيونك عضبي عاد عاشقها عضب

وتستغفر الله بعد ذلك النقش والتطريز وتقلب الصفحات تفتش عن الشعر فلا تجد غير ابيات مشدودة من شعرها ، وعبثا تقع على معنى رائع او قول فخم ضخم ، او فكر رفيع ، او نغم موسيقي ، فالشعر عند صاحبنا ليس من هذا في شيء ، هو الاعيب بهلوانية ، وحساب جمل ، وتواريخ ، وتضامين وحروف هجاء ، مهملة ومعجمة ، مفككة وموصولة ، وليس كلمات ذات معنى وجرس ونغم وليس تعبيرا عن احساس ، اوعاطفة او فكرة تبقى بقاء الانسان وتعكس قضاياه الازلية ، وليس نقلا ، على اجمـل ما يكون النقل ، لتجربة شخصية فريدة ، فلا يزيد على ان يكون هذه "الكليشيهات" والالعاب الصبيانيـــة ٠

فشعر الدرويش شعر مناسبات . لا يدع الدرويش مناسبة تفوته الا ويسجلها شعرا فيقول مهنئا فلانا برتبة رقي اليها ، ويمدح فلانا ، ويقول مستعطفا ، او يعرض حالا ، او مقدما عذرا وما شابه ذلك .

ويذهب الطاعون فيقول مهنئا ، ويقول مداعبا ، ويقول مؤرخا الجوامع ، والقناطر ، والجسور والولادات ، والوفيات ، والختان ، ونيل الرتب . والسجع حتى في عناوين القصائد : "وقال مهنئا صديقه الاوحد حضرة السيد حسن اباظة الامجد ومؤرخا مولد نجله احمد " .

ويقول مشطرا ويقول مخمسا معارضا الشعراء القدامى وله "في واقعة حال " والملح ، والنوادر ، والمداعبات وفي نظم بحور الشعر جميعها .

وكل ذلك مليء بالمحسنات والبديع فمن طي الى نشر ومن جناس الى تورية الى استعارة الى تشبيه .

وعلى العموم هو شاعر لا يعيش في عصره ولا في بيئته ، ولا يتجاوب مع الحياة ولا يتجاوب مع نفسه همه ان يقلد الشاعر الجاهلي فيقول (١) في مغارة روضة النيل وقد درست وصارت مهجورة بعد الرونق والحسن :

قفا نبك من مرأى المغارة يا علي	وحزن الاماني من جزيرة منيل
جرى سائلا دمعي عليها لما جرى	(وهل عند رسم دارس من معول)
ارتنا صروف الدهر فيها عجائبا	تبدل رمان الرياض بحنظل
بكى ابن حجر لو رآها لما بكى	(بسقط اللوى بين الدخول فحومل)

فهذا شعر جاهلي نقبله من امرىء القيس لانه قول صادق يصور بيئة الشاعر ويعبر عما في نفسه ، ولا نقبله من شاعر عاش بعد امرىء القيس بما يزيد على اربعة عشر قرنا فاذا تكلم عن روضة النيل جاء بقفا نبك وبالدخول فحومل وبمناخ صحرائي .

ومحمد شهاب الدين المتوفى سنة ١٨٥٧ م . لا يختلف عن صنوه علي الدرويش في فهم الشعر ونظمه . ففي مقدمة ديوانه المسجوعة بعد ذكر الرسول وآله يقول (٢) كنت قد قسمته (الديوان) الى اجزاء سبعة اتيت في كل ما يناسب طبعه (الاول) في امتداحه صلى الله وسلم عليه ، والتوسل بجاهه العظيم عنده اليه (الثاني) في مدحة ارباب الدولة ، واصحاب الشوكة والصولة (الثالث)

---

(١) الديوان ص ٢٤١

(٢) الديوان ص ٣

في ذوى المناصب من الجهابذة ، واولى المراتب من الاساتذة (الرابع) في الاخوان والندمان ، والحسان من الجوارى والغلمان (الخامس) في تقاريظ الكتب ومقاطيع التاريخ (السادس) في عظة النفس بالزجر والتوبيخ ،وجعلت (السابع) من تلك الاجزاء في الرثاء ، وجميل الصبر والعزاء ، طلبا لحسن الختام ، ورغبا في العفو الشامل التام ، ثم عن لي ان ازيدها ثامنا ، يكون لكمال حسنها ضامنا ، فقلت (والثامن) في الاراجيز الرائعة والمزدوجات الفريدة الفائقة ، وبهذا صارت الاجزاء ثمانية ، عدد ابواب الجنة العالية .

واول ما يطالعنا في هذا الديوان قصيدة في مدح الرسول يستهلها بالغزل ثم ينتقل الى الشراب وذكر الراح والنديم والغناء — وهو رقية الزنى كما يقول صاحب الاغاني — وهو ما فرش هذا الفرش لمدحة الرسول يجمع المحرمات ويحللها الا اقتفاء لسنة القدامى وتقليدا لصاحب "بانت سعاد" وهو يسعى الى البديع ويتعمد الجناس في امثال قوله :

غنني يا اخا الندامى ورنم	انا ما لي عن الغناء غناء

ويسأله بعد ذاك ان يذكر له "العقيق" كان ليس عنده نيل يجرى وجمالات يقام لها ويقعد . ولكن هذا هو التهافت على التقليد :

وينتقل الى القصيدة الثانية فاذا حروف كلماتها مفردة :

راح دن ادرت ام ذوب ورد	رق اذ دار دون آس وورد
رب روض اراك دوح اراك	دون اوراق ورده راق وردى

واذا هي تعج بالجناس والمحسنات والبديع :

وهو يسترحم ويستغفر ويسأل الرسول ان يكون له شفيعا :

فجد ربي واغفر سيئاتي وعافني	واصلح فساد الفتق بالرتق والرفيء

او ليس هذا اقرب الى دكان خياط ؟!

فشعر شهاب الدين شعر مناسبات فمن تهنئة في سلامة او ختان ، او انشاء جامع اوحج ميمون ، او انشاء دار ، الى عتاب واستعطاف او تطريز او تهنئة بزواج او التماس خدمة لصديق كلفه ان يساعده على نيل مأرب فيصبح الشعر عنده (بطاقات توصية) :

وهو في مدحه مقلد يبدأ بالغزل المتكلف ، بدوى النزعة يعيش في "صبانجد" "والعقيق" "والعرار" وما الى ذلك من مناخات الصحراء .

وشعره مليء بالطي والنشر ، بالبديع ، والجناس ، والتضمين والتوشية والتنميق والتأريخ ولا تسأل عن المبالغات والغلو والاطناب ، فهو يكسو معدوحيه الحلل الفضفاضة بغير حساب فهي جاهزة يلبسها ايا كان ، وليس عنده اثواب فصلت على قد .

همه ان يستقيم له الوزن وتنقاد له القافية واليك قوله [١]

في رياض تراقص الغصن فيها	اذ على عوده الهزار ترنم
بين آس ونرجس واقاح	وبهار وجلنار وخوجم

فانظر الى هذه "الخوجم" والى انعدام الذوق وقلة المائية في الشعر .

والشعر عنده يصلح لكل شيء ، فهو لم يعد كما قال الاغريق "لغة الآلهة" بل اصبح لغة الشياطين . فاذا طلب منه احدهم ان ينظم له شيئا على العجون في لحية ابن خالته وكان قد حج وارسلها هناك وعاد بها ، قال قصيدتين بدلا من واحدة ، واذا بعث اليه بعض الاخوان بشيء من الحنطة كان على الشعر ان يقوم بتسديد الحساب ، وهو ينظم في اسماء شهور الجاهلية وعيوب القوافي وحركاتها وضرورات الشعر وما الى ذلك من سخف ، فلا عاطفة ولا صدق في التعبير ولا خيال ولا فكر ولا ما يهز النفس .

يقول [٢] "كتبت الى جناب الخواجه بطرس بكتي قنصل المسكوف وكان قد زارني يوما ولم يكن بيني وبينه معرفة فقلت تطريزا" .

بعد مقدمة في الغزل :

. . . وتم لي الصفو الذى كاد حظه	يكون كحظي يوم ايناس بطرس
الا وهو تاج الفخر ذو الحسن والبها	مشيد ركن المكرمات المؤسس
جميل السجايا الالمعي فطانة	رقيق الحواشي ذو الحجى والتفرس
هشوش المحيا ضاحك السن دائما	حليف المعالي ذو الجناب المقدس
تكاملت الاوصاف فيه وقلما	تكامل كل الحسن في وصف كيس

---

(١) الديوان - ص: ٧٣

(٢) الديوان - ص: ١٦٥

كل هذا ولم تكن له به سابق معرفة كما يقول في مقدمة القصيدة . أرأيت الى هذا الصدق في القول ؟ ! أو لا ينطبق هذا الشعر على اى شخص؟ . ذلك لانه لا يدل على شخص آخر بعينه . هو كلام جاهز .

واذا قال على سبيل الهزل والمجون استغفر الله سبحانه وتعالى (١) فيذكرني ذلك قول العقاد في "شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي" ان الشاعر كان يخاف الله ودينونته من هفوات او سقطات تقع في شعره ولا يخاف دينونته على يد النقاد .

والذى اوصل الشعر الى تلك الحالة فقدان النقد الصحيح الموجه اذ ان الناقد هو البوصلة التي تهدى الشاعر وتضع له العلامات في الطريق والنقد هو المرآة التي فيها يرى الشاعر وجهه على الصدق .

فشهاب الدين يؤرخ كل شيء يخطر ببالك من ختان ، او انشاء سبيل ، او ولادة ، او وفاة او دعوة ، او رتبة ، او بلاطة توضع فوق قبر ، اومن حج ، او بناء منزل ، او جامع او طريق ، او زواج او وقفية ، او ليلة انس ، اوعام جديد ، او ختم القرآن . حتى ليكاد يصبح ديوان صاحبنا دفتر كنيسة لما فيه من تواريخ الولادة والعماد ، والزواج ، والوفاة .

مدحه زلفى ورياء ومبالغة واطناب ورثاؤه كلام عادى مألوف يخلو من كل جدوى ، اللهم الا المبالغات في تعداد صفات الميت وكيف تغيب الشمس وتدك الجبال وتقوم القيامة من هول المصاب فيه . (٢)

اودت بطور الهدى حتى قد انتظمت	فيه عقود الرثا والدمع منثور
شمس الحقيقة مصباح الطريقة –) –	منه لكلتيهما في السر تنوير
. . . يا كوكب اشرقت في الكون طلعته	ثم انطوى ولوآء الفضل منشور .

وكثيرا ما يسطو على من سبقه من فحول الشعراء ولا يرى في ذلك اى ضير كقوله :

وارى الليالي بالحوادث قد جنت	زهراتنا وعلى الذى اختارت جنت
ام حيث انشبت المنية ظفرها	انيابها للنائبات تبينت
من خال ان الليث يضحك سنه	خابت مظنته وهمته ونت

---

(١) الديوان ص. ٢٠٩
(٢) الديوان ص. ٣١٦

فنشوب اظفار المنية من الهذلي حيث يقول :

واذا المنية انشبت اظفارها　　　الفيت كل تميمة لا تنفع

فالليث الذى يضحك هنا ، هو من الليث الذى يبتسم في قول ابي الطيب :

اذا رأيت نيوب الليث بارزة　　　فلا تظنن ان الليث يبتسم

والباب الاخير في الديوان يدور على الاراجيز التي تحتوى كل غريب عجيب : في آلات الطرب والنصيحة ، واسماء خيل الحلبة العشرة ، واسماء قداح الميسر العشرة ، واشكال الرمل ، ومنازل الابراج ، والكواكب السيارة والثابتة او قواعد النحو وما الى ذلك من سخف وسقط متاع .

وبعد ، هذه هي الصفات العامة لشعر ذلك الطور فاذا نحن اردنا تقييمه لا نخرج بطائل فهو كلام موزون مقفى ولكن ليس فيه شعر ، ذلك لان مفهوم الشعر عند هؤلاء الشعراء مفهوم خاطيء . شعوذة والاعيب وتلهية . فاما ان يكون الشعر عملية جدية (هي ارفع عمليات الخلق الفني على الاطلاق) يحتاج الى ثقافة واسعة ورهافة ذوق ودقة احساس فذلك ما لم يكن لهم به عهد .

الطور الثاني — عهد اسماعيل

ميزة هذا الطور : امتاز اسماعيل عن سائر ولاة مصر قبله انه حبب سكنى الديار المصرية الى الاجانب من اوروبيين وغيرهم ووسع نطاق التجارة فاتوا اليها واقاموا فيها على الرحب والسعة مما آنسوه من الكسب الحسن والعيش السهل .

واكبر حدث قام به اسماعيل هو افتتاح ترعة السويس في عام ١٨٦٩ ولا يخفى ما في ذلك من اثر بالغ في حياة مصر وشعبها . فكانت هذه الترعة بجمعها بين بحرين قد جمعت بين مدنيتين غربية متحررة واعية وشرقية مستعبدة جاهلة .

وكان اسماعيل محبا للاصلاح مولعا بالتنظيم فشق الشوارع وشيد المباني وانشأ الحدائق وقسم القطر المصري الى ١٤ مديرية واسس مجلس نواب ونظم مجالس قضاء ، وبنى الجسور وخطوط الحديد .

ومما يقوله زيدان [1] "انه حسن مطبعة بولاق وزاد فيها وامر بترجمة الكتب المفيدة وطبعها ونشرها واسس معملا للورق ونشط المطبوعات فلم يكن في القاهرة الا جريدة الوقائع المصرية

---

(١) زيدان جرجي تاريخ مصر الحديث ج ٢ ص: ٢٢

تصدر على غير نظام فجعل لها ادارة خاصة بها • وتكاثرت على عهده المطابع والجرائد العربية ، وبالجملة فقد كانت للعلم في ايامه نهضة مرجع الفضل فيها اليه لانه كان يحب العلماء ويجيز المجيدين منهم ويأخذ بناصرهم ماديا وادبيا وكان يشهد الاحتفال بامتحان التلامذة بنفسه ويسلم الجوائز بيده وقد ينهض عند تقديمها تنشيطا لهم •

وقد دللنا على ما كان للعلم من رواج في ايام محمد علي الكبير ولكن هذه النهضة عادت وخمدت على عهد عباس وسعيد فالاول اقفل المدارس كلها الا واحدة وخلفه لم يكن احسن منه فقضى على ما تبقى •

ولما جاء اسماعيل لم يكن في مصر الا مدرسة ابتدائية ومدرسة ثانوية ومدرسة حربية ومدرسة طبية صيدلية وكانت في حالة يرثى لها • فاخذ في انشاء المدارس وجلب المدرسين من اوروبا واستخدام المصريين الذين ذهبوا في بعثات التخصص فحدثت في عهده نهضة ادبية لا بأس بها كانت بفضل المدارس والبعثات الى اوروبا والمدرسين الاجانب والصحف والمطابع والجمعيات الادبية ومن وفد على مصر من رجال الادب والعلم • وكان من اشهر الوافدين جمال الدين الافغاني الذى نزل مصر سنة ١٨٧١ وجاء له فيها فضل على الكتاب والادباء والمفكرين كبير •

وخلاصة القول ان مصر كانت في ايام اسماعيل زاهرة ، وكان الناس في رغد ورخاء ~~وعلى الخصوص~~ خاصة بعد ارتفاع اسعار القطن في اثناء حرب اميركا •

ولكن اسراف اسماعيل اغرق الدولة في دين بلغ مئة مليون من الجنيهات وقد ادى ذلك الى تدخل الاجانب واحتلال الانكليز •

هذا عرض سريع موجز لحالة مصر ونهضتها في عهد اسماعيل فهل اثر ذلك في حالة الشعر ؟

هذا هو السؤال الذى يعنينا الآن والذى نريد ان نجيب عليه • فمما لا شك فيه ان الازدهار في المدنية من حيث العلم والانتاج والعمران والحرية يودى الى الازدهار في الادب والشعر • فازدهار الشعر والادب في العصرين الاموى والعباسي مثلا وانحطاطهما في عصور الظلم والاستعمار دليل واضح على صحة هذا الزعم •

فقد تعاونت بواعث النهضة على تكوين ملامح الشاعر المصرى في هذا الدور. فلم يعد الشاعر حافظا للعروض متقنا للنظم وحسب بل اخذت شخصيته تتبلور وملامحه تتضح واخذ مفهوم الشعر عنده يتبدل بعض الشيء فلم يعد الشعر محض صناعة لفظية مفككة ركيكه سقيمة تقليدية بل اخذ يظهر فيه شيء من الطبع ومهما يكن من امر فقد كان محمود صفوت الساعاتي ، المتوفى ١٨٨٠ م ،، خاتمة الشعراء العروضيين وبداية لشعراء الطبع فقد يجارى الساعاتي هؤلاء الشعراء في الاكثار من البديع احيانا كما في قصيدة يمدح بها النبي جمع فيها مئة وخمسين نوعا من انواع البديع والتي يستهلها بقوله :

سفح الدموع لذكر السفح والعلم ... ابدى البراعة في استهلاله بدم (١)

ولكه كان اول معول ينهال على الشعراء النحاة كما يسميهم في قوله :

فدعني من قول النحاة فانهم ... تعدوا لصرف النطق من غير لازم

اذا انا احكمت المعاني خفضتهم ... وارفعها قهرا بقوة جازم

وما انا الا شاعر ذو طبيعة ... ولست بسراق كبعض الاعاجم

والظاهرة المهمة عند الساعاتي انه التفت الى مصر واحس طبيعتها وصورها في شعره وذلك ظاهر في مدحه للخديوى اسماعيل (٢)

... ومصر هي الدنيا جميعا وربها ... عزيز واهلوها هم النجباء

لقد جمعت ما بين شرق ومغرب ... كذلك بالفرقان جاء ثناء

خزائن ارض الله مصر وكم اتى ... حديث روته السادة القدمآء

لقد صير البارى ثراها واهلها ... وروى رباها كيف شآء وشآءوا

اذا فاض نهر النيل فيها يمده ... نوال مليك وفده وزرآء

تسامت باسماعيل قدرا ومنصبا ... وقد هز قطريها به خيلآء

تعالى على كرسيها فترنحت ... ومرت به عينا وزال عنآء

واسس فيها ملكه فتشرفت ... وطاول منه الفرقدين بنآء .

فهذا شعر يكاد يخلو من الصنعة ، واهم ما فيه انك ترى مصر من خلاله ، ترى عظمتها ونيلها وحب

---

(١) الديوان ، ص: ٩٦ — ١١٠

(٢) الديوان ، ص: ٦

الشاعر لها ، فاذا هي في عينه (الدنيا جميعا) و (خزائن ارض الله) . هذا محصول تبلور الفكرة القومية التي بلغت اوجها في ثورة عرابي .

هذا ، بينما نرى عند الشعرآء المقلدين جغرافية الصحراء ومناخها وترديد اسماء اماكنها ولا نكاد نرى اثرا لمصر .

وهو يذكرها ويمجدها في مكان آخر من ديوانه ، اذ يمدح الخديوى توفيق فيقول [١]

هل مصر الا روضة بل جنة ... والنيل نهر والحديقة كوثر
فالارض ترفل في حلى الوانها ... شتى وزينها الطراز الاخضر
عزت بتوفيق العزيز محمد ... مصر فود الكون لو يتمصر

فهذه ال (فود الكون لو يتمصر) رائعة .

واول ما يبدو وصف مجالي الطبيعة عند الساعاتي فهو يرى الجمال ويحسه ويظهر ذلك في شعره حيث يقول [٢]

بروض اذا ما جن مآء غديره ... تسلسل في اصل الاسيلات ما بقي
تراسلت الاطيار فوق غصونه ... كأن على الاوراق وشي منمق
اذا اعتنقت فيه الحدائق راعها ... جنى نرجس يرنو اليها المحدق
وان كتم الريحان سر اريجه ... يطير به النمام في كل مفرق
وان حدث النهر الحصى بصفائه ... يميل اليه البان في زى مطرق
تروح برياه النسيم وتختدى ... فتفترق الاغصان طورا وتلتقي

فان (حديث الحصى عن صفاء الماء) و (التقاء الاغصان وافتراقها) قول جميل ناتج عن احياء التراث الشعرى العربي القديم ووضعه بين يدى الشاعر فابتعد قدر المستطاع عن الزخرف ورجع الى النبع الاصيل .

وان يكن شاعرنا قد تخلص من السخف الذى غرق فيه من سبقه من شعراء تلك البيئة الا ان خلاصة هذا لم يكن تاما . ففي مدحه للشريف محمد بن عون الذى يستهله بقوله :

---

(١) الديوان ص: ٤٤

(٢) الديوان ص: ٨٠

ادر طلا الود واترك نصح من نصحا   يا صاح وانتهب اللذات مصطبحا

يأتي بمقدمة " فلكية " عجيبة يذكر الابراج والكواكب والنجوم ثم يخلص الى مدح ابن عون في كلام تقليدى واساليب يضرب فيها على القوالب القديمة ٠

فضل الساعاتي انه خرج الى الطبيعة فادخل في الشعر دما جديدا بينما عاش الشعراء الذين سبقوه في اقفاص الزخرف والبديع اقاموها لانفسهم وزجوا بها فيها ٠

اما فيما عدا ذلك فالساعاتي يكاد لا يختلف عنهم فرثاؤه كمديحه مليء بالمبالغات وغزله متكلف فيه تضمين وتشطير وتقليد لا يحتاج الى تدليل كثير٠ وله في المداعبات والمجون والملح والنوادر والتضمين والتشطير والتورية والتعريض وما الى ذلك من فنون القول التي ألفها شعراء وقته ٠

الطور الثالث :

حدثت في هذا الطور احداث جليلة اهمها ثورة عرابي ، والاحتلال البريطاني ٠

فقد ساعدت ثورة عرابي على اذكاء الروح القومية التي ادت والاحتلال الى نشأة الاحزاب السياسية والجرائد التي كانت لسان حال هذه الاحزاب ٠

ولا ننتظر ان يكون اثر تلك الاحداث جليا في الشعراء الذين كانوا قد استوفوا قسطا كبيرا من عمرهم وعاشوا حياة رتيبة تقليدية الفوها فبات من المتعذر عليهم الخروج عليها ٠ امثال عبد الله فكرى وعلي الليثي وعبد الله نديم الذى كان خطيب الثورة العرابية ولكن لم يظهر اثر الثورة فيما وقع بين ايدينا من شعره ذلك لانه لم يرغب في طبع دواوينه الثلاثة التي طلبها من صديق له استودعه اياها في يافا لكي يحرقها لانه كان يعتقد بأن الشعر بضاعة لا تجدر بالحسيب الاديب فهو صناعة يخجل منها لا تصلح للتقي الورع ٠

وعبد الله فكرى ظل يضع التواريخ بحروف الجمل في مطالع القصائد وخواتيمها كمثل قوله في فتح " سباستبول " وكل مصرع من مطالع القصيدة تاريخ للسنة ٠ (١١) ؟؟

لقد جاء نصر الله وانشرح القلب   لان بفتح القرم هان لنا الصعب

وقال مورخا زواج الامير حسين كامل :

أرخ لنحو حسين　　　تزف عين الحياة .

وكان يكثر من الجناس فقال في مدح "اسكار" ملك السويد حين سافر اليها لحضور موتمر المستشرقين :

وتلا به "اسكار" رب سريره　　　قولا به لذوي النهى اسكار

وقال في مليح رآه اول الشهر :

وبدر تبدى شاهرا سيف جفنه　　　فروع اهل الحب من ذلك الشهر
وليلة ابصرنا هلال جبينه　　　علمنا يقينا انها غرة الشهر

وكان هو وزميله علي الليثي الذى نادم اسماعيل وتوفيق يمثلان مدرسة الندمان التي من صفاتها ان يكون الشاعر سريع الخاطر ظريف المعشر حلو الشمائل يعرف تسجيل الفكاهة والنادرة قادرا على المداعبة همه الاول ان يكون نديما قبل ان يكون شاعرا فهو نديم اولا وشاعر ثانيا .

واذا مدح فليس في مدحه ما يغني فهو كلام عادى وان يكن قد خلص الى حد من الغرق في بحر من البديع والجناس وعلى سبيل المثال من قول الليثي في مدح السلطان عبد العزيز في عيد جلوسه سنة ١٢٩٠ هـ .(١)

دع ذكر كسرى وقصر ان اردت ثنا　　　عن قيصر الروم حيث النفع مفقود
واشرح مآثر من سارت بسيرته　　　ركائب المجد تحدوها الصناديد
مولى الملوك الذى من يمن دولته　　　ظل العدالة في الآفاق ممدود
عبد العزيز الذى آثاره حمدت　　　ان الالى جدهم في المجد محمود
اجاد نظم امور الملك في نسق　　　لا يعتريه مدى الازمان تبديد
وشاد فوق العلى اركانه فغدا　　　له على هامة الجوزاء تشييد
فلا تقسه باسلاف له كرمت　　　والشبل من هؤلاء الاسد مولود
ففخرهم عقد در وهو واسطة　　　في جيد آل بني عثمان معقود

---

(١) شيخو — الآداب العربية في القرن التاسع عشر ج٢ ص ٩٩

يقول العقاد [(١)] "فان النديم كثيرا ما يطلب منه ان يبادر الى القول فيما يقع بين يدى مولاه من الطرائف والنوادر وان يثبت ارتجاله باثبات المناسبات كلها واحصاء الاسماء والوقائع التي تنفي الاستعارة والاقتباس، ومن امثلة ذلك ان كبيرا من الكبراء كان يفرغ تفاحة في يده بالمدية ليشرب فيها فانقصفت المدية في اثناء ذلك، فنظر الكبير الى الشيخ الليثي كانما يستدعيه الى القول. فاذا هو يرتجل هذين البيتين :

عزت على الندمان حتى انهم	تخذوا لها كأسا من التفاح
ولدى اتخاذ الكأس منه بمدية	لان الحديد كرامة للراح

ولا ريب ان الكبير الذى اقترح القول يطربه ان يرى في حضرته شاعرا عظيما كالشعراء العظام الذين كانوا يزينون حضرة الخلفاء والامراء ، ومقياس العظمة الشعرية عنده ان يرتجل الشاعر القول ولا ينسى فيه شيئا مما يقتضيه المقام.

وينتهي العقاد بقوله : "وان هذا "الطابع" في شعر الندماء خاصة وشعر معاصريهم عامة ليدل على حالة النقد والذوق الادبي في زمانهم كما يدل على طريقتهم ودواعي النظم عندهم ، اذ لولا ضعف التمييز في ذلك الجيل بين طبقات الشعر ومذاهبه لما احتاج الناظم الى علامات من قبيل تلك العلامات لنفي الاقتباس واثبات الارتجال." .

وعبد الله نديم يحسب ان التجديد في الشعر يكون بتناول المواضيع الحديثة ومن ذلك قوله في وصف قطار بخارى [(٢)]

نظر الحكيم صفاته فتحيرا	شكلا كطور بالبخار مسيرا
دوما يحن الى ديار اصوله	بحديد قلب باللهيب تسعرا
ويظل يبكي والدموع تزيده	وجدا فيجرى في الفضاء تسترا
تلقاه حال السير افعى تلتوى	او فارس الهيجا اثار العثيرا
او سبع غاب قد احس بصائد	في غابه فعدا عليه وزمجرا
او انها شهب هوت من افقها	او قبة المنطاد تنبذ بالعرا

فتصور هذا القطار الذى يبكي وتنهمر دموعه كيف يكون.

---

(١) العقاد — شعراء مصر ص. ١٠٥ — ١٠٨

(٢) شيخو ص. ١٠٠

فالنديم طلب مخطوطات دواوينه ليحرقها وعلي الليثي لعن من يطبع ديوانه فاذا كان الباعث على ذلك عدم الرضى فخيرا يفعلان ٠

ونحن اذا عنينا بشعر هذه الفترة ذلك لاننا نريد ان نؤرخه وننظر فيه لكونه دخل في حكم التاريخ ليس الا فاصبح من حقه علينا ان نلتفت اليه ولكنه شعر تبقى منفعته قائمة من حيث هو نموذج لشعر الانحطاط ليس غير٠ فهو على العموم شعر ضعيف مبتذل يريق ماء وجهه في المديح دون حساب ويسجل المناسبات بدون فائدة وينحط في كل مواضيعه ٠

ومحمد عثمان جلال مثل آخر على ضعف الشعر وانحطاطه الى درجة يصبح فيها بلغة العامة ففي "العيون اليواقظ في الامثال والمواعظ" يترجم روايات موليير وامثال لافونتين بلغة ضعيفة ٠

ونقف هنا لنسجل ان هؤلاء الشعراء الاربعة فكرى والليثي ونديم وجلال وان كانوا قد جاءوا بعد الساعاتي من حيث الطور والزمان فهم جميعهم دونه من حيث الشاعرية ٠ هذا ما قصدناه في قولنا ان العصور الادبية متداخله فقد يقصر المتأخر ويبرز المتقدم في الزمن ٠

وفي هذا العصر نقف عند شاعرة وشاعر وقفة طويلة نتلمس التجديد اولاهما عائشة التيمورية المتوفاة سنة ١٩٠٢ صاحبة ديوان "حلية الطراز" وثانيهما محمود سامي البارودى المتوفى سنة ١٩٠٤ م ٠

شعر عائشة سهل ليس فيه كبير صنعة ، فهي لا تسير على سنة الشعراء الذين مروا معنا فلا تسعى وراء الجناس ولا تأتي بالمخاريق : من احرف موصولة او غير موصولة ، ومنقوطة الى اخرى ليست بذات نقط ، وتواريخ ، وبيت يرد آخره الى اوله واوله الى آخره ، وما شابه ذلك من شعوذات والاعيب ٠ على انها قالت في المناسبات كالوفاة والولادة وسلامة الاياب ، وما يكتب على لوحات الزينة عند مرور الخديوى ، او تهنئة في عيد وما الى ذلك ٠

ولكن عائشة تجيد احسن ما تجيد في الرثاء والغزل ٠ ومن غزلها هذه المقطوعة الجميلة :[1]

حي الرفاق وصف للحي اشواقي	وحدث الركب عن تسكاب آماقي
وبلغي يا صبا ان جزت نحوهمو	اني مقيم على عهد الهوى باقي
كيف اصطباري واحشائي بها حرق	من جذوة ما لها من حرها واقي

---

(١) الديوان ص: ١٤

... اسال حر الهوى قلبي وابرزه | جفني على يد اماقي واحداقي
هذا شواظ الهوى في القلب ملتهب | وفي التنفس من آثار احتراقي

ومن قولها في رثاء ابنتها (١)

اماه قد عز اللقاء وفي غد | سترين نعشي كالعروس يسير
وسينتهي المسعى الى اللحد الذى | هو منزلي وله الجموع تصير
قولي لرب اللحد رفقا بابنتي | جاءت عروسا ساقها التقدير
وتجلدى بازاء لحدى برهة | فتراك روح راعها المقدور
اماه قد سلفت لنا امنية | يا حسنها لو ساقها التيسير
كانت كاحلام مضت وتخلفت | قد بان يوم البين وهو عسير
صوني جهاز العرس تذكارا فلي | قد كان منه الى الزفاف سرور

ومن قولها فيها تطوى وتنشر :

قلبي وجفني واللسان وخالقي | راض وباك شاكر وغفور

والذى نلاحظه ان عائشة التيمورية في هذا الشعر تعبر عن عواطفها وتصور احاسيسها فجاء شعرها صادقا سهلا بسيطا غير متكلف .

وعنها يقول العقاد (٢) "اذا استثنينا البارودى اولا والساعاتي ثانيا فشعر السيدة عائشة يعلو الى ارفع طبقة من الشعر ارتفع اليها ادباء مصر في اواسط القرن التاسع عشر الى عهد الثورة العرابية "

اما البارودى فهو شيخ الشعراء وفاتحة التجديد . يقول الدكتور محمد حسين هيكل في مقدمته لديوان البارودى (٣) "شعر البارودى حياته ، فكل قصيدة في ديوانه صورة لحالة نفسية من حالات هذا الشاعر الملهم . والديوان في مجموعه صورة للعصر الذى عاش فيه ، وللبيئة التي احاطت به ، وللنهضة المتوثبة في الحياة حوله ، وللثورة التي تمخضت عنها تلك النهضة ، وللنكسة التي اصابت النهضة والثورة كلتيهما والتي نقلت الشاعر من وطنه الى منفاه ليقيم به سبعة عشر عاما وبعض عام ، يستأثر الشعر بها جميعا ."

---

(١) الديوان ص· ١٧ — ١٩
(٢) العقاد ص· ١٥٠ شعراء مصر
(٣) ديوان البارودى نشر علي الجارم ومحمد شفيق معروف.

ففي شعر البارودى نستطيع ان نرى اثر الثورة واضحا كل الوضوح ، فهو لم يبدأ بدراسة العروض وانما رجع الى نماذج من الشعر العربي في ارق عصوره واختارها وتأثر بها . وميزته فوق كل ذلك انه اعتمد على ذوقه ودقة ملاحظته ورهافة حسه في تصوير ما يراه بنفسه فجاء شعره صادق المنبع جليا واضحا ليس محجبا بحجب البديع والجناس.

واول ما يلفت النظر في شعر البارودى وصفه للطبيعة ولآثار مصر وكان في ذلك استاذ شوقي ورائده ، ووصفه للحرب ، والحنين الى وطنه واهله واصحابه في غربته ومنفاه .

ومن قوله في وصف النيل وهو في المنفى (1)

ليت شعرى متى ارى روضة الند	يلي ذات النخيل والاعناب
حيث تجرى السفن مستبقات	فوق نهر مثل اللجين المذاب
قد احاطت بشاطئيه قصور	مشرقات يلحن مثل القباب
ملعب تسرح النواظر منه	بين افنان جنة وشعاب
كلما شافه النسيم ثراه	عاد منه بنفحة كالملاب
ذاك مرعى انسي وملعب لهوى	وجنى صبوتي ومغنى صحابي

وفي هذه القصيدة البليغة التي يتشوق فيها الى مصر ويرثي صديقيه حسين المرصفي وعبد الله فكرى يندب شبابه ويصف شيخوخته فيقول :

كيف لا اندب الشباب ،وقد اص	بحت كهلا في محنة واغتراب
اخلق الشيب جدتي ، وكساني	خلعة منه رثة الجلباب
ولوى شعر حاجبي على عيـ	ني حتى اطل كالهداب
لا ارى الشيء حين يسنح الا	كخيال ، كانني في ضباب
واذا ما دعيت حرت ، كانني	اسمع الصوت من وراء حجاب
كلما رمت نهضة اقعدتني	ونية لا تقلها اعصابي
لم تدع صولة الحوادث مني	غير اشلاء همة في ثياب

---

(1) ديوان البارودى ج ١ . ص. ٤٨

ففي شعر البارودى نستطيع ان نرى اثر الثورة واضحا كل الوضوح ، فهو لم يبدأ بدراسة العروض وانما رجع الى نماذج من الشعر العربي في ارق عصوره واختارها وتأثر بهـا . وميزتـه فوق كل ذلك انه اعتمد على ذوقه ودقة ملاحظته ورهافة حسه في تصوير ما يراه بنفسه فجاء شعره صادق المنبع جليا واضحا ليس محجبا بحجب البديع والجناس.

واول ما يلفت النظر في شعر البارودى وصفه للطبيعة ولآثار مصر وكان في ذلك استاذ شوقي ورائده ، ووصفه للحرب ، والحنين الى وطنه واهله واصحابه في غربته ومنفاه .

ومن قوله في وصف النيل وهو في المنفى (١)

ليت شعرى متى ارى روضة المنـ	يلي ذات النخيل والاعناب
حيث تجرى السفين مستبقـات	فوق نهر مثل اللجين المذاب
قد احاطت بشاطئيه قصـور	مشرقات يلحن مثل القبـاب
ملعب تسرح النواظر منـه	بين افنان جنة وشعـاب
كلما شافه النسيم ثـراه	عاد منه بنفحة كالملاب
ذاك مرعى انسي وملعب لهوى	وجنى صبوتي ومغنى صحابي

وفي هذه القصيدة البليغة التي يتشوق فيها الى مصر ويرثي صديقيه حسين المرصفي وعبد الله فكرى يندب شبابه ويصف شيخوخته فيقول :

كيف لا اندب الشباب ،وقد اصـ	بحت كهلا في محنة واغتراب
اخلق الشيب جدتي ، وكساني	خلعة منه رثة الجلبـاب
ولوى شعر حاجبي على عيـ	ني حتى اطل كالهـداب
لا ارى الشيء حين يسنح الا	كخيال ، كانني في ضبـاب
واذا ما دعيت حرت ، كانـي	اسمع الصوت من وراء حجاب
كلما رمت نهضة اقعدتنـي	ونية لا تقلهـا اعصابـي
لم تدع صولة الحوادث منـي	غير اشلاء همة في ثياب

---

(١) ديـوان البارودى ج ١ ، ص ٤٨

وينتهي فيها ببيت حكمي جميل :

انما المرء صورة سوف تبلى ... وانتهاء العمران بدء الخراب

والبارودى مقلد في غزله فالمرأة عنده ، كما كانت عند من سبقه من الشعراء — من حديقتي الحيوان والنبات . فالنرجس، والسوسن ، والرمان ، والتفاح ، والعناب ، والمهى ، والجآذر ، والرمح والبدر ، والبان ، والورد ، والغصن ، للعين والشعر ، والنهد ، والخد ، والقد .

ومن ذلك قوله (١)

تأنق فيه الحسن فامتد فرعه ... الى قدميه ، واستدارت نهوده

فللمسك رياه ، وللبان قده ... وللورد خداه ، وللظبي جيده

وله مصورا حالته النفسيه تصويرا جميلا (٢) وهذا التغني بالم الذات هو اول الرومانسية في الادب العربي الحديث .

ما اطول الليل على الساهر ! ... اما لهذا الليل من آخر ؟

يا مخلف الوعد ! الا زورة ... اقضي بها الحق من الزائر ؟

تركتني من غمرات الهوى ... في لج بحر بالردى زاخر

اسمع في قلبي دبيب المنى ... والمح الشبهة في خاطرى

(فدبيب المنى) و (المح الشبهة في الخاطر) من اروع القول في الأدب العربي . ولهذا البيت قصة بين حافظ والبارودى تدور على (أحس) و(أسمع) تدل على رهافة حسها وعلو ذوقها .

وجعل العقاد ميزة البارودى (٣) " واضحة لا نظير لها في تاريخ الادب المصرى الحديث ، ذلك انه قد وثب بالعبارة الشعرية وثبة واحدة من طريق الضعف والركاكة الى طريق الصحة والمتانة ، واوشك ان يرتفع هذا الارتفاع بلا تدرج ولا تمهيد ."

---

(١) الديوان ج ١ . ص ١٦٤

(٢) الديوان ج ٢ . ص ٩٦

(٣) العقاد ، شعراء مصر ص ١٢١

والبارودى عند مندور (١) "عاد الى منابع الشعر العربي السليم ، واستطاع ان يخلص الشعر من هذه الآفات القاتلة وان يعيد اليه ديباجته الناصعة . واذا كان قد استمد بعض معانيه او اخيلته او انغامه من القدماء ، فانه بلا ريب قد صاغ بعضا من تجاربه الخاصة وتجارب عصره صياغة شعرية قوية ، لا تقل روعة عن صياغة كبار العباسيين ".

على ان البارودى لم يخلص من شعر المناسبات والمديح والغزل التقليدى والمعارضات . فانه عرف الشراب ومجالسه ، والغواني وفتنتهن والطرب بالموسيقى والغناء ، وقال في هذه الاغراض جميعا ولكن هل كان محبا صادقا في غزله ؟ لم يكن كذلك فهو مزور يحسن التزوير ومقلد يحسن التقليد همه ان ينهج نهج القدماء في استهلال القصائد بالغزل والخمر وما شابه ذلك. وكان يتخذ هذه المقدمات للفخر والوصف والسياسة والحرب وغيرها من فنون القول .

وكان يعارض فحول الشعراء فيوفق حينا ويقصر حينا آخر ومن ذلك معارضته لابي فراس في قصيدته "آراك عصي الدمع شيمتك الصبر" يقول: (٢)

فكيف يعيب الناس امرى ، وليس لي ولا لامرىء في الحب نهي ولا امر
ولو كان مما يستطاع دفاعه لألوت به البيض المباتر والسمر
... على انني كاتمت صدرى حرقة من الوجد لا يقوى على حملها صدر
واني امرؤ لولا العوائق اذعنت لسلطانه البدو المغيرة والحضر
من النفر الغر الذين سيوفهم لها في حواشي كل داجية فجر
اذا استل منهم سيد غرب سيفه تفزعت الافلاك والتفت الدهر

ومهما يكن من شيء فالبارودى رائد الشعراء المطبوعين ، ذلك لانه كان شاعرا بالفطرة فلم يدرس العروض ويحفظ المعاجم فكان شاعرا عن حق ولم يكن ناظما وحسب ، ذا شخصية بارزة المعالم وان لم يخلص شعره من التقليد والمحاكاة فهو في تقليده مجدد لانه لفت انظار الشعراء بما اختاره من مختارات — الى ان الشاعر يجب ان يلتفت الى الشعراء القدامى المبرزين الذين قالوا الشعر على سجيتهم فخلا من المحسنات والبديع وجاء معبرا عن احساس عميق وحس مرهف .

---

(١) مندور ، محمد — الشعر المصرى بعد شوقي ص. ٤
(٢) الديوان ج ٢ ص. ٣٧ — ٣٩

وشعره ليس جديدا بالنسبة الى الشعر العباسي ، خلا بعض القصائد التي تناول فيها وصف آثار مصر ، والحرب ، وعواطفه في منفاه • وهو في كل ذلك محافظ على عمود الشعر من وحدة البيت ووحدة الروي والديباجة يسوق القول في نفس المواضيع المعروفة • ولكن اذا قيس هذا الشعر الى شعر شعراء مصر في ذلك العصر بدا جديدا كل الجدة ومن هنا جاء فضله •

فالبارودى زعيم المجددين ، واول الرومانتيكيين ، كان لتجارب حياته اثر في شعره فاستفاد من الحروب بطولة ودقة وصف ، وحركة ومتانة ، ومن النفي حنينا وروما نسية ورقة وصدق تعبير ، وعلى يده صفت العبارة الشعرية •

وهكذا يبدو اثر النهضة في شعر البارودى بارزا واضحا فثورة عرابي — والبارودى احد اركانها — اذكت تلك الحماسة في النفوس وهيأت للوطنيات احسن تهيئة وساعد على ذلك السيد الافغاني وتلميذه الشيخ محمد عبده والاحزاب السياسية • والجرائد نقلت القصائد الى يد الجمهور وفتحت باب النقد والتعليق • فالشاعر الذى كان ينظم شعره ليلقيه امام ممدوحيه وخاصته اصبح مضطرا الى الاعتناء به لانه يخاطب به الجمهور من طريق هذه الجرائد • وبسبب ذلك نشط الشعر وبلغ اوجه عند اسماعيل صبرى وشوقي وحافظ ومطران •

حالة الشعر المصرى بعد البارودى :

١ — اسماعيل صبرى

٢ — شوقي

٣ — حافظ

لقد كان البارودى الجسر الذى عبر عليه الشعر العربي الحديث من طور التقليد والركاكة الى طور التجديد والاصالة • وكان القدر قد ساقه ليكون رائد صبرى وحافظ وشوقي ، فقد رجع البارودى الى منابع الشعر العربي القديم وعب منها ما استطاع وعبر بالشعر عن عواطفه وحوادث عصره •

وبموته انتقلت زعامة الشعر العربي الى اسماعيل صبري باشا . غير ان صبري شاعر مقل لانه لم يحترف الشعر ، وانما كان يقوله متى جاشت به قريحته ، قصير النفس اغلب شعره مقطعات بعضها لا يتجاوز البيتين عدا .

والى ذلك يشير حافظ ابراهيم في رثائه له حيث يقول (١)

يقول فيرخص در النحور	ويغلي جمان بنات الفكر
يسوق القصار فيابى العثار	وكم من مطيل ممل عثر
قصار وحسب النهى انها	لها معجزات قصار السور

وديوانه صغير الحجم اذا ما قيس بدواوين حافظ وشوقي ومطران .

واول ما يطالعك من شعره في الديوان قصيدة يهنيء بها الخديوى اسماعيل بعيد الاضحى سنة ١٨٧٠ والشاعر يوم ذاك طالب لم يتجاوز بعد الستة عشر عاما ، وثانية يهنوه فيها بنفس العيد سنة ١٨٧١ وثالثة في مدحه - ورابعة في قدومه من الآستانة وخامسة بمناسبة عودته من سفر ويختمها بتاريخ وسادسة يهنوه بعيد الفطر . وهو كذلك يهنيء توفيقا ولا ينسى ان يذيل مقطوعاته بتواريخ .

يتكلف الجناس والتورية ويجيد حساب الجمل . وهو في شعره هذا لا يخرج عن كونه مقلدا يروض القول على سنة من سبقه من الشعراء ، دون ان يوفق ودون ان تظهر عبقريته ونبوغه .

غير ان صبري يمتاز بخفة الروح - ورقة الحس ، وامتياز الطبع ، وحدة المزاج وحسن الذوق . وهو شاعر انيق رقيق مترف .

نشأ نشأة ارستقراطية وعاش حياة مترفة فعبر عنها احسن تعبير غير ان هذا لا يعني انه عاش بعيدا عن شوؤن الناس فلم يتألم لألم الشعب ولم يحس لاحساسه . بل هو يتجاوب مع الاحداث السياسية ويعبر عن رغبة الشعب ويدافع عن استقلال وطنه وحريته في قصائده (استنهاض الامة المصرية) (٢) و (حيث الامة المصرية) (٣) وفيها يفاخر بما بناه الفراعنه من خالدات المباني :

---

(١) ابراهيم حافظ الديوان ٢:٢٠٩ (٢) الديوان ص: ١٦٩
(٣) الديوان ص: ١٧٢

جاءت اليها وفود الارض قاطبــة — تسعى اشتياقا الى ما خلد الفاني
فصغرت كل موجــود ضخامتها — وغض بنيانها من كل بنيـــــان

و (نداء الاقباط)[1] و (رثاء محمد عبده) [2] و (رثاء مصطفى كامل)[3].

وصبري شاعر محكك يختـــار اللفظ العـــذ ب ، السهل الذى يحــلو وقعــه فـــي السمع ، والمعنى الجيد الرائـــع. وهـــو القائـــل :[4]

شعر الفتى عرضه الثاني فاحر بـــه — الا يشوه بالاقذار والوضـــر
فانقد كلامك قبل الناقدين تحــط — ثاني النفيسين من لغو ومن هـــد ر

لهذا تراه حريصا على شعره ينتقي لفظـــه ويختار موسيقاه ويهذ ب معناه ، جوهري ماهر خبير بصـــرف الكـــلام.

وهو معجب بالبحتري متأثـــر به ينسج على منواله في انتقاء اللفظ واحكام الصناعـــة واختيار النغـــم.

ويـــرى انطون الجميـــل [5] ان منظومات صبري تدور على فكـــرات ثلاث كانت العلة الموجدة لها ، وهي : الحس ـ او الشعور ـ الحكمـــة والحماســـة.

تجلت الفكـــرة الاولى فيما نظمه في الحب ، والثانيـــة فيما نظمه في الموت ، والثالثـــة فيما نظمه في الوطـــن .

الحب ، والموت ، والوطن ، هذه هي العوامـــل الثلاثة التي كانت تحرك فيه الشعـــور الفياض ، وتنطقه بالحكمة الرائعة ، وتثير في صدره الحماسة الشريفـــة."

غيران الصفة الغالبة على شعر صبري والتي يمتاز بها شعره هي الغنائية ، فهو شاعـــر غنائي رقيـــق وهو لحرصه على جودة شعره يدقق في الفاظه ومعانيـــه.

---

(1) الديـــوان ص: ١٨٠
(2) الديـــوان ص: ٢٠٧
(3) الديـــوان ص: ٢١٣
(5) الجميل ، انطون ديـــوان صبري ص: ٢٠
(4) الديوان ص ٦٠

ينقص شعره التعمق في الفكر . فالذوق والحس المرهف ، وان كان لهما وزن في تقويم الشعر ، فهما ليسا كل شيء .

الشعر فكر وعمق وتصوير للحياة التي هي بدورها ليست فاترة ولا هي سهلة بسيطة تدرك اسرارها بغير جهد ولا عناء .

وليس التحكك والذوق المترف كل شيء في الشعر .

ويتحدث خليل مطران عن كيفية نظم صبري للشعر فيقول (١)

"اكثر ما ينظم فلخطرة تخطر على باله من مثل حادثة يشهدها او خبر ذي بال يسمعه او كتاب يطالعه . ولما كان لا ينظم للشهرة بل لمجاراة نفسه على ما تدعوه اليه فالغالب في امره انه يقول الشعر متمشيا وربما قاله بحضرة صديق وهو مائل عنه بحنقه وله بين حين وحين انة بمثل ما تنطق لفظة "ايه" مستطيلة . ينظم المعنى الذى يعرض له في بيتين عادة الى اربعة الى ستة وقلما يزيد على هذا القدر الا حيث يقصد قصيدة وهو نادر ."

"شديد النقد لشعره كثير التعديل والتحويل فيه حتى اذا استقام على ما يريده ذوقه من رقة اللفظ وفصاحة الاسلوب اهمله ثم نسيه . وهكذا يمر به الآن بعد الآن فيجيش في صدره الشعر فيرسل بيتيه اطلاق زوجي الطائر فيذهبان في الفضاء ضاربين من اشطرهما باجنحة ملتمعة شادين على توقيع العروض الى ان يتواريا وينقطع نغمهما من عالم النسيان . ذلك هو الشعر للشعر"

ويرى محمد صبري (٢) ان اسماعيل ، رحمة الله عليه ، كان في جميع حركاته وسكناته مثالا عاليا للذوق يتأنق فيها من غير كلفة وتصنع كما يتأنق الربيع في الباس الارض حلة عروس .

ولا ريب ان الذوق من اكبر عوامل النهضة الادبية واللغوية والاجتماعية لا سيما في طور الانتقال ، وقد كان صبري ذواقا لا يدانيه في فن الذوق مدان .

---

(١) مطران — خليل اسماعيل صبري تأليف محمد صبري ص. ٢٩ — ٣٠

(٢) صبري ، محمد اسماعيل صبري ص. ٢٤

على ان ذوق صبري الذى زاد صقلا ورونقا مع طول المران تجلى في شعر كهولته .
وهذا شعر خالد قد ذاع الكثير منه على كل لسان ، ومن تأمل فيه رأى دقة الصنع وصفاء الطبع وسمو الخيال ."

قلنا ان صبري يمتاز بشعره الغنائي فهو رومانتيكي يصور احساساته ولواعج قلبه .

ومن شعره الغزلي قصيدته (لواء الحسن)[1] التي فيها يقول :

يا لواء الحسن احزاب الهوى	ايقظوا الفتنة في ظل اللواء

ثم يطلب منها ان تعدل بين المحبين المتيمين فالحسن يجب ان يكون للجميع :

اقبلي نستقبل الدنيا وما	ضمنته من معدات الهناء
واسفري ـ تلك حلى ما خلقت	لتوارى بلثام او خباء
واخطري بين الندامى يحفلوا	ان روضا راح في النادى وجاء
وانطقي ينثر اذا حدثتنا	ناثر البدر علينا ما نشاء
وابسمي ، من كان هذا ثغره	يملأ الدنيا ابتساما وازدهاء
... انت روحانية ، لا تدعي	ان هذا الحسن من طين وماء

فيقفز هذه القفزة الرائعة في هذا البيت الروحاني الذى تفوح منه رائحة الجنة والملائكة .

وتبدو في هذا البيت نظرة صبري الى المرأة والحب فهو روحاني مترفع عن شهوة الجسد يعشق الحسن لذاته :

هذا ما يبدو لأول وهلة . غير ان الفاحص المدقق يجد ان في هذه الابيات "ذوقا وكياسة ولكنها خالية من حرارة الحب الصادق ولوعة الغرام وحرقته .

يكتفي بتشبيه فتاته بالملاك فهي ليست من تراب وانما هي من روح قدس .

وقد نشرت هذه القصيدة لاول مرة في المجلة المصرية في يونيه سنة ١٩٠١ وهذا ما قاله خليل مطران بهذه المناسبة : "كانت الغزليات قبل الآن فيها ما يمس الآداب العمومية من ذكر القدود والنهود والفم والعناق ورقة الخصر وكثافة الردف ولقد كان هذا من العام

---

(١) الديوان ص. ١٠٧

حتى قصائد المديح للملوك والأمراء وهو ما لا ترضاه الاذواق في هذه الايام وينكره علينا ادباء الغرب. وقد سئل صاحب السعادة اسماعيل باشا صبرى نظم ابيات تنقل الى اللغة الفرنساوية وتجعل في كتاب مولف الآن في مختار الشعر العربي قديمه وحديثه فجادت قريحته الوقادة بهذه الابيات التي جاءت على الطريقة الصوفية من حيث سمو الخيال ونزاهة الشيمة وغرابة الوضع ولعلها احسن ما جمع فيه بين الاسلوبين العربي والغربي في نظم الشعر.

فغزل صبرى هذا يخلو من الرمان والعناب والتفاح وغصن البان ويخرج بالمرأة من حديقتي النبات والحيوان.

وله ايضا في مخاطبة حبيبته جاعلا اياها ريحانة قلبه(١):

يا راحة القلب ـ يا شغل الفؤاد صلي	متيما انت في الحالين دنياه
زيني الندي وسيلي في جوانبه	لطفا يعم رعايا اللطف رياه
ريحانة انت في صحرآء مجدبة	من الرياحين حيانا بها الله
ان غاب ساقي الطلا او صد لا حرج	هذا جمالك يغنينا محياه.

ويقول في (نزيل الفؤاد)(٢):

لما تبوأ من فؤادى منزلا	وغدا يسلط مقلتيه عليه
ناديته مسترحما من زفرة	افضت باسرار الضمير اليه
رفقا بمنزلك الذى تحتله	يا من يخرب بيته بيديه

فانت ترى انه ليس في هذه الابيات لوعة او عاطفة جياشة فكل ما هناك براعة في القول.

وتبدو رومانتيكية صبرى في قوله مخاطبا فؤاده(٣)

اقصر فؤادى فما الذكرى بنافعة	ولا بشافية في رد ما كانا
سلا الفؤاد الذى شاطرته زمنا	حمل الصبابة فاخفق وحدك الآنا

فان (فاخفق وحدك الآنا) في منتهى الروعة.

---

(١) الديوان — ص: ١١٣

(٢) الديوان — ص: ١١٩

(٣) الديوان — ص: ١١٦

حتى قصائد المديح للملوك والأمراء وهو ما لا ترضاه الاذواق في هذه الايام وينكره علينا ادباء الغرب. وقد سئل صاحب السعادة اسماعيل باشا صبرى نظم ابيات تنقل الى اللغة الفرنساوية وتجعل في كتاب مولف الآن في مختار الشعر العربي قديمه وحديثه فجادت قريحته الوقادة بهذه الابيات التي جاءت على الطريقة الصوفية من حيث سمو الخيال ونزاهة الشيمة وغرابة الوضع ولعلها احسن ما جمع فيه بين الاسلوبين العربي والغربي في نظم الشعر.

فغزل صبرى هذا يخلو من الرمان والعناب والتفاح وغصن البان ويخرج بالمرأة من حديقتي النبات والحيوان.

وله ايضا في مخاطبة حبيبته جاعلا اياها ريحانة قلبه(١):

يا راحة القلب - يا شغل الفؤاد صلي	متيما انت في الحالين دنياه
زيني الندي وسيلي في جوانبه	لطفا يعم رعايا اللطف رياه
ريحانة انت في صحراء مجدبة	من الرياحين حيانا بها الله
ان غاب ساقي الطلا او صد لا حرج	هذا جمالك يغنينا محياه.

ويقول في (نزيل الفؤاد)(٢):

لما تبوأ من فؤادى منزلا	وغدا يسلط مقلتيه عليه
ناديته مسترحما من زفرة	افضت باسرار الضمير اليه
رفقا بمنزلك الذى تحتله	يا من يخرب بيته بيديه

فانت ترى انه ليس في هذه الابيات لوعة او عاطفة جياشة فكل ما هناك براعة في القول.

وتبدو رومانتيكية صبرى في قوله مخاطبا فؤاده(٣)

اقصر فؤادى فما الذكرى بنافعة	ولا بشافية في رد ما كانا
سلا الفؤاد الذى شاطرته زمنا	حمل الصبابة فاخفق وحدك الآنا

فان (فاخفق وحدك الآنا) في منتهى الروعة.

---

(١) الديوان - ص. ١١٣ (٢) الديوان - ص. ١١٩
(٣) الديوان - ص. ١١٦

وقوله ايضا في (ساعة الوداع) (١) مخاطبا قلبه :

اترى انت خاذ لي ساعة التو ديع يا قلب في غد ام نصيرى ؟
ويك قل لي متى اراك بجنبي راضيا عن مكانك المهجور
لست بعض الحداة بل انت بعضي قف قليلا فلست بالمأجور
ساعة البين ، قطعة انت قد ت للمحبين من عذاب السعير
لا تحيني ، روحي الفداء لما حيك غدا من صحيفة المقدور

وعلى هذا يعلق محمد صبرى فيقول : (٢)

" تلك نغمات تشف عن نفس محزونة تحن الى منازل الكمال في ذلك العالم العلوى كما يحن غريب الدار الى الاوطان . وهذا الحزن هو اكبر مميزات الشعر الغنائي الذى هو شعر العاطفة والوجدان ."

ويصل يأس الشاعر الى ان يتمنى الموت فيقول : (٣)

يا موت هاانذا فخذ ما ابقت الأيام مني
بيني وبينك خطوة ان تخطها فرجت عني

ومن شعره الحكمي التأملي (راحة القبر) (٤) حيث يقول :

ان سئمت الحياة فارجع الى الار ض تنم آمنا من الاوصاب
تلك ام احنى عليك من الأم م التي خلفتك للاتعاب
لا تخف فالممات ليس بماح منك الا ما تشتكي من عذاب
كل ميت باق وان خالف الحذ وان ما نص في غضون الكتاب
وحياة المرء اغتراب فان ما ت فقد عاد سالما للتراب

يرى العقاد (٥) "ان اسماعيل صبرى شاعر صادق الشعر ناقد بصير بالنقد ، الا انه لا يتعدى في شعره ونقده نطاقا يرسمه له مزيج من ذوقه القاهرى وذوق المدرسة "اللامرتينية " في احسن

---

(١) الديوان - ص. ١١٢
(٢) صبرى ، محمد اسماعيل صبرى ص. ٤٣
(٣) الديوان ص. ١٩١
(٤) الديوان ص. ١٩٠
(٥) شعراء مصر ص. ٣٤

ما كانت عليه من شعور وتمييز. "

" شعره لطيف لا تعمل فيه ولكنه كذلك لا قوة فيه ولا حرارة. نقده بصير عارف بالزيف كله ولكنه غير بصير ولا عارف بالصحة كلها . واثره في تهذيب الاذواق ونفي ما كان فاشيا من زيف التشبيه وفساد الخيال اثر واضح لا ريب فيه، ولكنه بعد هذا اثر محدود بذلك النطاق المرسوم. "

" وان شئت قل ان ادب الرجل كان ادب "الذوق" ولم يكن ادب النزعات والخوالج ، وادب السكون ولم يكن ادب الحركة والنهوض، وادب الاصطلاح الحسن ولم يكن ادب الابتكار المستكشف الجسور. "

وهذا قول فيه كثير من الصحة ولكني آخذ على العقاد قوله ان اسماعيل صبري "يعبر عن ذوقي قاهري" فهذا الرأى لا يقف على رجليه لان الذوق القاهري يمتاز اكثر ما يمتاز ، ببراعة النكتة وحلاوتها وهذا غير موجود في شعر صبري. ونحن يجب ان لا ننكر على اسماعيل صبري انه كان من اوائل الشعراء الذين ادخلوا نسم الرومانتيكية الى الشعر العربي وذلك يعود الى مزاجه واطلاعه على ادب الفرنجة وخاصة لا مرتين . وحسبه ان شعره ظروف حلاوة.

" وفي رأى احمد امين [(١)]

" ان اسماعيل صبري باشا كان اشعر من حافظ في ناحية خاصة وهي مقطوعاته الصغيرة التي يعبر بها عن معاني دقيقة، وعن شعور نفسي عميق — ولم يكن يحترف الشعر كما احترفه شوقي وحاول ان يحترفه حافظ — وكان منصبه الحكومي يسمو به عن ذلك. "

فاذا صح ان نشبه شوقي بالارغن لتعدد مناحي شعره وسنفونية نغمه وهو نفسه يقول :

(كأرغن) الديـر اكثارى وموقعه — وكالأذان على الاسماع اقلالي [(٢)]

او صح ان نشبه شعر حافظ بالكمان لشجى انغامه صح لنا ان نشبه شعر صبه لنعومة شعره ورقة همسه.

---

(١) امين ، احمد مقدمة ديوان حافظ ص. ٢٦
(٢) "الشوقيات" (١٢٦:٣)

وحسب صبرى انه خرج بالذوق الشعرى فبلغ النهاية وكان استاذ حافظ وشوقي ومطران فاعترفوا بمشيختـه عليهـم .

ويبلغ الشعر العربي/ الدرك ارفع مراتبه عند احمد شوقي فهو شاعر موهوب اعطته ربة الشعر ما لم تعط سواه فكان شاعر العصر. غير ان الذين ينقصون من قدر الشاعر ياخذون عليه انه كان شاعر البلاط ولم يكن شاعر الشعب وشيء آخر ناتج عن كونه شاعرا "رسميا" هو كثرة شعر المناسبات عنده في السلاطين والملوك والامراء والاشراف وغيرهم من ذوى المكانة مما جعل شعره ينحط ويسف.

وما اختلف النقاد في شاعر معاصر كما اختلفوا في شوقي ، وهذا شأن الرجل العظيم. ففتن بشعره فريق ومدحوه وبوؤوه ارفع مرتبة ، وهجنه فريق وانكروا عليه كل فضل له في الشعر.

وواجبنا نحن ان نقف بين هؤلاء وهؤلاء ونبين مميزات شوقي ومنزلته الفنية .

لقد نشأ شوقي في بلاط اسماعيل وعاش مقربا اليه فلم يخرج على ان يكون شاعرا "رسميا" فادى ذلك الى ان كرهه فريق من الناس وحسدوه ، وسعوا الى تحطيمه.

منزلة شوقي بين القديم والجديد :

كل من يستعرض ديوان امير الشعراء يحس الصلة بينه وبين البارودى ، وبين الشعراء العباسيين امثال المتنبي وابن الرومي والبحترى وابي نواس وابي فراس وابن زيدون والبهاء زهير ، وذلك واضح في القصائد التي عارض فيها اكثر هؤلاء الشعراء. فهو في سينيته التي يصف فيها الحمراء بغرناطة [1] متأثر بسينية البحترى وهو يعترف بذلك حيث يقول : "فكنت كلما وقفت بحجر. او طفت باثر. تمثلت بابياتها (السينية) واسترحت من موائل العبرات آياتها وانشدت فيما بيني وبين نفسي :

وعظ البحترى ايوان كسرى	وشفتني القصور من عبد شمس"

ومطلعها :

اختلاف النهار والليل ينسي	اذكرا لي الصبا وايام انسي

والبحترى يسير وشوقي في اكثر من قصيدة فهو متأثر بموسيقاه الى حد بعيد .

---

(١) الديوان — ج ٢ ص ٤٤

وهو يعارض ابن زيدون ايضا في نونيته التي مطلعها : (١)

يا نائح الطلع اشباه عوادينا تشجى لواديك ام نأسى لوادينا

ويعارض الابوصيري في همزيته وبردته .

وقد وقف كثير من النقاد والادباء عند شعر شوقي وحاولوا ان يردوا سرقاته الى اصحابها ، منهم من دافع عنه ورأى انه في معارضته وسطوه على المعاني متفوق على صاحب المعنى الاول — ومنهم من يرى ان السابق في الزمن هو السابق في الشعر . (٢)

ولن اقف وقفة طويلة عند هذه القضية فلا شك في ان شوقي قد تأثر بفحول الشعراء الذين سبقوه وعاصروه . ولكنه ما كان يقف وقفة السارق المعدم بل كان يضيف من عنده على هذا الشعر ويقول شعرا يعادله وقد يفوقه .

وشيء ثان هو ان الشعراء يأخذ متأخروهم ويستفيدون عن سابقيهم ابدا . وهذا لا عيب فيه ولا ضير .

وهناك من يرى عكس ذلك امثال خليل مطران الذى يدافع عن شوقي (٣) الذى يكلف احيانا بمعارضة المتقدمين ، ولا يندر عليه ان يبذهم ، لا يجهد فكره ، ولا يكده في معنى اومبنى . فاما المعنى فيجيئه على مرامه اوعلى ابعد من مرامه — ولا ينضب عنده ، لانه يستخلصه من عقل فوار الذكاء ومعارف جامعة الى افانين الاداب في لغات الافرنج والعرب فلسفة حقوق وحقائق التاريخ وغرائب السير التي يحفظ منها غير يسير ، الى مشاركات علمية ، وتنبيهات فنية ، استقاها من مطالعاته صنوف الكتب ، واتخذها من ملحوظاته ومسموعاته في جولاته بين بلاد الشرق والغرب . واما المبنى فله فيه اذواق متعددة لتعدد مقامات القول ، ترى فيه من نسج البحترى ومن صياغة ابي تمام ، ومن وثبات المتنبي ، ومن مفاجآت الشريف الرضي ، ومن مسلسلات مهيار . وفي المجموع تجد صفة عامة للنظم ، وهي انه من نظم شوقي ، ذلك شعر العبقرية والتفوق .

---

(١) الديوان ج . ٢ ص . ١٠٣

(٢) الاسكندرى ، احمد — ذكرى الشاعرين ص . ٣١٨

(٣) مطران ، خليل — ذكرى الشاعرين ص . ٤٣٥

ومن الذين ارادوا ان يبينوا تفوق شوقي في المعاني : مصطفى صادق الرافعي [١] فاخذ يقابل بين الابيات التي تأثرها شوقي وابياته وينتهي الى ان معنى شوقي اجمل واروع.

ومن ذلك قول شوقي :

حوت الجمال فلو ذهبت تزيدها   في الوهم حسنا ما استطعت فزيدا

وهو مأخوذ عن :

ذات حسن لو استزادت من الحسن   اليها لما اصابت فزيدا

وقد ابدع شوقي في قوله (في الوهم) التي لولاها لما كان تفز هذه القفزة الرائعة.

فتقليد امير الشعراء لا يعني انه مقعد بل هو اقدر ما يكون على خلق المعاني والاخيلة الجديدة.

وشوقي لم يكتف في ان يعيش على مائدة سواه ويكون نسخة عنه بل هو يحافظ على شخصيته وطابعه. وهو على كل حال يجرى على عمود الشعر العربي .

ونسطتيع ان نتلمس تأثره بشاعرين كبيرين هما البحترى في سلاسته وموسيقاه والمتنبي في حكمه وصياغته وتصريفه الكلام في مديحه.

وبعد فقد حافظ شوقي على قيثارة الشعر العربي وعموده. وكان يتنازعه بجانب تيار التقليد هذا تيار تجديد آخر. فقد تلقح بالادب الافرنسي ودرس الحقوق وعاش في فرنسا واسبانيا وطوف في اوروبا ، وهو يقول في مقدمته للشرقيات انه تاثر بشعر الغرب واراد ان يتأثره ولكنه اول ما فتح عينيه على الشعر وجد القوم لا يعرفون منه الا ما كان مدحا في مقام عال ، ولا يرون غير شاعر الخديوى صاحب المقام الاسمى في البلاد ، فما زال يتمنى هذه المنزلة. وفي مقدمته هذه يلوم شعراء المديح ويهاجم المتنبي ولكن لم يكن هذا سوى قول غير متأصل في نفسه ذلك لانه مضى في النسج على منوال هؤلاء.

وغضب شوقي يوم لم تنشر له قصيدة في مدح الخديوى في الجريدة الرسمية ، كما جرت

---

(١) الرافعي ، مصطفى صادق ذكرى الشاعرين ص. ٤٨٣

العادة ، ذلك لانه كان يقدم لها بمقدمة في الغزل يستهلها بقوله :

خدعوها بقولهم حسناء　　　والغواني يغرهن الثناء [1]

فاذا كان شوقي يحسب ان التجديد يكون في المقدمات الغزلية بقصائد المدح فقد ضل . وبعد هل التجديد في نقل قصيدة البحيرة للامرتين الى العربية ؟! ام هو في نقل قصص لافونتين اليها ؟!

لم يعرف شوقي كيف يستفيد من شعراء الغرب لان طابع الشعر العربي ظل مسيطرا عليه .

وقد يبدو تأثره في قصيدته "كبار الحوادث في وادى النيل ." [2] التي قالها في المؤتمر الشرقي الدولي المنعقد في "جنيف" في سبتمبر عام ١٨٩٤ وكان مندوبا للحكومة المصرية فيه ، فقد تأثر بديوان فيكتور هيجو (Victor Hugo) المسمى "اساطير القرون" "La Legende des Siecles" واثر ذلك ظاهر في شعره الفرعوني .

ويوم كان شوقي في باريس كان شعراء الرمزية في اوج مجدهم فلم يتأثر بهم مطلقا بل انه لم يتأثر بالمدرسة الرومانتيكية وظل شاعرا كلاسيكيا مجددا .

على ان تجديد شوقي لم يتعد الشعر التمثيلي الذى كتبه في اخريات ايامه وشيئا من الشعر القصيص والشعر الفرعوني الذى غنى به امجاد مصر الغابرة .

وقد قدر الله لشوقي في شبابه ان يعيش في البلاط بعيدا عن الشعب همه ان يرضى سيده وولي نعمته ، فيمدحه في ذهابه وايابه ويهنؤه في أعياده وحجه ويذكر آله ويرثي من يموت منهم .

ولكن ما يلبث شوقي ان يرجع من منفاه ، فيرى الشعب يكافح في سبيل حريته ، حتى تجاوبت نفسه مع هذه الحرية فكأن الشاعر الذى قدر له ان يعيش في القفص المذهب في شبابه عادت له حريته في شيخوخته — على العكس من حافظ — فالتفت الى الشعب وغنى بآماله واحلامه .

---

(١) الديوان ٢: ١١١
(٢) الديوان ١: ١٧

ويرى الدكتور شوقي ضيف [1] "ان شوقي قد غنى للشعب المصرى عواطفه الوطنية الماضية والحاضرة غناء ملك - ولا يزال يملك - عليه لبه".

وقد دعا شوقي الى الاخوة العربية ، وخاصة بعد الحرب الكبرى حين ضعفت حماسته للاتراك - وكان قبل ذلك يدافع عن الاسلام ويدعو الى الخلافة ويكثر من مدح الاتراك وذلك يعود الى الدم التركي الذى يجرى في عروقه والى ولاء سيده لهم - وهو لا يترك مناسبة الا ويكرس عروبته هذه ومن ذلك قصائده في الشام ولبنان وسائر بلاد العرب.

واخذ على شوقي انه اكثر من شعر المناسبات من مدح للخديوى في اعياده وفي ذهابه وايابه وفي رثائه للاعيان والنظم في المخترعات الجديدة واعمال البر والمنشآت القومية. غير ان الدكتور شوقي ضيف [2] يرى "ان شوقي في شعره هذا يختلف عن الشعراء القدامى في مدحهم. فهولاء لم يفكروا بغير الخلفاء او الامراء الذين كانوا يمدحونهم بينما شوقي يفكر ليس في ممدوحه وحسب بل وفي جمهور الناس الذى سوف يقرأ قصائده هذه.

فهو لا يصنع القصيدة لعباس وحده ، وانما يصنعها له وللشعب فهو لا يمدحه في عيد من اعياده الا اختار ملابسة شعبية ، او وقف يشيد باعماله للشعب واصلاحاته. وشوقي في رثائه يحاول ان يفكر في الحياة والموت والفلسفة التي وراءه ويخرج القصيدة من حيز الرثاء الشخصي الى حيز انساني عام. كما في رثاء جدته ، ورثاء امين الرافعي ، ومصطفى كامل وهو في كل ذلك تلميذ المتنبي".

ورثى شوقي الابطال المصريين والعرب وصور آلام شعبهم وآمالهم. ورثى الرجال العظام من ادباء وشعراء وصحفيين ووجهاء وذوى نفوذ وسلطان ولم يكتف بذلك بل ذهب يرثي شخصيات عالمية فرثى فردى الموسيقار المشهور وتولستوى الاديب الروسي الشهير ونابليون البطل الافرنسي وتحدث عن بطولاته وامجاده ورثى فكتور هيجو في ذكراه المئوية. والذى يتصفح

---

(١) ضيف ، الدكتور شوقي - شوقي - شاعر العصر الحديث ص. ١٥٤

(٢) المرجع نفسه ص. ١٦٢ - ١٦٣

الشوقيات يجد ان شوقي لم يترك مناسبة الا تعرض لها سواء اتصلت بالشرق ام بالغرب. فله شعر في ملك انكلترا وذكرى كارنارفون والاحتفال بمن ينزل مصر من الادباء او المجاهدين العرب او سواهم .

وهكذا ارتفع شوقي بشعر المناسبات الى الذروة بحيث لم يترك زيادة لمستزيد .

على ان شوقي يمتاز بشعره الغنائي فكأن شعره يشبه "السمفونيه" فقد كان رحمه الله شاعرا طافحا بالموسيقى حتى انه لو لم يكن شاعرا لكان موسيقيا .

حدثني امين نخله ان شوقي كان اذا أخذ في النظم اتته المعاني في اشكال مختلفة فيهمس بها وينغمها بينه وبين نفسه وينتقي — وهو صاحب ذوق فذ — آنسها واحلاها نغما . ولهذا السبب كثر الغناء في شعره فغنت روائعه ام كلثوم ومحمد عبد الوهاب وسواهما من مشاهير المغنيين . ولا شك في ان غنائية شوقي قد ساعدت شعره على الانتشار وهيأت له هذه المكانة الرفيعة التي خلدته على الدهر . فمنذ نصف قرن وينيف وشوقي الشاعر العربي الفرد الذى يستأثر بالباب العرب فقد غنى الاسلام ومجد مصر والعرب وجمال لبنان بشعر لم يجاره به احد .

وقد جمع شوقي الى رهافة ذوقه اطلاعا واسعا على مفردات اللغة هيأ له الابداع في شعره الغنائي والتفنن في صياغته .

ويجمع شوقي الى ذلك سعة الخيال فهو مصور بارع ويظهر ذلك في شعره الفرعوني ووصفه لآثار مصر ومجالي الطبيعة بين لبنان وسورية . كما في قصيدة انس الوجود ،[1] حيث تظهر براعته في تركيب الصور ونقل الصورة الحسيه :

ايها المنتحي باسوان دارا	كالثريا تريد ان تنقضا
قف بتلك القصور في اليم غرقى	ممسكا بعضها من الذعر بعضا
كعذارى اخفين في الماء بضا	سابحات به وابدين بضا
... رب نقش كانما نفض الصا	نع منه اليدين بالامس نفضا
وضحايا تكاد تمشي وترعى	لو اصابت من قدرة الله نبضا

---

(١) الديوان ٢: ٥٣

والى جانب الموسيقى والخيال سارت العاطفة في شعره غير انها قصرت عن اللحاق بهما ذلك لان شوقي لم يكن شاعرا ذاتيا فانك تكاد لا ترى أثرا لنفسه في شعره ومن هنا كانت عاطفته فاترة. ولذلك هاجمه العقاد [1] في مستهل حديثه عنه قال "في احمد شوقي ارتفع شعر الصنعة الى ذروته العليا ، وهبط شعر "الشخصية" الى حيث لا تتبين لمحة من الملامح ولا قسمة من القسمات التي يتميز بها انسان بين سائر الناس.

وشعر الصنعة ليس على نهج واحد كله. فمنه ما هو زيف فارغ لا يمت الى الطبيعة بواشجة ولا صلة ، وليس فيه الا لفظ ملفق وتقليد براء من الحسن والذوق والبراعة.

ومنه ما هو قريب الى الطبيعة ولكنه منقول من القسط الشائع بين الناس، فليس فيه دليل على شخصية القائل ولا على طبعه ، لانه اشبه شيء بالوجوه المستعارة التي فيها كل ما في وجوه الناس. وليس فيها وجه انسان.

ومن هذه الصنعة كانت صنعة شوقي في جميع شعره ، فلو قرأته كله وحاولت ان تستخرج من ثناياه انسانا اسمه "شوقي "يخالف الاناسي الآخرين من ابناء طبقته وجيله لاعياك العثور عليه. ولكنك قد تجد هنالك خلقا تسميهم ما شئت من الاسماء وشوقي اسم واحد من سائر هذه الاسماء."

وليس هذا بشعر النفس الممتازة ولا شعر النفس" الخاصة "ان اردنا ان نضيق معنى الامتياز. وليس هو من اجل ذلك بالشعر الذى هو رسالة حياة ونموذج من نماذج الطبيعة. وانما ذاك ضرب من المصنوعات غلا او رخص على هذا التسويم.

لا شك في ان شوقي شاعر "غيرى "كما ان لا شك في ان العقاد يسرف في تقلمته على شوقي وتهجمه عليه. فاذا صح ان ضعفت العاطفة عند شوقي ، وهي ضعيفة ، لاسباب عديدة منها ان شوقي لم يعرف الحب ، وانه كان شاعرا رسميا مقيدا نشأ نشأة الشاعر الذى يعبر عن شعور غيره ويقول الشعر لارضاء سواه لم يعرف الألم والحرمان بل كان له ما يريد

---

(١) العقاد — شعراء مصر ص. ١٥٦

فهذا غير كاف لتجريده من طابع الشاعريه وجعل شعره لا يمتاز بميزة خاصة . فقد استطاع شوقي بموهبته الفذة وموسيقيته وصياغته ان يخلد بشعره ويطبعه بطابع خاص.

وذلك واضح في قصائد منها (الهمزية النبوية) [١] و (ذكرى المولد النبوى) [٢] و (نهج البردة) [٣] و (شهيد الحق) [٤] و (انس الوجود) [٥] و (ايها النيل) [٦] و (نكبة دمشق) [٧] و (اندلسية) [٨] و (زحلة) [٩] وسواها .

ولا يصح ان نجرد شوقي من كل عاطفة كما فعل العقاد لان عاطفته تبدو لنا في بعض قصائد الرثاء التي يتناول بها اهله والخلص من اصدقائه كما تبدو في شعره الذى نظمه في اولاده وخاصة ابنته امينة .

ويجعل الدكتور شوقي ضيف [١٠] "اروع عواطف شوقي عاطفته الوطنية وعنها صدر في فرعونياته ، او قل في ملاحمه المصرية ."

وقد اشتهر شوقي بالبديهة الفياضة في صناعة الشعر ونظمه ، فقد كانت له موهبة قلما تتهيأ لشاعر جعلته يحسن النظم حتى ولو كان في جمع من الناس ومسمع من صخبهم . والى ذلك يشير خليل مطران حيث يقول [١١] "ينظم الشعر بين اصحابه فيكون معهم وليس معهم وينظم في المركبة وفي السكة الحديدية وفي المجتمع الرسمي حين يشاء وحيث يشاء .

يكتب القصيدة بعد تمامها وربما تمت ونسيها شهرا ثم ذكرها فكتبها في جلسة واحدة .

---

(١) الديوان ج ١ ص ٣٦

(٢) الديوان ج ١ ص ٧٠

(٣) الديوان ج ١ ص ٢٣١

(٤) الديوان ج ١ ص ٢٦٢

(٥) الديوان ج ٢ ص ٥٣

(٦) الديوان ج ٢ ص ٦٣

(٧) الديوان ج ٢ ص ٧٣

(٨) الديوان ج ٢ ص ١٠٣

(٩) الديوان ج ٢ ص ١٧٧

(١٠) ضيف الدكتور شوقي شوقي شاعر العصر الحديث ص ٣٠٢

(١١) مطران خليل مشاهير شعراء العصر لاحمد عبيد ص ٦٦

ومهما يكن من الامر فان فضل شوقي يعود الى شعره التمثيلي في مسرحياته التي تقسم الى نوعين : مآس مصرية هي : (مصرع كليو باترا) (قمبيز) و (علي بك الكبير) .

ومآس عربية هي : (مجنون ليلى) و (عنترة) و (اميرة الاندلس) . فهو الذى ادخل هذا الفن على الشعر العربي ذلك لان الادب والشعر التمثيليين جديدان على الادب العربي لا تمتد جذورهما الى ابعد من قرن . فالعرب لم يعرفوا المسرح ولا الادب التمثيلي في اى عصر من عصورهم القديمة في المشرق او المغرب ، وذلك لان الشعر العربي خطابي يعتمد على الوصف الحسي الدقيق بعيد من الخيال الذى يعتمد عليه الادب التمثيلي .

ولم ينقل العرب ادب اليونان التمثيلي لان الفلسفة الدينية عند اليونان تتعارض مع الفلسفة الدينية في الاسلام . وانما اخذ العرب هذا الفن من الغربيين في القرن الماضي . (١)

ونظرة اخيرة نرى ان شوقي قد شغل النقاد ولا يزال يشغلهم . انقسموا الى فريقين : فريق متعصب ضده مغرض يريد ان يهدمه يدفعه البغض والحسد . ومن هؤلاء العقاد الذى يهاجمه في (الديوان) وفي (شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي) وفي كل ما كتب عنه . وجماعة مدرسة "الديوان" وهؤلاء مخطئون لانهم يطبقون مقاييس النقد الغربية على شعر عربي .

ومنهم الدكتور طه حسين في كتابه (حافظ وشوقي) ولكنه يبدو اكثر اعتدالا من العقاد واخف وطأة منه على الشاعر .

وفريق آخر من الصحفيين والادباء الناشئين الذين غذاهم شوقي في حياته لكي يردوا عنه هجمات هؤلاء فاخذوا في تأليهه والدفاع عنه . ولكن شوقي استطاع لما كان له من نفوذ وبفضل موهبته الشعرية ان يؤمر نفسه على الشعراء .

ولا شك في ان حافظا قد استفاد من خصومة اولئك لشوقي فجعلوه شاعر الشعب واتهموا شوقي بانه شاعر البلاط .

ويقف بين اولئك وهؤلاء فريق آخر يمثله الدكتور شوقي ضيف في كتابه (شوقي شاعر العصر

---

(١) مندور ، الدكتور محمد مسرحيات شوقي ص ١—٨

الحديث) ينصف الشاعر ويضعه في مكانته التي يستحقها محاولا ان يكون مجردا قدر المستطاع. جاعلا اياه[1]:

" اعلى شاعر في تاريخ ادبنا الحديث لتعداد نواحيه الفنية وتشعب آثاره الادبيه فقد ملأ عصره بقصائده الغنائية ، ووصلها بمسرحياته التمثيلية . وكان حين ينشر قصيدة تصبح حديث الصحف والندوات الأدبية ، وكذلك كان حين ينشيء مسرحية او تمثيلية ."

ومهما يكن من امر فان شوقي قد يسف في بعض شعر المناسبات ، وتفتر عاطفته ويلام لسزج نفسه في قفص البلاط. وفي رأى حافظ [2] " انه لظريف الوزن ، لطيف القافية ، خاطره طوع لسانه ، وبيانه اسير بنانه كأنما يتناول الشعر من كمه لسهولة متناوله عليه ، الا انه مكثار وقل ان يسلم المكثار من العثار ، فشعره كما قال الاصمعي في شعر ابي العتاهية : كساحة الملوك يقع فيها الخزف والذهب"

غير انه لا يستطيع احد ان ينكر مقدرته على النظم وموهبته وذوقه وغنائيته فكان بحق الشاعر الذى جدد مجد الشعر العربي الكلاسيكي واعاد له رونقه ، وادخل عليه الشعر التمثيلي فكانت بداية خير.

اما الذين يهاجمون شوقي لعدم تجديده ونظمه الشعر الرومانتيكي والشعر الرمزى فلهؤلاء اقول : " لايكلف الله نفسا الا وسعها ."[3]

---

(١) ضيف ، الدكتور شوقي شوقي شاعر العصر الحديث ـ المقدمة

(٢) عبيد ، احمد مشاهير شعراء العصر ص: ٦٥

(٣) القرآن الكريم سورة البقرة الآية ٢٨٦

حافظ ابراهيم

يختلف حافظ عن شوقي من حيث النشأة والبيئة اختلافا كبيرا فهو لم يولد في باب اسماعيل كما يقول شوقي عن نفسه ولم يكن له من الحسب والنسب ما يجعله يفاخر به فقد مات والده وهو صغير فكفله خاله ولم يكن يحسن معاملته وقد تربى في الاحياء الشعبية وخالط اولاد الشعب فنشأ شعبيا مقربا للناس بائسا متألما لا يطيق شيئا حتى يمله. شوقي شاعر يعيش في نعيم وحافظ ليس عنده ما يكفيه مؤونة عيشه فينخرط في الجندية في السودان ، ويقضي فيه اياما من شبابه.

ويختلف حافظ عن شوقي ايضا في كونه قد عاش في شبابه طليقا غير مقيد فاحسن مع الشعب ودافع عنه بينما كان شوقي اسير البلاط همه ان يرضي سيده غير آبه لما يرضي الشعب ليعيش القسم الاخير من حياته مقيدا بالوظيفة في دار الكتب بينما تفلت شوقي من قيوده بعد عودته من منفاه واخذ يلتفت الى الشعب ويعبر عن آماله وامانيه.

يرى الاستاذ احمد الطاهر :(1) ان حافظا يمتاز عن البارودى وعن صبرى وعن احمد شوقي بانه وفق الى صدق التصوير للحياة الشعبية ، وعاش في غمار العامة ، فارتسمت صورها في نفسه ورسم هذه الصور في شعره اصدق ما يكون الرسم والتصوير ، وهو بذلك من الشعراء المحدثين. وحافظ شاعر قومي يعبر عن تفكير الامة فيما يهمها من احداث حياتها ، وفي الوقت نفسه هو شاعر ذاتي يشكو ويرثي ويهنيء ويمدح ويعبر عن خلجات نفسه. ولم يكن في الجيل الذى عاش فيه من استطاع ان يجمع في شعره بين القومية والذاتية."

والذى يدهش في امر حافظ ، الذى عاش عيشة البؤس والحرمان ، انه كان يملأ مجالسه سحرا وسرورا ، حلو النادرة سريع الخاطر حتى كانت مجالسه تعد من امتع المجالس وما يروى عن ظرفه وحبه للنكتة وحسن معاشرته شائع وكثير فقد كان سيد الظرف المصرى دون منازع. فالذى كان يشاهد الابتسامة لا تفارق شفتيه والبشر يطفح به وجهه كان يعجب كيف ان هذا الرجل كان يكبت المه وبؤسه وفاقته ويحتفظ به في دخيلة نفسه.

---

(1) الطاهر ، احمد حافظ ابراهيم ص. ٣١

وقد نظم حافظ في جميع فنون الشعر التقليدية ويحتوى الجزء الأول من ديوانه على المدائح والتهاني والاهاجي والاخوانيات والوصف والخمريات والغزل والاجتماعيات.

وفي مدحه يسير على السنة القديمة فيبدأ القصيدة بالغزل ويكثر من الاطناب والمبالغات وقد يلجاء الى التضمين كما يفعل في مدحه محمود سامي البارودى (1) حيث يقول :

امير القوافي ! ان لي مستهامة ... بمدح ومن لي فيك ان ابلغ المدى

اعرني لمدحيك اليراع الذى به ... تخط واقرضني القريض المسددا

ومر كل معنى فارسي بطاعتي ... وكل نفور منه ان يتوددا

وهبني من انوار علمك لمعة ... على ضوئها اسرى واقفو من اهتدى

واربو على ذاك الفخور بقوله : ... (اذا قلت شعرا اصبح الدهر منشدا)

وهو يهنيء الخديوى بعيد الفطر وبعيد جلوسه وعيد الاضحى وبقدومه من الحج ، ويهنيء بالرتب ويهنيء ادوارد السابع بتتويجه وله في سفر الامام محمد عبده وايابه. وفي تحية خليل مطران (٢) وقد انشدها في حفل اقيم بدار الجامعة المصرية لتكريمه بمناسبة الانعام عليه بالنيشان المجيدى يوم ٢٤ ابريل سنة ١٩١٣ حيث تبد وعروبته ودعوته الى الالفة والوئام بين الاقطار العربية.

انما الشام والكنانة صنوا ... ن ، رغم الخطوب عاشا لزاما

امكم امنا وقد ارضعتنا ... من هواها ونحن نأبى الفطاما

قد نزلنا جواركم فحمدنا ... منكم الود والندى والذماما

وحللنا في ارضكم فاصبنا ... منزلا مخصبا واهلا كراما

... قد سمعنا "خليلكم" فسمعنا ... شاعرا اقعد النهى واقاما

وطمعنا في شأوه فقعدنا ... وكسرنا من عجزنا الاقلاما

نظم الشام والعراق ومصرا ... سلك آياته فكان الاماما

---

(١) الديوان ١ : ١٠

(٢) الديوان ١ : ٦٠

فمشى النثر خاضعا ومشى الشعر والقى الى الخليل الزماما .

وله في مدح عمر بن الخطاب [1] قصيدة طويلة رائعة تبلغ ١٨٧ بيتا . مطلعها :

حسب القوافي وحسبي حين القيها   اني الى ساحة (الفاروق) اهديها .

يذكر فيها قتل عمر وسيرته واسلامه واخباره مع الخلفاء الراشدين والقواد والامراء ، ويتعرض لتقشفه وزهده وورعه وتقيته وعدله .

وفي تهنئة احمد شوقي بك [2] ينشد حافظ قصيدة عصماء تقارب المئة بيت يبايع فيها شوقي امارة الشعر :

امير القوافي قد اتيت مبايعا   وهذى وفود الشرق قد بايعت معي

وله ايضا في تقريظ الدواوين والمؤلفات . وله في الهجاء ابيات قلائل . وفي اخوانياته يتساجل مع من عاصره من الشعراء والادباء . وشعره في هذه المناسبات لا يخرج عن ان يكون عاديا . وله في الوصف وهو يقصر عن شوقي وقد اخذ عليه وصفه للبحر الهائج في رحلته الى ايطاليا [3] حيث يقول :

عاصف يرتمي وبحر يغير   انا بالله منهما مستجير
وكأن الامواج — وهي توالى   محنقات — اشجان نفس تثور
ازبدت ، ثم جرجرت ، ثم ثارت   ثم فارت كما تفور القدور

فاستضعف تشبيهه هيجان الموج وتلاطمه بغوران الماء في القدر .

وله في الخمرة ومجالس الشراب . ومن ذلك قوله الرائع وقد بعث به الى المويلحي [4] :

اوشك الديك ان يصيح ونفسي   بين هم وبين ظن وحدس
يا غلام ، المدام والكأس ، والطا   س ، وهيء لنا مكانا كأمس
اطلق الشمس من غياهب هذا الدن واملأ من ذلك النور كأسي
وأذن الصبح ان يلوح لعيني   من سناها فذاك وقت التحسي
وادع ندمان خلوتي وائتناسي   وتعجل واسبل ستور الدمقس
واسقنا يا غلام حتى ترانا   لا نطيق الكلام الا بهمس
خمرة قيل انهم عصروها   من خدود الملاح في يوم عرس
... هي نفس ، زكية ، وابوها   غرسه في الجنان اكرم غرس

---

(1) الديوان ١: ص. ٧٧–٩٧   (2) الديوان ١: ص. ١١٩
(3) الديوان ١: ص. ٢٢٧   (4) [illegible] ١: ص. ٢٤١

وله في الغزل وليس في هذا الشعر ما يغني : وله شعر اجتماعي في حفلات المدارس والزواج والمشاريع الخيرية وما الى ذلك . وقد يستطيع ان يخرج حافظ من حلقة المناسبة الضيقة الى الفسيح من رحاب الشعر كمثل قوله في سورية ومصر (١) وقد انشدها في الحفل الذى اقامته لتكريمه جماعة من السوريين بفندق شبرد :

لمصر ام لربوع الشام تنتسب ؟	هنا العلا وهناك المجد والحسب
ركنان للشرق لا زالت ربوعهما	قلب الهلال عليها خافق يجب

والجزء الثاني من الديوان يشتمل على السياسيات والشكوى والمراثي .

ففي سياسياته سجل حوادث مصر الكبرى زمن الانتداب ويتعرض الى حوادث عالمية مثل (الحرب اليابانية الروسية) ، وهو يميل الى اليابان لانها تجمعه واياها جامعة الشرق ، ويقول في (الامبراطورة اوجيني) . ويتناول احداث الدولة العثمانية ويتجاوب مع احداث الدول العربية . وسوف ننظر في شعره هذا في الكلام على شعره السياسي . وله في الشكوى ومن حق حافظ ان يشكو فقد عاش بائسا معدما ومن ذلك قوله : يصف سعيه المتواصل وبؤسه واباءه ويتمنى الراحة من ذلك بالموت (٢)

سعيت الى ان كدت انتعل الدما	وعدت وما اعقبت الا التندما
لحى الله عهد القاسطين الذى به	تهدم من بنياننا ما تهدما
اذا شئت ان تلقى السعادة بينهم	فلا تك مصريا ولا تك مسلما
سلام على الدنيا سلام مودع	رأى في ظلام القبر انسا ومغنما
اضرت به الاولى فهام باختها	فان ساءت الاخرى فويلاه منهما
فهبي رياح الموت نكبا واطفئي	سراج حياتي قبل ان يتحطما ...

وكذلك قوله في (سجن الفضائل) (٣)

نعمن بنفسي واشقينني	فيا ليتهن ويا ليتني
خلال نزلن بخصب النفوس	فروينهن واظمأنني
تعودنا مني اباء الكريم	وصبر الحليم وتيه الغني

---

(١) الديوان ١: ص. ٢٦٨

(٢) الديوان ٢: ص. ١١٤

(٣) الديوان ٢: ص. ١٢٤

وعود تهــن نزال الخطــوب فما ينثنين وما انثنــي
اذا ما لهـوت بليل الشباب اهبن بعزمي فنبهنني
فما زلت امرح في قـدهــن ويمرحن مني بـروض جني
الى ان تولى زمان الشبــاب واوشك عودي ان ينحني
فيا نفس ان كنت لا توقنــين بمعقود امرك فاستيقنــي
فهذي الفضيلة سجن النفوس وانت الجديرة ان تسجني
فــلا تسأليني متى تنقضــي ليالي الاسار؟ ولا تحزني

ولــه في وداع الشباب (١)

كــم مر بي فيك عيش لست اذكره ومر بي فيك عيش لست انساه
ودعت منك بقايا ما علقت بــه من الشباب وما ودعت ذكراه
اهفو اليه على ما اقرحت كبدي من التباريح اولاه واخــراه
لبسته ودموع العين طيعــة والنفس جياشــة والقلب اواه
فكان عوني على وجــد اكابــده ومر عيش على العلات القــاه .

والمراثي تشمل ١١٧ صفحة من الديــوان وهو يرثي اعــلام مصر الراحلين من رجــال سياســة وادب ودين وقد يتناول رثاء شخصيات عالميــة امثال الملكــة فكتوريا وتولستوى وســوف ياتي الحديــث على رثاء حافــظ مطــولا .

حافظ بين التجديــد والتقليــد :

اتهم النقاد حافظا كما اتهـموا شوقيا بانــه مقلد فاراد ان يثور على التقليــد فقــال في قصيدتــه (الشعــر)(٢)

ضعت بين النهى وبين الخيــال يا حكيم النفوس يا بــن المعالــي
ضعت في الشرق بين قوم هجــود لم يفيقوا وامــة مكســـال
قد اذالوك بين انس وكأس وغرام بظبيــة اوغـــزال
ونسيب ومدحة وهجـــاء ورثاء وفتنــة وضـــلال

---

(١) الديــوان ٢: ص ١٢٠
(٢) الديــوان ١: ص ٢٣٧

وحماس اراه في غير شيء	وصغار يجر ذيل اختيال
عشت ما بينهم مدالا مضاعا	وكذا كنت في العصور الخوالي
حملوك العناء من حب (ليلى)	و (سليمى) ووقفة الاطلال
وبكاء على عزيز تولى	ورسوم راحت بهن الليالي
واذا ما سموا بقدرك يوما	اسكنوك الرحال فوق الجمال
آن يا شعر ان نفك قيودا	قيدتنا بها دعاة المحال
فارفعوا هذه الكمائم عنا	ودعونا نشم ريح الشمال .

فهل عمل حافظ بقوله هذا ؟ وهل خلا شعره من النسيب والمديح والهجاء والرثاء ؟ واذا حذفنا هذه الاغراض من شعره ماذا يبقى ؟ ! .

ان احمد امين في مقدمته لديوان حافظ يغنينا عن الجواب فيقول :[1]

" لم يجدد في بحوره واوزانه . ولم يجدد في اسلوبه وبيانه ولا تفكيره وخياله ، انما جدد في شيء هو فوق ذلك كله ، جدد في موضوعه واغراضه ، فبدلا من ان ينظم في موضوعات امرىء القيس وطرفة ، او جرير والفرزدق ، او بشار وابي نواس ، نظم في موضوعات عصره واماني قومه ."

لست ادرى كيف يحسب لحافظ ، حسنة واجرا يحتسب له عند الله ، نظمه في موضوعات عصره ! فهل هناك ادنى ريب في ان مواضيعه سوف تكون مواضيع امرىء القيس وطرفة ؟ ! .

الى ان يقول : فلما ثار على الشعر القديم وحطمه ، بنى على انقاضه شعره الجديد في الوطنيات والاجتماعيات والسياسيات ، وكان في شعره يقف موقف الصحافة الوطنية والخطباء الوطنيين ، وقادة الرأى الاجتماعيين ، يغشى مجالس كل هؤلاء ، ويتشرب من ارواحهم ، ويستمد من حبهم ويغذي عواطفه من عواطفهم ثم يخرج ذلك كله شعرا قويا ملتهبا ، يفعل في النفوس — وذلك شأن الشعر الحي — ما لا تفعله الخطب والمقالات ، فكان حافظ — حقا — شاعر الوطنية وشاعر الشعب ، وشاعر السياسة والاجتماع ، ولم يجاره احد في ذلك من شعراء عصره ."

ومأخذى على هذا الكلام ان ثورة حافظ على الشعر القديم لم تكن الا ثورة كلام بكلام فهو يسير على عمود الشعر وانما فضله انه برز في الشعر الوطني وفي شعر الرثاء وميزته الكبرى انه تبلورت في شعره آمال امته اولا وآمال الشعب العربي ثانيا . وقد دعا حافظ في شعره الى الوحدة العربية والوحدة الاسلامية وذلك واضح في شعره لا يحتاج الى تدليل .

---

(١) امين ، احمد ديوان حافظ ابراهيم المقدمة ص. ٢٦ — ٢٧

ويرى ابراهيم العريض [١]

"ان حافظا لم يفارق نهج العباسيين ولا يؤثر له في الشعر تجديد ذو بال ، الا ان تكون هذه المراثي والقوميات التي اظهر فيها جزع الشعب واشفاقه من مصيره السياسي . فلا يعدو شعره على ان يكون جسر انتقال بين عهدين ."

ويقول طه حسين [٢]:

" لا اعرف بين شعراء هذه الايام شاعرا جعلته طبيعته مرآة صافية صادقة لحياة نفسه ولحياة شعبه كحافظ رحمه الله ."

غير ان العقاد [٣] يرى (اولا) ان حافظا وسط بين الشاعر كما كانوا يفهمونه في القرون الوسطى : (نديم) وبين مفهومه في القرن العشرين : (يخاطب قراء من وراء المطبعة) . وسط بين شاعر المجلس وشاعر المطبعة .(وثانيا) هو وسط بين شاعر الحرية القومية وشاعر الحرية الشخصية . صور آمال قومه وآلامهم كما صور شعوره وفنى نفسه .

وهو (ثالثا) وسط بين المطلعين على الآداب العربية وحدها والمتوسعين في قراءة الآداب الاوربية ، فلا تجد بين العارفين باللغات الاجنبية احدا اشبه منه بمن يجهلونها ، ولا تجد بين جاهليها احدا اشبه منه بمن يعرفونها . و (رابعا) هو وسط بين مبالغة الاقدمين وقصد المحدثين ولا سيما في المدح ."

ومهما يكن من امر فان حافظا شاعر موهوب اكتفى بموهبته فلم يثقف نفسه ثقافة تليق بشاعر عصرى كبير . وهو حريص على اختيار اللفظ وتذوق جرس الكلمة وموسيقاها ، ينتقي اللفظ الفخم الضخم الذى يحرك العواطف ويسعى في ان تأتي مطالع قصائده قوية مؤثرة وقد يفعل ذلك بتكرار بعض الكلمات.

لم يبرز حافظ في الوصف فقد سبقه شوقي في ذلك لانه صاحب خيال اوسع وثقافة اشمل وجولات في بلاد اوروبا .

فلم يكن حافظ شاعر الطبيعة وانما كان شاعر الناس.

---

(١) العريض ، ابراهيم الشعر وقضيته ص: ٦١

(٢) طه ، حسين حافظ وشوقي

(٣) العقاد شعراء مصر ص ١٤-١٧

برز حافظ في امرين : شعره السياسي الذى يتناول فيه حوادث الامة ويصور آمال الشعب وآلامه فيهب للدفاع عنه وحثه للمطالبة بحريته ويقرعه بعنف مثل قوله في (زواج الشيخ علي يوسف صاحب المؤيد)[1]

... (وكم ذا بمصر من المضحكات) كما قال فيها (ابو الطيب)
امور تمر وعيش يمر ونحن من اللهو في ملعب
وشعب يفر من الصالحات فرار السليم من الاجرب
وصحف تطن طنين الذباب واخرى تشن على الاقرب
وهذا يلوذ بقصر الامير ويدعو الى ظله الارحب
وهذا يلوذ بقصر السفير ويطنب في ورده الاعذب
وهذا يصيح مع الصائحين على غير قصد ولا مأرب .

وله قصائد مشهورة في الدفاع عن الشعب منها (حادثة دنشواى)[2] حيث يخاطب الانجليز :

احسنوا القتل ان ضننتم بعفو اقصاصا اردتم ام كيادا ؟
احسنوا القتل ان ضننتم بعفو انفوسا اصبتم ام جمادا ؟
ليت شعرى اتلك (محكمة التفتيش) عادت ام عهد (نيرون) عادا ؟
كيف يحلو من القوي التشفي من ضعيف القى اليه القيادا ؟

غير ان حافظا كأى انسان لا يلبث ان يلين ويساير احيانا فيضطر الى تملق الحاكم العاتي فيرحب به وقد يعاتبه ولكن بلطف ولين :

وحبه لمصر ظاهر في قصيدته (مصر)[3] التي تعد من روائعه والتي يقول في مطلعها :

وقف الخلق ينظرون جميعا كيف ابني قواعد المجد وحدى

فيفاخر بعظمتها وآثارها ومآثرها ويحث شعبها على الثورة على الظلم والتحكم .
وامر آخر برز فيه حافظ واجاد هو الرثاء .

---

(١) الديوان ١:٢٥٧
(٢) " ٢:٢٠
(٣) " ٢:٨٩

اكثر رثائه صادق لانه يرثي الخلص من اصدقائه فيحلل صفاتهم ويبين كيف ان فقدهم كارثة تصيب الامة اجمع ثم يعود الى نفسه فيصور اثر المصاب ويرى ان في موت اصحابه ما يذكره بدنو اجله .

والذى ساعده على الاجادة في الرثاء وبكاء اصحابه انه عاش بائسا متألما وكان بجانب ذلك صادقا في حبه مخلصا لأصدقائه :

يرى الدكتور طه حسين : (١) " ان نفس حافظ ، رحمه الله ، كانت تمتاز بشيئين اتاحا لها اجادة الرثاء واتقانه والبراعة فيه ، كانت قوية الحس كاشد ما تكون النفوس الممتازة قوة حس وصفاء طبع واعتدال مزاج . وكانت الى ذلك وفية رضيه لا تستبقي من صلاتها بالناس الا الخير ، ولا تحتفظ الا بالمعروف ، ولا ترى للاحسان والبر جزاء يعدل الاشادة به ، والثناء عليه ، وتصبه للناس مثلا يحتذى ونموذجا يتأثر .

فهذا احد الامرين اللذين كانت تمتاز بهما نفس حافظ : حس قوى دقيق ، وخلق رضي كريم . فاما الآخر فصلة غريبة متينة بين هذه النفس القوية الكريمة وبين نفوس الشعب وميوله واهوائه وآماله ومثله العليا . "

ثم يقول في موضع آخر
" اما حافظ فكان يرثي لانه يحزن ، وكان يحزن لانه يحب ، وكان يحب لان الله وهبه نفسا رضية مؤثرة لم تبرأ من شيء قط كما برئت من الأثرة ، وكما برئت من الضغينة والحقد . "

" فكان اذا رثى علما من اعلام مصر فكأنما يرثي نفسه اولا وكأنما يرثي امته ثانيا . وابرع ما يكون حافظ في الرثاء حين يصور حزن الشعب وألمه في فقد بطل من ابطاله ورجل مصلح من رجالاته . لذلك يجيد في رثاء الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده . (٢) الذى يستهله بقوله :

سلام على الاسلام بعد محمد	سلام على ايامه النضرات
على الدين والدنيا ، على العلم والحجا	على البر والتقوى ، على الحسنات
لقد كنت اخشى عادى الموت قبله	فاصبحت اخشى ان تطول حياتي

---

(١) طه حسين حافظ شعر وشوقي ص ١٥٢
(٢) الديوان ٢ : ١٤٤

فهــو يعبرعن المصــاب العظيم الــذى اصاب الشعب بفقده اماما من أئمــة الدين ودعامة مــن دعامات النهضــة الفكريــة •

وكذلك قل في رثائــه (مصطفى كامــل)[١] حيــث يقــول :

ايا قبر هذا الضيف امال امــة　　　فكبر وهلل والق ضيفــك جاثيا

فهــو ينطق بلسان الشعب فيصــور المه لفقد زعيم من زعمائــه الخلص الذين بنوا لمصر مجدا سياسيا عظيمــا •

وقــل مثل ذلك عن رثائــه لسعــد زغلــول [٢]

وحافظ هــو القائــل :

اذا تصفحت ديواني لتقرأنــي　　　وجدت شعر المراثي نصف ديواني •

ويرى الاستاذ احمد امين [٣]: "ان حافظا اجاد في الرثاء كل الاجادة ، واحسن كل الاحسان وسبب ذلك انــه استطاع في كثيــر من الاحيــان ان ينقل الرثاء من مسألة فرديــة الى مسألة اجتماعية فموت الشيخ محمد عبــده نكبــة على مصــر وعلى العالم الاســلامي ، ومــوت مصطفى كامل كارثــة على مصــر وعلى الوطنيــة الحقة ، فهــو يتسلل في حذق ومهــارة بعد تصوير الفقيــد صورة كاملــة الى المسائل العامة الاجتماعيــة ، وبذلك يجلــس حافظ علــى عرشــه ، ويقول في ســهــولة وجزالــة ما برع فيه وفاق اقرانــه •

وشيء آخــر هو ان الموت عند حافظ وسيلة من وسائــل شكوى الزمان والحنق عليه ، والغيظ منه • فالزمان فعل بحافظ الافاعيــل ، فرماه بالبؤس والفقــر ، ورمى امته بالتفرق والتواكل ، وبالاحتلال ورمى العالم الاسلامي بالغرب يمتص دمه ، ويسومــه سوء العذاب ، فما هو الا ان يموت ميت من اصدقائه حتى ينغر جرحــه وينفجر المه •

وثالث ، هو انــه رحمه اللــه كان شديد الخــوف من الموت ، دعاه ذلك الى ان ينعي نفســه ويتألم كثيرا لشيخوخته ، ويتوهم المرض في كل عضو من اعضائه ، فاذا مات قريب له او صديــق او نديم راعــه ذلك ، لان موته انذار بموت حافظ ، وما اشد وقع ذلك على نفسه • فكان يصوغ من نبوغه فــي الناحيــة الاجتماعيــة ، ومن بغضه للدهر وحنقه عليه ، ومن اشفاقه على نفسه ، رثاء يقطع الاحشــاء ويذيب لفائف القلب ، ولولا هذه مجتمعــة لما بلغ في الرثاء ما بلــغ •

---

(١) الديــوان ٢: ١٤٩

(٢) " ٢: ٢١٨

(٣) امــين ، احمد مقدمة ديوان حافظ ص• ٣٢

ويرى طـه حسـين (١)

"ان شوقي مجدد ملتوي التجديد ، وحافظ مقلد صريح التقليد ويمضي الزمن على حافظ وشوقي فاذا تقليد حافظ يستحيل — لااقول الى تجديد بل اقول الى نضوج غريب وقوة بارعة وشخصية تفرض نفسها على الأدب فرضا .

واذا تجديد شوقي يستحيل شيئا فشيئا الى تقليد ، حتى اذا كانت اعوامه الاخيرة كانت قصائده كلها تقليدا ظاهرا للقدماء من الشعراء ، لا يقستر فيه ولا يحتاط . ينشيء القصيدة فلا تحتاج الى تعب او مشقة لتجد القصيدة التي تحاكيها ."

وخلاصة القول ان شوقي وحافظ كلاهما شاعر كبير وان اختلف فيهما النقاد وتدافعوا في شأنهما . وقد يمتاز شوقي باشياء ويتفوق حافظ باشياء.

شوقي اوسع ثقافة واكثر اطلاعا على ادب الغرب وهو اشد غنائية ونغما يبرز في الوصف وفي الشعر الفرعوني وفي الشعر المسرحي .

وحافظ اقل ثقافة منه واقل غنائية يفوقه في رثائه واستجابته لآلام الشعب والدفاع عن حقوقه في شعره السياسي .

شوقي شاعر الطبيعة وحافظ شاعر الناس.

وكلا الشاعرين قد غنى امته وشعبه طول نصف قرن واحيى التراث القديم وجدد كلاسيكية الشعر واعاد اليه شبابه .

---

(١) طه حسين حافظ وشوقي ص. ١٩٥

حيــاة مطــران وشخصيتــه

حيـــاتـــه وشخصيتـــه

يقـول ادهـم [١]: "نستطيـع ان نـرد جميـع المصـادر التي لهـا صلـة بحياة الخليل الـى ثلاثـة اصـول :

١ ـ ما كتبـه الخليـــل عن نفســـه.

٢ ـ ما رواه معاصـروه عنـــــه.

٣ ـ ما نطـق بـه شعره من وقائـع حياتـــه.

اما الاصـل الاول ، فلم يكتب فيـه مطـران شيئا يذكر ، كان يتهـرب ويعتذر حينما يطلب منـــه ذلك.

والاصـل الثانـي ، هو ما راجعتـه من كتب ومقالات وآراء تتنـاول مطـران رجلا وشاعـرا وهو ما سوف ابينـه في جـدول المـراجـع.

واما الأصـل الثالـث فهـو خير معـوان على فهـم حياة الشاعـر الوجدانيـة ومكانتـــه الادبيـة هـذا اذا لم يكن معوانا علـى فهـم حياته المعيشيـة على شيء من التفصيـل.

ويقـول الخليـل في مقدمة ديـوانه ان القارئ "يدارجه مدارجـة تمثله لديه في كل حال مـر بها." وعلى هـذا يعلـق انطـون الجميل [٢]: "ولقد اصاب في ذلك ، فان شعـره بالحقيقة رسـم تمثلت لنا فيـه كل اطوار صاحبه ، وارتسمت بـين ابياته كل عواطـف قلبه ، وتأثرات فؤاده ، وهـذا سـر محاسن شعـره العديدة."

ثم يقسـم ادهم [٣] تاريـخ حياة مطـران بالنسبـة للاطوار التي لبسهـا من عصره ، الـى ثلاثـة ادوار : يبداء الاول من ميـلاده وينتهي باستقراره في مصـر. ويبداء الثاني من حيـث ينتهي الدور الاول وينتهي بالحـرب الكبرى. ويبداء الـدور الثالث يوم وضعت الحرب اوزارها الى آخـر حياتـه.

اما انا فلست ارى أن آخـذ بهـذه التقاسيـم لانها قليلا ما تغني.

---

(١) ادهم ، اسماعيل ـ خليل مطران ـ ص. ٥٣

(٢) الجميل ، انطون ـ شاعرية خليـل مطران ـ مجلة الزهور مايو ١٩١٣ ص. ١١٣

(٣) ادهـم ، اسماعيـل ـ خليل مطـران ص. ٥٨

نسبه :

يعود نسبه الى اسرة عربية مسيحية عريقة الأصل يرتقي نسبها الى الغساسنة ، كانت تعرف ببطن (اولاد نسيم) ثم لما ارتسم احدهم مطرانا اخذت تعرف باسم (مطران) ووالده عبده مطران من مبرزي رجالات بعلبك ، المالكين والمتمولين ، وكان يشتغل بالتجارة . يعود نسب والدته الى آل الصباغ من سكان حيفا في فلسطين ، وكان والدها من وجهاء البلدة .

ولد مطران في مدينة بعلبك في شهر تموز عام ١٨٧٢ (١) وكان في طفولته كثير الحركة ذا مزاج عصبي اصيل وطبيعة ذات حيوية زائدة ومشاعر متقدة واحساسات زاخرة ، وكان حرا في تصرفاته ، وكان تركه في طفولته حرا في مواجهة محيطه البدائي يتعامل معه بحرية تامة ، سببا في ان يخلص مع الزمن بخلة موصلة رسخت في نفسه ، وقامت مقام الطبيعة الاصلية ، هذه الخلة هي خلة المعاودة والمراجعة .

" ويمكنك ان تفهم طبيعة خليل مطران كلها على حقيقتها وتدرك شخصيته في تقبضها الداخلي اذا لاحظت ان الطبع الاصيل من نفسه هو طبيعة الانفعال بقوة والاستجابة للاشياء بشدة وان طبيعة الانفعال الهادىء الذى يطالعك بها الخليل ، والاستجابة ببطء للموثرات انما تأصلت في نفسه مع الزمن بحكم المعاودة والمراجعة . "

فشدة في الحاسية وزخور في المشاعر وترسل مع النزوات ثم محاسبة دقيقة للنفس وبواعثها ونمواتها . مما جعله يقول عن نفسه (٢) " في المعاودة وحدها تاريخ تكون شخصيتي فقد كان هنالك عاملان يفعلان في نفسي : شدة المعاودة ومحاسبة النفس ، ومن هذين العاملين خلصت بتكوين نفسي على نمط خاص . "

كان نظام التربية الذى اخذه الخليل يختلط فيه نصف من التضييق والتقليد ، بنصف من الانطلاق والتحرر وكان مظهر هذا التعامل الحر مع البيئة ان يتداخل الخليل مع اخوته واقرانه من الاطفال يلعبون في حرية ، لا تقيدها رغائب الابوين ، وان كانت عين الام تسهر عليهم ولا تغيبهم عنها ، وقد خلص الخليل من هذه السنين بطبيعته الاجتماعية

---

(١) ادهم ، اسماعيل — خليل مطران ص: ٥٩

(٢) المقتطف : يونيو ١٩٣٩ في هامش ص: ٨٧

التي تميل الى خلق جملة صلات اجتماعية مع الناس.

ثقافته : — في زحلة —

يقول موريس ارقش[1]: "كان خليل مطران تواقا الى التعليم ، ولم يكن ابوه ذا يسار ، فآثر ان يجعل منه رجلا متعلما . فبعث به الى زحلة وادخله الكلية الشرقية حيث انهى علومه الابتدائية ولما نبه ذكره وذاع صيته ، نقشت المدرسة اسمه على مقعد الدراسة تخليدا له . وقد تركت زحلة اثرا بالغا في نفس خليل الفتية الجياشة بالعاطفة والحب".

في بيروت :

" وبعد ان قطع الخليل مراحل تعليمه في الكلية الشرقية في زحلة ذهب الى بيروت حيث التحق بالمدرسة البطريركية للروم الكاثوليك . ومكث فيها حتى السابعة عشرة من عمره ، وتتلمذ على الشيخين خليل وابراهيم اليازجي ، فدرس النحو على الشيخ خليل ، ودرس البيان وفقه اللغة والأدب على الشيخ ابراهيم ، فخلصت له ثقافة عربية ممتازة . بعد ذلك توفر خليل على اللغة الفرنسية حيث حذق فنونها ودرس اساليبها فحصل الحسنين وجمع بين الثقافتين .

وكان يتجاذب خليلا عاملان قويان : عامل جذبه الى الشيخين خليل وابراهيم اللذين كانا يريدانه حامل لواء الادب العربي ، متبحرا فيه ، والعامل الآخر هو نسيبه رشيد مطران الذى كان يجذبه الى ادب الغرب . وكان الأدب العربي يستهويه بالوان تصاويره وجزالة اسلوبه ، وكان الغرب يستهويه بدقة تفكيره . غير ان خليلا لم يشأ ان يجرى في مضمار الشيخين مغفوا لانه كان يعتقد في دخيلة نفسه ان الأدب العربي القديم كان له عصر يسايره ويعيش فيه ، وكان العرب يومئذ ينساقون في اودية غير صالحة لاخيلة عصرنا . فقد كانت لهم عصورهم واخيلتهم ، ولنا اليوم عصرنا واخيلتنا . وقد نجح خليل في الأخذ باللغة العربية على نسق يساير عصره ويماشي جيله ."

---

(١) ارقش، موريس . خليل مطران كما عرفته . محاضرات الندوة م ١٠ — ١٩٥٦ ص. ٤٢٥—٤٣٨

ويقول ادهم[1]: " وتخرج الفتى (اى مطران) من الكلية بعد ان تثقف ثقافة خالصة من جهة واتصل بالثقافة الاوربية اتصالا تاما من جهة اخرى . فقد كان اتصال الفتى بالاداب الفرنسية بالكلية سببا في ان تتفتح نفسه عن آفاق جديدة من الحياة ، والشعور ، لم يجد ما يكافئها في الأدب العربي الخالص ومن هنا اعتقد الفتى ، وهو ابن ثقافتين ان المستقبل في الأدب العربي ، ليس للنماذج التي تذهب تحاكي طرائق القدامى في المعاني والاشكال ، والمشاعر والصور ، وانما للنماذج التي تعبر عن روح العصر وخلجاته ومشاعره واتجاهاته في قالب عربي رصين . "

ثم يقول بعد ذلك : " وكان مطران قد خلص من ايام دراسته والسنين التي عقبتها في سوريا ثقافة ادبية يشوبها القليل من الثقافة العلمية . فقد كان له اطلاع على العلوم الرياضية والفلكية وشؤون علم الفزياء والكيمياء والحياة والحيوان ، وكانت هذه الثقافة العلمية يخالطها اطلاع على الفنون كتواريخ الامم وفلسفات الشعوب ، ومن هذه الثقافة الخليطة التي يغلب عليها الاتجاه الادبي كان مطران يتخذ اللبنات الاولى لتفكيره . "

الفيزياء

وصفه وشخصيته واهم الحوادث في حياته :

يقول حبيب الزحلاوى[2] في وصفه وهو شيخ : " جسم نحيل معروق ، ونظرات لامعة اخاذة ، وصوت مبحوح لاهث من حنجرة صلبتها الاعوام الثمانون وقد ناهزها[3] وهو بالرغم منها على احسن ما يكون من اتقاد الذهن ومضاء العزيمة ، وخصب الانتاج وهو محدث بارع . . .

ومن سجاياه سعيه للخير ، وهو يتراخى وقد يتكاسل في السعي لخيره الخاص ، ولكنه لا يتوانى ولا يتقاعس في السعي لفك ضيق ، او حل مشكلة ، او دفع نازلة ، او ازالة خصومة ، او تزويج فتاة من اية طائفة او ملة كانت .

يعطي المعوز ما يستدره من مال الغني ، وينتزع الدراهم من الشحيح البخيل ، ويأخذ الدينار من السخي الكريم يقيل بها عثرات العاثرين .

---

(١) ادهم ، اسماعيل — خليل مطران ص: ٦٣

(٢) الزحلاوى ، حبيب — الشاعر خليل مطران — الكتاب الذهبي ص: ٢٥٧ — ٢٥٨

(٣) حاشية : عاش خليل مطران ٧٧ عاما فكيف يناهز الثمانين ؟

وما قامت جمعية للبر ، او مؤسسة للخير ، او دار للشفاء ، او تألفت جماعة لعمل من الاعمال الا وكان مطران من اوائل القائمين بها . وما نشأت بين السوريين واللبنانيين منشأة الا وكان مطران من الساعين الى انشائها ، وما شجر بين الطامعين او بين محبي الظهور شجار على عضوية في مجلس ، الا وكان مطران اول المتنازلين عن الرئاسة او العضوية حبا باحلال الوئام محل الخصام .

هو ذا مطران الانسان وقد حدد امنيته في الحياة بقوله : "امنيتي ان اجتاز طريقي دون ان أسيء الى احد ."

ويستخلص السحرتي (١) من قصيدة مطران "هل تذكرين" (٢) بعض الخلال الاصلية للرجل وهي (١) حبه المتأصل في صباه . (٢) ونزوعه الى الجمال الطبيعي والانساني . (٣) وشغفه باسعاد غيره . (٤) وابراز هذا الشغف بطريقة عملية فنية . (٥) وعجبه بصنعه ، عجبا مقرونا بالتواضع .

ثم يقول : "وهناك سيمات اصلية اخرى غير ما ذكرنا نعتقد انها حكت شخصية الخليل ، وهي الحرية ، التي قد تبلغ درجة الثورة والاقدام الذى قد يصل الى درجة المجازفة والمغامرة ، والاباء الذى نأى به عن مواطن التذلل حتى في احلك الساعات ، وثبات خلقه ، وحيويته الدفاقة ، وهذه السمات تجلت في مراحل حياته ، وتلون بها شعره ، وبرزت واضحة جلية في ملامح وجهه ."

وابرز هذه السمات وآصلها ، تحرره ، وجرأته ، واباؤه . ولا ادل على تحرره من نفوره من الظلم في يفوعته ، وهجرته بعلبك موطنه الاول الى باريس ، ومساهمته في حركات البعث الوطني والقومي ومناصرته لاعلام الوطنية امثال مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول ، ونزعته التجديدية في الشعر . هذه كلها من الدلائل الناطقة على روحه المتحررة ."

---

(١) السحرتي ، مصطفى عبد اللطيف — خليل مطران الرجل والشاعر ص ٨

(٢) الديوان — ٢ : ١٣٥

" وقد صاحبت هذه الروح المتحررة ، نزعتان صديقتان هما الجرأة والاباء ، وقد انعكس اثرهما في عمله وفنه ، وابلغ دليل على هذه الجرأة هو شعره الجديد الذى وثب به وثبة ، بعيدة ، لا يقدر عليها الا موهوب جرئ ، وايا قلبنا شعره وجدنا تجارب شعرية لم يطرقها احد قبله ، وطلاقة بيانية واسلوبية ، وتحررا من عبودية القافية ، لا نعرف شاعرا سبقه اليه ." (١)

ويضيف السحرتي : (٢) " والحق ان الخليل مع تمثيله عصره اجل تمثيل ، قد سما على دنياه ، وبز معاصريه من الأدباء في ثبات خلقه ، وكرم نفسه ، وتفانيه في خير الناس ، وكانت شخصيته مزاجا فريدا من المثالية المحلقة في الخيال ، ومن الواقعية المؤمنة بالجهاد وحب العمل في الحياة ، فقد كان الرجل يسير بقدمين ثابتين على الارض وراسه يطوف في السماء ، وقد عاش في سمائه شاعرا جريئا مبتكرا ، وعاش على الارض رجل دنيا يشاطر الناس افراحهم واتراحهم ويعطف على بائسيهم وفقرائهم ، وينتقم من حكامهم الظالمين المتغطرسين ، وينادى بالشورى وحكم الدستور ، وهو لم يحمل على طبقة من الطبقات ، بل احب كل طبقة ، واذا قرع في شعره الشعب لاستكانته للظلم فهو تقريع المحب ، الرامق الى اسعاده — واما مسالمته ومصافاته لكبار الرجال وذوى الجاه ، والاغنياء ، فراجع الى حذره وحبه في كسب قلب كل طبقة ."

ويقول زكي مبارك (٣) " ان مطران هو الاديب الوحيد الذى عاش بدون اعداء .. اذ لم يشترك يوما في معركة قلمية ، ولم يبت ليلة وهو حاقد على فلان او فلان ."

" وهو في ملابسه رجل بسيط ، يجهل التأنق كل الجهل ، لان الزينة عنده هي في الروح لا في الثوب ."

ويقول حنا سركيس : (٤) " امتاز مطران بصداقته ومروءته ووفائه واسراعه الى صنع المعروف ، وثباته على العهد ، ولا احسب ان في المجتمع المصرى من اجمعت القلوب على حبه

---

(١) السحرتي ، مصطفى عبد اللطيف — ص : ٩ — ١٠
(٢) السحرتي ، مصطفى عبد اللطيف — ص : ١٧ — ١٨
(٣) مبارك زكي — الكتاب الذهبي ص : ٢٦٠
(٤) سركيس ، حنا — خليل مطران واخلاقه . الكتاب الذهبي ص : ٢٧١

واحترامه اكثر مما خص به مطران ."

"عاصر مطران مصر نصف قرن ونيفا ، وشهد اقسى حقبة من تاريخها الحديث فتألم لالمها ، وآسى جروحها ، واورى زناد شعره لاستفزاز الهمم ، وبعث النشاط والرجاء في الصدور ، فتراه مغردا في افراحها واعيادها باكيا نادبا لرجالاتها مدافعا عن حقها ."

" ولا اتحدث عن مروءته ، ونجدته ، واصطناعه المعروف . فهو وحده اشبه بمعهد خيري قائم بذاته ."

كان رحمه الله كريما رضي الخلق ودودا مخلصا لاصدقائه عشورا حساسا خدوما محبا للخير والصالح العام متواضعا سمحا حتى سمي (وقف عام) فلكل من الناس نصيب فيه .

وقد صح فيه قول الشاعر :

كأنك من كل القلوب مركب فانت الى كل الانام حبيب

ويروى نجيب جمال الدين :(١) "انه (اى مطران) كان يسير بصحبة صديق له ، على رصيف في احد شوارع القاهرة ، وفجأة انتقل الخليل بصاحبه ، الى الرصيف الثاني ، ولما الح عليه الصديق في معرفة السبب ، قال الخليل : " لمحت الآن شابا ، جاءني البارحة يستلفني مالا ، لان امه ماتت في الصعيد ، وهو يريد تكفينها واعطيته ، واذا رآني الآن فهو لا بد عارف ان حيلته قد انكشفت ، فينكسف ، ولا احب له ! "

ومما يرويه الاستاذ موريس ارقش عن اخلاق مطران (٢): "ان المرحوم سليم سركيس صاحب مجلة "الشيء بالشيء يذكر" ذهب ذات يوم الى خليل مطران واخبره ان صديقه المرحوم علي المنزلاوى كان يبسط فيه لسانه بقالة السوء . وما اسرع ان اجابه خليل في هدوء : " لعل صديقي كان ضيق الصدر لعارض من عوارض الحياة فاختارني للتفريج عن صدره ، فاذا لم يجد في صديق حميم مثلي متنفسا ففيمن يجد ؟"

---

(١) جمال الدين ، نجيب — خليل مطران شاعر العصر هامش ص:٥٦

(٢) ارقش ، موريس — خليل مطران كما عرفته — محاضرات الندوة م-١٠ — ١٩٥٦ ص:٤٣٣

وكان مطران محبا للحرية مجاهرا بذلك ، ثائرا على الاستعمار التركي الظالم ومما يرويه نجيب جمال الدين [١]: "ان مطران بعد تخرجه من البطريكية ، بدأ ينظم شعرا ضد السلطنة الكبرى والاستبداد الحميدي ، وقد روى لصديقه عمر فاخوري ، انه كثيرا ما كان يذهب صحبة بعض رفاقه الى اعالي الاشرفية في بيروت ، وينشدون نشيد المارسييز ، وقد كان رمز الحرية ، وعنوان النضال ، وطريقة من طرائق تحدى الاستعمار ، في تلك الايام السوداء ، واوقف اخيرا بتهمة العمل للثورة ، غير انه لعدم توفر الادلة ، وربما لمكانة عائلته ، خرج بريئا .

وفي احدى الليالي الصائفة لعام ١٨٩٠ ، عاد مطران الى غرفته ، في اخريات الليل ، ولم تكن غرابته شديدة ، عندما رأى سرير نومه ، مثقوبا بالرصاص ، لقد خال جواسيس عبد الحميد ، ان الفتى فريسة سبات عميق ، فلا اسهل من ان تنطلق عدة رصاصات من النافذة ، على سرير نومه ، وينتهي الامر ."

ويضيف ارقش بعد ان يورد القصة نفسها [٢]: "واذ ذاك فكرت اسرته باقصائه عن بيروت خوفا على حياته ان تمس بسوء فقررت ارساله الى باريس."

وذهب الخليل الى باريس في طلب الرزق والعلم ولكنه لم يكتف بذلك بل اتصل بحزب تركيا الفتاة الذى كان يناهض طغيان السلطان عبد الحميد الذى كان له وقتئذ شأن في التأثير على الحكومة الفرنسية مما حمل الخليل على مغادرة فرنسا الى اميركا الجنوبية .

ويذكر ادهم [٣] ان الحكومة العثمانية لم تعثر — في بيروت — على مستندات كتابية وقرائن قوية تدينه بها فاطلقت سراحه ولكن اخذت تضايقه وفي ذلك الوقت اصيب بداء "ذات الجنب" واشرف على الهلاك ، ثم نجا باعجوبة وما استرد قواه حتى راى اهله ان يغادر سوريا الى الخارج تخلصا من مضايقات الحكومة فعزم على السفر الى باريس.

---

(١) جمال الدين ، نجيب — خليل مطران شاعر العصر ص: ٤٦ (من حديث خاص مع ابن عمه السيد جودت مطران ، وقد روت لي نفس الحديث شقيقة مطران السيدة اميلي مطران)

(٢) ارقش ، موريس — محاضرات الندوة م ١٠ سنة ١٩٥٦ ص: ٤٢٩

(٣) ادهم ، اسماعيل — خليل مطران ص: ٦٧—٦٨

وفي صيف ١٨٩٠ خرج مطران من بيروت ووجهته باريس حيث اقام ردحا من الزمن (ما يقارب السنتين) وكانت حياته في باريس نشاطا متصلا ، في سبيل الدرس والتزود من آداب الفرنج من جهة والجهاد في سبيل الدستور وتحرر العناصر التي في الدولة العثمانية من جهة اخرى. ولقد اتصلت الاسباب بين نفس مطران في تلك الفترة وبين شعر "الفرد دى موسيه" فقد فتن مطران ، وهو في عنفوان الشباب (لم يبلغ العشرين بعد) ومشاعره في فورة اتقادها بزخور الاحساسات وعمق المشاعر التي يتميز بهما شاعر الفرنسيين الرومانسي ، ومن هنا كان وقوعه تحت تأثير "موسيه" مما يظهر بعد في القصائد الاولى من ديوانه.

ويروى ادهم (١) ان مطران فكر في السفر الى الشيلي (٢) وكانت حكومتها قد منحت امتيازات مغرية للمهاجرين فكانت تمنحهم الاراضي الواسعة وتعفيهم من الضرائب والمكوس لاعوام وتساعدهم على استغلال الارض. وبدأ يدرس اللغة الاسبانية استعدادا للرحيل. ولكن سفره هذا لم يتحقق فبدلا من ان يتجه الى الشيلي اتجه نحو مصر واتخذها وطنه النهائي فسافر سنة ١٨٩٢ الى الاسكندرية وكان نعي سليم تقلا فالقى مطران قصيدة في رثائه لاقت استحسان وتقدير اخيه بشارة تقلا الذى توسم فيه النباهة واختاره في سنة ١٨٩٣ مراسلا للاهرام في القاهرة.

ولكن مطران ترك الاهرام بعد ان اشتغل فيها وفي المؤيد وغيرهما ثماني سنوات وانصرف الى الاشتغال بالصحافة لنفسه سنة ١٩٠٠ فاصدر (المجلة المصرية) نصف شهرية و (الجوائب) يومية ولكن ما لبث ان ودع الصحافة سنة ١٩٠٤ وكان ذلك من حسن حظ الأدب والشعر العربي جميعا.

وكان من اسباب انصرافه عن الصحافة القصة الطريفة التالية ، التي تدل على اخلاق الخليل وعزة نفسه ، وقد رواها في مقال له نشر في الهلال قال : (٣) "وذات مساء رجع الي الجابي من جولة ، وابلغني ان صديق لي ممن كنت اعاشرهم معاشرة متصلة

---

(١) ادهم ص: ٦٨

(٢) في روايات اخرى (الى البرازيل)

(٣) مطران ، خليل "اهم حادث اثر في حياتي" الهلال يناير ١٩٣٠ ص: ٢٧٠

استمهله في اداء ما عليه ، ولم يكن ذلك للمرة الاولى ، ويظهر ان الجابي الح عليه ، باعتبار ما يعرفه من الصلة المحكمة بيننا ، فالتفت اليه هذا الصديق ، وجابهه بقوله : "اهو ثمن عيش ؟" فلما سمعت هذه العبارة ، خيل الي ، ان كل من ارسل اليه جريدتي ، وان تلطف في الظاهر ، يحسبني متطفلا عليه ، فيما اتقاضاه منه ، ولا يقدر تلقاء ذلك ، ما يبذل من جهد في التحرير وفي نفقات الطبع والبريد ، وما الى ذلك من اعمال تستنفد مجهودا ووقتا ومالا ."

وانصرف بعد ذلك الى الاعمال التجارية والاقتصادية فربح اول الامر وعاد وضارب بثروته فخسرها سنة ١٩١٢ فكانت الصدمة عنيفة عليه مما جعله يفكر في الانتحار ، وساعد ذلك سوء صحته مما كان له اثر كبير في نفسيته وفي ادبه واظهر ما يكون هذا الاثر في قصيدتي (المساء)[1] (والأسد الباكي)[2] .

ثم عينه الخديوي عباس حلمي الثاني سكرتيرا مساعدا للجمعية الزراعية الخديوية . وفي سنة ١٩١٣ اقيمت له في دار الجامعة المصرية حفلة تكريم رائعة . ثم اخذ يهتم بالمسرح فترجم عدة روايات عن الانكليزية والافرنسية وفي سنة ١٩٢٤ زار وطنه الاول لبنان ولاقى حفاوة بالغة وكذلك عاد اليه بصحبة حافظ ابراهيم سنة ١٩٢٩ . وفي سنة ١٩٤٧ تنادوا في مصر لاقامة مهرجان ادبي كبير للخليل شمله الملك برعايته وشاركت فيه جميع الدول العربية .

وفي سنة ١٩٤٩ في صبيحة اليوم الاول من تموز ، وكان داء النقرس قد الح عليه ادركه اليقين ففاضت روحه الطيبة عن سبعة وسبعين عاما تقريبا . وكان آخر ما قاله الى طبيبه : "انا اعتبر نفسي الآن قد انتهيت ، وان كنت لا ازال اعيش ، فبقوة الارادة ، وكل ساعة احياها تعتبر ليست من حقي ، انها سرقة موصوفة !.

ايها الطبيب اريد ان اخلص ، فقد انتهيت ."

لقد كان مطران ، رحمه الله ، شاعرا انسانيا ، شاعرا نبيلا ، شاعرا ذا رسالة . وكان نموذجيا في خلقه وفي حياته وفي ادبه . كان حبيبا للجميع ، يرى العالم كله وطنا واهلا . لا يحقد ولا يحسد ولا يضمر سوءا ولا يمشي بنميمة ولا يسعى لمنفعة ذاتية ولا يحب الختل ولا يعيش الا حياة الصدق والاباء والشرف .

(١) الديوان : ج ١ ص ١٤٤
(٢) " : ج ٢ ص ١٧

ويروى عادل الغضبان [1] قصة يبدو فيها ولاء مطران واخلاصه فيقول :

"كان الخليل وثيق الصلة بالخديوى عباس الثاني يحتتق سياسته في مكافحة الانجليز وتحرير مصر من ربقة الاحتلال ، فلما عصفت الاحداث بالخديوى عباس وخلعته عن سرير الحكم بقي الخليل وفيا له ولمن يلوذ به وانطوى على نفسه بعيدا من الجالس على عرش مصر بعده. وظل هذا دیدنه الى اليوم الذى نزل فيه عباس عن حقه في عرش مصر فانطلق من عقاله وتحول بولائه الى صاحب العرش العتيد .

وتشاء الاقدار في الفترة التي اخذ الخليل فيها نفسه على رعاية عهد عباس والوفاء له ان يتوفى الله في ديار الغربة الامير عبد القادر الأبن الاصغر للخديوى عباس. استأثرت به رحمة الله وهو في شرخ الشباب وريعان الصبا ، فرثاه الخليل بقصيدة هي من فيض قلبه ووفائه.

وتشاء الاقدار كذلك ان يصل رفات الفقيد الى القاهرة في الاسبوع الذى اقيمت فيه اقواس النصر ومعالم الزينات تأهبا لاستقبال الملك فؤاد عائدا من مصيفه بالاسكندرية وهي عادة كانت متبعة في كل عام من ذلك الحين . فيمر موكب الفقيد تحت تلك الاقواس في طريقه الى مثواه الاخير ويسجل الخليل ذلك الاتفاق في قصيدته ويقول مخاطبا الامير المسجى في النعش :

تعدو البهارج كل زور تحتها ... وتمر بالزينات مر الساخر [2]

وتثور ثائرة الملك فؤاد عندما يبلغه نبأ هذا البيت ، فيأبى الا ان ينفي الخليل من البلاد المصرية. ثم ينهي اليه الوسطاء من اهل الخير ان الخليل انما اراد بهارج الحياة وزينتها الباطلة لا اقواس النصر المقامة لمليك البلاد . فيرضى الملك فؤاد بهذا التفسير ويبقى الخليل في ارض الكنانة.

وعندما رثى الخليل الامير الشاب عز عليه ان لا ينهض الى رثائه غيره من الشعراء وفيهم من كان اوثق صلة منه بالخديوى عباس. فعبر عن غضبته بهذه الابيات التي ختم بها تلك القصيدة فقال :

---

(١) الغضبان ، عادل خليل مطران الحليم الغضوب الرسالة س ٣ عدد ٥ (١٩٥٧)

(٢) (نشرت هذه القصيدة في الاهرام يوم ٢٢ اكتوبر (١٩٢٣) وهي غير منشورة في ديوان الخليل) .

ارثيك يا ولداه بالحس الذى — هو حس مصر وكل قلب شاعر
ولقد ترى وجه اعتذار للاولى — حبسوا الدموع فانت اكرم عاذر
الخلف ابعد ما نظرت مسافة — في الشرق بين اسرة وسرائر
لو مت في زمن مضى لعلمت كم — من ناظم فيه وكم من ناثر

ويصيب رشاش هذه الغضبة امير الشعراء ، احمد شوقي ، فيعتقد انه المعني بهذا التعريض فما هو ان تعود ام المحسنين الى الديار بعد غياب طويل في تركيا حتى يطلع على الناس بقصيدته العامرة " دمعة وابتسامة "[1] يهنئها فيها بسلامة الاياب ويعزيها عن حفيدها الامير عبد القادر ، وكان رفاته قد سبق ركبها الى الوطن ، ويرد على الخليل بقوله يخاطب ام المحسنين :

لا ترومي غير شعرى موكبا — ان شعرى درجات الخالدين
كل حمد لم اصغه زائل — خالد الحمد بما صغت رهين

وتنتهي هذه المبارزة الشعرية بين الشاعرين فيعودان الى ودهما القديم المقيم ، وتمر على الحدث سنتان يبدر من شوقي في نهايتهما ما يغضب الخليل فيحلم ولا يعاتب ولكن يستعين بالشعر على وصف غضبته وما يحز في صدره من الم الوداد المضيع .

ويقيض الله اليه في تلك الآونة صديقا حميما لمطران هو المغفور له محمد ابو شادى المحامي المشهور فيرثيه بما هو اهله وتتملك نفس الخليل غيبوبة الشعراء فتوحي اليه بالتنفيس عن غضبة الاخاء المستعرة في صدره ، فيقول في ذلك الرثاء من حيث يدرى ولا يدرى :

ابى الله ان الفى كغيرى مولعا — بخلع احبائي كخلع ثيابي
فما انا من في كل يوم له هوى — ولا كل يوم لي جديد صواب
يراني صديقي منه حين ايابه — بحيث رآني منه حين ذهاب
وما ضاق صدرى بالذين وددتهم — ولا حرجت بالنازلين رحابي
وآنف سعيا في ركاب فكيف بي — ولي كل حول اخذة بركاب
حرام علينا الفخر بالشعر ان تقع — نسور معاليه وقوع ذباب
وما كبرياء القول حين نفوسنا — تجاويف ارض في انتفاخ روابي
وما زعمنا رعي الذمام وشدنا — بظفر على من في الانام وناب .

---

(1) الشوقيات ١ : ٣٠١

ثم يرجع الصفاء الى نضير عهده بين الشاعرين .

ولم يكن مطران موسرا طوال حياته بل رقت حاله وهو يصف رقة حاله في (عيد الميلاد)[1] وهي القصيدة التي نظمها وقد ناهز الخامسة والاربعين من عمره في ليلة عيد الميلاد وكان قد خلا الى غرفته غير مشارك الناس في مسراتهم :

وجدتني في غرفتي	وافاقتا ، ما غرفتي !
مقصورة انكرت الفرش لطول الالفة	
يرى سرير ملتوى ال	اضلاع خلف بابها
كلته بيضاء ، والبياض	اغلى ما بها
وكتب كثيرة	معربة ومعجمة
في جانب منثورة	وجانب منتظمة
وللثياب ما يسمى	بصوان ان دعي
خزانة ليس لها	قفل وقل ما تعي

وكان ، رحمه الله ، مخلصا لمصر ولحكامها يشهد له الامير محمد علي على ذلك حيث يقول :[2] "قد عرفت مطران من عهد والدى حتى الآن فرأيته قد امتاز بالنصرافه كل هذا الزمان الى المحافظة على خطة ولاء مستقيمة لم يحد عنها كل حياته القلمية في مصر وهذا الثبات على المبادئ والاخلاص الدائم لمصر والمصريين هو فضيلة يجب اعتبارها واكرام المتحلي بها ."

صلته بالشعراء الذين عاصروه :

جاء في كتاب (حياة شوقي)[3]: "كان شوقي يألف مطران ويألفه مطران . كانا صديقين . وان ادب مطران وكريم خلقه جعلاه صديق الجميع ."

---

(١) الديوان ٢: ٢٥١

(٢) مجلة سركيس ١٩١٣ ص: ٢٠٧

(٣) محفوظ ، احمد حياة شوقي ص: ١٢٨-١٢٩

وكان رحمه الله ، عف اللسان ، لم ينل احدا من الشعراء بعيب في محضره ولا في مغيبه . يسمع شعر الجميع ويعجب بشعر الجميع ويتألف الجميع ويعاون الجميع ما امكنته المعاونة . كنت تراه صديق المرحوم ابراهيم الدباغ ، وامام العبد ، واحمد نسيم ، وحافظ ابراهيم ، واحمد محرم ، وعبد الحليم المصرى .

وكان شوقي يحب مداعبة مطران . وكان مطران يعجب بالجمال ، وله صديقات كثيرات من فضليات اللبنانيات والاجنبيات . وكان ربما صحبهن الى المشارب العامة والمنتديات . بصر به شوقي يوما داخلا مشرب "صولت" ، وكان بصحبته غادة هيفاء فائقة الحسن فناداه فجاء وسلم ، وكان شوقي يغار من الشيوخ المتصابين المغرمين . قال : "يا خليل بك انت لسه ما همد تش ؟" فضحك مطران وكان كيسا لبيبا وقال : "انما اصطحبتها لادلها على علي ابنك . فضحك شوقي وقال : "اطلع من دول ."

المرأة في حياة مطران :(١)

"نشر كاتب اديب (٢) في احدى الصحف اللبنانية مقالا عن خليل مطران ظهر قبل وفاته بسنوات جاء فيه : "سألت الخليل مرة عن امرأة حياته فقال : ان القصة طويلة لن اقصها عليك ، ولكن ثق انه كانت هناك امرأة في حياتي ، وانها لا تزال حتى اليوم ، وستبقى ما بقيت . فسألته : وهل تغنيت بها ؟ فاجاب : كثيرا . وهاك آخر ما قلته فيها :

"فشاب بنو ليلى وشاب بنو ابنها وحرقة ليلى في الفواد كما هيا ."

فمن هي هذه المرأة وقد كان لها مثل ذلك الاثر في قلب الشاعر ؟ يؤكد لنا الخليل ان هنالك امرأة في حياته ، ونحن نعلم من ديوانه انه كان ضنينا بسره ففي كل موضع يذكر اسما لامرأة . فمن سعاد وادماء ، الى هند وليلى ومارية ! ثم هو يقول في مقدمة "حكاية عاشقين " انه سمى المعشوقة اسماء متعددة لتخفى حقيقتها وتتصرف عنها الظنون .

فالخليل اذن متكتم التكتم كله ، وهو يعمل بكل ما اوتيه من جهد على الاحتفاظ باسم من يحب ، وتراه سالكا سبل المداورة ليصرف الانظار عن حقيقة عاشقين احبا حبا مبرحا

---

(١) معلوف ، شقيق ـ العصبة الاندلسية مجلد ١٠ (١٩٤٩) ص. ٣٣٩

(٢) هو منير كريديه ـ راجع الكتاب الذهبي ص. ٢٤٥ ، نقلا عن (بيروت المساء)

فالتقيا ونعما وشقيا كما سترى ، حتى اذا كان الفراق الفاجع ، ومرت على الفراق السنون ، راح الخليل يناجي روح حسنائه بقوله :

يامنى القلب ونور العين	— م —	— م —	مذ كنت وكنت
لم اشأ ان يعلم الناس	— م —	— م —	بما صنت وصنت
ان ليلاى وهندى	— م —	— م —	وسعادى من ظننت
تكثر الاسماء لكن	— م —	— م —	المسمى هو انت

من هو البطل في "حكاية" عاشقين" ؟

ما صدق الخليل ، رحمه الله ، وكان في ما خلا ذلك صادقا ، حينما مهد "لحكاية عاشقين " بتنكره لواقعها وتنصله من حقيقتها في قوله انه تتبع وقائعها ، وكان فيها ترجمان ضمير العاشق ، ولسان فؤاده ٠

اما شاهدنا على ذلك فهو ما نشر في مجلة الزهور[1] حينما علقت على احدى مقالات الخليل قائلة : "انه كتبها في اواخر عهده "بحكاية عاشقين " يوم ذهب الى رمل الاسكندرية مستشفيا من دائين كانا قد الما به ، ووصفهما وصفا بديعا ملئه عواطف نفس حزينة يائسة في قصائد من اجود الشعر ٠٠٠ منها قصيدة (المساء) ٠

فحكاية عاشقين اذن فاجعة كان الخليل بطلها وقد اصابته من حياته في الصميم لا حادثة تتبعها ليكون فيها ترجمان سواه ٠ وان لما قاله صاحبا "الزهور" قيمة ووزنا ، فقد كانا الصق الناس به واعرفهم بخبيئة قلبه ، كما ان الدلائل على صحة ذلك عديدة ، منها صدق الشعور في قصائد الحكاية ، وتنوع البحور والقوافي وفقا لاختلاف ازمنة النظم وطبقا لتباين اسبابه ، وابدال الشاعر اسم العاشقين بضمير المتكلم خلافا لما درج عليه في سائر حكايات الديوان ٠ ثم ان ما اثبتناه في الفقرة السابقة من ميل الخليل الى صرف الظنون عن حبيبته هو الذى حمله ولا غرو على التستر ٠

هي غرام ست سنوات بدأت حوادثها عام ١٨٩٧ ، وتمت سنة ١٩٠٣ شطراها سعادة الحب وشقاؤه ، ومجالها في الديوان ثلاثون وسبع صفحات ٠"

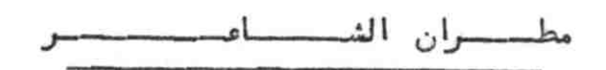
فالمطران قد عرف المرأة واحبها وسوف نتلمس ذلك في شعره ٠

هذا ما اردت ان اسوقه بايجاز من حياة الخليل مقتصرا على ما له اثر بارز في شعره ، او على ما يساعدنا على فهمه ٠

---

(١) مجلة الزهور ج ٨ س ٤ ك ١ (١٩١٣) ٠

مطران الشاعر



مطــران بــين التقليد والتجديــد

خليـل مطـران هو احد الممهـدين للتجديد والحداة لحركتـه المباركـة ، ليس في ذلك من شـك .

هـذا كلام لا يكاد يـدل على شيء لانـه كلام شامـل عام ، ونحـن نريـد ان نـرى ايـن هو التجديد الذى جاء بـه مطـران وما قيمتـه واين التقليـد الذى سار عليـه متأثرا خطـى الاقدمين .

ولنبدأ بهـذا السؤال الهـام :

هل شعـر مطران جديد كله ؟ ام ان التجديـد محصـور في مواضيـع خاصة لا يتعداها ؟

ومن الانصاف في الاجابـة على هذا السؤال ، ان نقـول ان مطـران جدد في بعض نواحي الشعـر ولم يجـدد في الشعر تجديدا جذريا كاملا . وسوف يأتي الكلام علـى هذا .

قلنا فيما سبـق ان محمـود سامي البارودى هو اول المجددين وباعث الشعر من غفوته وبينا فضلـه في احياء الشعـر العربـي والخروج به من قيود الجناس والبديـع الى التجديد في المواضيع وابـراز شخصيـة الشاعـر .

وقلنا ايضا ان الشعـر قد رقى على يد اسماعيـل صبرى الشاعر المترف الغنائي وكذلك على يـد شوقي وحافظ فكان ذلك تكملة لما قام بـه البـارودى ، الى ان جـاء مطـران فحول مجـرى الشعر من الاصوليـة الى الرومانتيكيـة .

ولكن مطـران الذى سافر الى فرنسا ودرس آدابها كان يجـب ان يجـدد تجديدا جذريا فيبتعـد عن شعر المناسبات الذى افسد شعره وهبط به عن المرتبة التي كان يجب ان يتبوأهـا .

ومما يـراه طـه حسـين [1] ان مطـران ثائـر على الشعـر القديـم ناهض مع المجددين وهو قد سلك طريـق القدمـاء فلم تعجبـه فاعرض عن الشعر ثم اضطـر فعـاد اليه وحاول ان يعود اليه مجـددا لا مقلدا ، وهو ينبئك بانه يعرض عليك في ديـوانه شيئا من شعره القديم تتبين بـه مقـدار ما وصـل اليه من التجديـد وهو متواضع لا يزعم انه بلغ من التجديد ما يريد وانما يـترك

---

(١) حسين طـه : حافظ وشوقي ص. ١٠

ذلك للذين سيأتون من بعده . وهو شجاع لا يعتذر ولا يتلطف وانما يعلن ثورته على القديم واغتباطه بالعصر الذى يعيش فيه وحرصه على ان يلائم بين شعره وبين هذا العصر . وهو معتدل فهو لا يرفض القديم كله وانما يحتفظ باصول اللغة واساليبها كما يتأثر القدماء في اطلاق فطرتهم على سجيتها . وهو فني له في جمال الشعر مذهب ان لم يكن واضحا كل الوضوح ولا مبتكرا كل الابتكار فهو على كل حال مذهب قيم لانه يمثل شيئا من المثل الاعلى الفني في هذا العصر فهو يكره هذا الشعر الذى تستقل فيه الابيات وتتنافر وتتدابر ويريد ان تكون القصيدة وحدة ملتئمة الاجزاء ."

ويقول ادهم (1) :

" وخلاصة القول ان شعر مطران ممتاز من ناحية الشاعرية والصناعة وانت لا تجد له مثيلا بين شعراء عصره او الذين تقدموه ، فهو نموذج عال لنمط جديد في الشعر العربي وقد ترك هذا الشعر من الاثر في اتجاه الشعر العربي الحديث ما لم يتركه شعر آخر لاى شاعر عربي ."

ثم يقول : " وكل التطورات التي لحقت الادب العربي وعلى وجه خاص الشعر ، كانت تتناول الشكل الخارجي ، وهو يتغير بتغير الزمان والمكان ، وليس في هذا اى تجديد ، حتى كان عصر النهضة الاخيرة فظهر مطران محاولا نقل الشعر العربي من الدائرة الذاتية الفردية التي كان يدور فيها من قبل ، الى دائرة اوسع وارحب ، هي دائرة الحياة كلها والتي دارت فيها الآداب الاوربية من قبل . فمطران من هنا حد فاصل بين عهدين في تاريخ الشعر العربي ، عمل في الشعر العربي ما لم يعمله جميع العرب مجتمعين . وانت يمكنك ان تعرف مطران على حقيقته اذا عرفت انه حاول ان يعبر عن الحياة الكلية ، عن درامتها الفنية ، فنجح في كسر الحدود الذاتية الفردية فانساب بعض الشعر العربي في اتجاه جديد يعتبر مطران نقطة التحول فيه ."

ولنرجع الى رأى الشاعر نفسه في التجديد فنجده يقول : (2) "اردت التجديد في الشعر فبذلت فيه ما بذلت من جهد عن عقيدة راسخة في نفسي ، وهي انه في الشعر ، كما في النثر شرط لبقاء اللغة حية نامية . على انني اضطررت ، مراعاة للاحوال التي حفت بها نشأتي ، الا افاجيء الناس بكل ما كان يجيش بخاطرى وخصوصا الا افاجئهم بالصورة التي كنت اوثرها للتعبير لو كنت طليقا . فجاريت العتيق في الصورة بقدر ما وسعه جهدى وتضلعي من الاصول واطلاعي على مخلفات الفصحاء . وتحررت منه ، وانا في الظاهر اتابعه بنوع خاص من الوصف والتصوير ومتابعة

---

(1) ادهم ص: ٢١٦ (2) مطران الكتاب الذهبي ص: ٢٦٧ .

الفرص. وبهذه الطريقة مهدت للجديد قبولا في دوائر كانت ضيقة ، ثم اخذت تتسع الى وراء ظني وتستمر في الاتساع بحكم العصر وحاجاته ، والعلم ومقتضياته ، والفن ومستحدثاته ." الى ان يقول : "اريد شعرنا ان يكون مرآة صادقة لعصرنا في مختلف انواع رقية . اريد كما تغير كل شيء في الدنيا – ان يتغير شعرنا ، مع بقائه شرقيا ، مع بقائه عربيا ، مع بقائه مصريا ، وهذا ليس باعجاز ."

هل رأيت كيف يقر على انه كان يجارى العتيق في الصورة ويتحرر منه وهو في الظاهر يتابعه بادخال الجديد من الوصف والتصوير وعدم التزام القافية الواحدة وادخال فنون القصص والملاحم وغير ذلك ، حتى لا يجرح احدا او يثير على نفسه العواصف ؟.

وفي حديث مع الشاعر[1] يجيب على سوأل يدور حول التجديد والمجددين وهل هو مجدد ام قديم يقول : " لم يقولوا عني اني قديم والواقع اني اجرأ من حافظ وشوقي على التجديد ولكني مع ذلك لم اجدد شيئا عظيما . والواقع ايضا ان اسلوبنا قديم يدخله شيء قليل من المصطلحات والافكار الجديدة . ولكن ليس قصدى من التجديد ان نقنع بقليل من الالفاظ والعبارات انما اقصد بالتجديد ان يخلق الشاعر موضوعا من اوله لآخره ويصوغه ويصوره ويفصله على النحو الذى وجدنا كل شعراء الغرب العبقريين قد نحوه في مولدات قرائحهم : فامرؤ القيس نظم القصيدة والمتنبي فخر ومدح ونحن ما زلنا مثلهما . ولكن التجديد الذى يحتاج الى الخلق والابداع وتكوين الموضوع من اوله لآخره لم يقدم عليه ولم يفكر فيه احد للآن : ومن اجترءوا على التجديد ما زالوا يعدون قدماء وهناك محاولات ولكنها ما تزال في طريق التكامل ."

وانا لنجد في هذا القول اعترافا صريحا بانه " لم يجدد شيئا عظيما " ، والذى يبدو من هذا القول ان مطران عارف لمفهوم التجديد : " هو ان يخلق الشاعر موضوعا من اوله لآخره ويصوغه ويصوره ويفصله على النحو الذى وجدنا كل شعراء الغرب العبقريين قد نحوه في مولدات قرائحهم : "

فلماذا لم يجرؤ مطران على هذا التجديد ؟ هل يعود ذلك لعجز فيه او لخوفه من كساد بضاعته عند قرائه ؟.

---

(١) حديث مع شاعر القطرين – الهلال م ٣٦ (١٩٢٨) ص١٠٣٤

نحن لا ننكر على مطران تجديده — في بعض قصائده المعدودات — المواضيع والصياغة والتصوير ولكن هذا قليل جدا اذا ما قيس بباقي شعره ، من شعر مناسبات ورثاء ومديح الذى يخلو من كل تجديد . بل ان نظمه هذا الشعر يدل على عدم فهمه للتجديد الذى يطالب به فلو جدد حقا وتاثر شعراء الغرب العظام لما قال هذا الشعر او على الاقل لما حشره في دواوينه فاختلط الزؤان بالقمح .

ويقول في مكان آخر:(1)

" اني لما رأيت الشعر لا يزال على ما كان عليه من اقدم زمانه ، لم يتجدد ولم يتطور ، بل نأخذ القديم وننشيء الجديد على طرازه واذا ادخلنا عليه ايحاءات العصر جاءت متكلفة ، قلت أن التجديد يجب ان يشمل الاساس ، وكان امامي صعوبات شتى لبلوغ هذه الغاية ولكني اعتزمت اقتحامها في شيء من المداورة يساعد طبعي عليه ، رأيت المداورة خيرا من المباشرة في تحريك شيء تركز جدا في نفوس الناس وعقائدهم ، فمصادمته لا تقنعهم وقد تصرفهم عن الشيء الجديد ، اما اذا صدمته من جانب وتركته من جانب فقد تقنعهم ولا تنفرهم . وهكذا احببت ان يبقى الشعر كما كان من ناحية البحور والروى والاساليب التي احبها الناس من جهة معرفة اللغة بحق ، وان ادخل مقابل ذلك الوحدة على القصيدة بدلا من ان تكون قصيدة متناكرة باجزائها كل بيت منها لمعنى او لغاية . قلت لنفسي سأتعب من ناحية الشكل والتزم القيود المعروفة ، اما من هذه الناحية فساسير وسيساعد الزمن على تحقيق ما ابغيه . وكنت اجتمع وشوقي وحافظ وغيرهما وانبههم الى هذا . وذات يوم نظم شوقي قصيدة ولا اظن ان احدا يبرعه فيها من ناحية صياغتها ، فقرظها اديب بقوله انها جمعت جميع المختارات الشعرية والمحسنات اللفظية في شعر العرب ، فقلت ان هذا التقريظ هو النهاية فيما يمدح به الشعر ولكن بقى انه ليس في القصيدة من جديد ، وبقى ان نعلم ان مبلغ ما وصلنا اليه في شعرنا الحديث وان ضاهى ارقى شعر العرب ، يظل شعرا صناعيا ويظل شعرهم رضاعيا لاننا ننظمه نحن بطريق المحاكاة وكانوا ينظمونه هم عن طريق الدفع الفطرى فلا يمكن ان تقول في هذا الزمان شعرا صافيا مثل شعر ابي تمام ، وحتى عندما تأتي بمثله لا يكون شعرك انت ."

---

(1) مطران ، خليل مجلة الطريق م ٤ عدد ١٤ ص ٣

وفي هذا القول ايضا اعتراف من جانب الخليل انه (ابقى على البحور والروى والاساليب التي احبها الناس)

وفي هذا الاعتراف ما يعزز القول بان تجديد مطران ما كان تجديدا جذريا كما قلت انما جاء في نواحي خاصة فقد اعتمد على عنصرى الخيال والفكر وتأثر بالرومانتيكية واتقن الشعر القصصي وفيما عدا ذلك فهو يقصر عن غنائية شوقي ورثاؤه دون رثاء حافظ.

وهو يصف شعره في (حكاية نشر هذا الديوان)[1]

خواطر وضاءة بها ملامح السهر
البستها من ادمعي ومن دمي هذى الحبر
قشيبة غربية عصرية نسج مضر

فاذا شعره غربي عصرى في روحه ومضرى في نسجه.

وفي (تقريظ) رواية شعرية لعادل الغضبان[2] يقول:

نحن لم نخترع جديد المعاني وغلونا في لفظها تحسينا
فتح الفن كل باب حديث وعلى عهده العتيق بقينا
فخذوا انتم من العلم ما اعطى، وقولوا الطريف قولا مبينا
لغة الضاد لا تضن عليكم، ان جددتم، بكل ما تبتغونا
كل يوم يصيب في منجم منها الاديب الاريب كنزا دفينا
اخذ الغرب من مغاوصنا الدر وفي صوغه اجاد الفنونا
وهو يأبى الجمود يوما فما للشرق لا يسأم الجمود قرونا ؟
فكروا فكروا، مليا مليا، واستقلوا بوحيكم راشدينا
واستمدوا هدى سجيتكم واتخذوها لكم نصيحا امينا
فاذا ما انشأتم، فاخلقوا خلقا تكونوا حقيقة منشئينا
ذاك ذاك التجديد، لا فعل من يمكث في معقل القديم سجينا

---

(١) الديوان ج ١ ص. ٣٠٦

(٢) الديوان ج ٤ ص. ٢٥

وفي هذا القول يعترف مطران انه ، وزملاؤه الشعراء من معاصريه لم يخترعوا المعاني الجديدة وانما حسنوا في الالفاظ. ويطلب من الشعراء الناشئين ان يقبلوا على التجديد ويبتعدوا عن الجمود شأن شعراء الغرب وما التجديد سوى الخلق الفني الرائع.

وهو في مناسبة اخرى يقول وهو مدرك لحالة الشعر القديم وواع لما يجب ان يكون عليه الشعر الجديد :

تنعى على الشعراء اوهام لها ... خدع البهارج في طلاء محال

وضروب ايقاع ، مرجعة على ... وتر من الضرب المبرح بال

تحلو بالفتنا لها ، لكنها ... سرعان ما تفضي الى الاملال

وتظل عن مجرى الحياة بمعزل ... وتنافس العمران بالأطلال

ان كان بعض الشعر هذا شأنه ... ما الشعر كل الشعر محض خيال

وتعلل بمدامة ، وتعذل ... لملاحة ، وتغزل بغزال !

الشعر ينتجع الجمال ، وينتحي ... في كل شعب مصدرا لجمال

بالحسن والمعنى له الماسة ... تجلو الحقائق في احب صقال

هو مورد يروى النهى بنميره ... ويعيره في العين لمع الآل

هو مثقب العزمات في طلب العلى ... ومطيل ما تدني من الآجال

لا شيء يلهمه ويقتدح اللظى ... من زنده كعظائم الافعال

ويدرك مطران ان الوزن الواحد والروى الواحد يؤديان الى الملل وهو في ذلك مصيب وان يكن ما فعله لتلافي هذا الملل جد قليل.

والشعر ينتجع الجمال. صدق مطران.
ويذكر عبد المنعم خفاجي. (1)
"ان مطران يجمع بين الروح الحديثة في الشعر والمحافظة على الاصول القديمة في اللغة والتعبير. ثم ينقل رأى مطران في التجديد حيث يقول : "اريد التجديد يمثل في التفكير بمعناه البعيد الغور ، الذى هو منبع الابتكار ليحل ذلك التفكير تدريجيا

---

(1) خفاجي ، عبد المنعم مع الشعراء المعاصرين ص. ٢١

محل الخيال المشتت الذاهب في تشتت الذهن ضروب المذاهب ، الخيال الذى لا يصدر عن الحقيقة غالبا التي هي مصدر كل جمال ثابت. ان هناك مجالا للعقل المبتكر ، والفكر المولد ، والتصوير البارع ، مع الخروج عن الابتذال ، ومجارات اسمى ما تضعه قرائح اماظم الادباء في الغرب."

ويقول الدكتور مندور : (1)

"على انه الى جوار المعسكرين اللذين كانا يقتتلان حول الشعر في مستهل هذا القرن ، وهما معسكر الشعر التقليدى ومعسكر الديوان كان هناك عملاق لم يهاجمه اصحاب الديوان لانه لم يكن من دعاة الشعر التقليدى ، ولكنهم مع ذلك لم يحتضنوه ، ولا اعترفوا باستاذيته وتجديده وتطعيمه الشعر العربي باصول واتجاهات الشعر الغربي وخروجه بالشعر من الذاتية الى الموضوعية وتطويع قوالبه واوزانه للشعر القصصي والتصويري والدرامي . وهذا العملاق العظيم هو خليل مطران .

ومع ذلك ، فان عبقرية مطران لم يتبدد اريجها سدى ، بل لعل تلك العبقرية ، هي التي كانت نقطة البدء في تطور الشعر الحديث ، وتنوع فنونه وتجديد معانيه واتجاهاته ، وذلك على عكس جماعة الديوان التي ربما كان تاثيرها في النقد ، بل وفي الهدم اكبر من تاثيرها في الانشاء والتوجيه والانتاج وتشجيع الشعراء الناشئين والحنو عليهم ودفعهم نحو الابتكار والتحمس للشعر والايمان به .

فمطران قد مهد بلا ريب تمهيدا قويا للشعر القصصي او الشعر التمثيلي بالرغم من انه لم يخرج بالشعر العربي من قالب القصيدة الى قالب الحوار ، وذلك لانه قد طوع القصيدة لعناصر القصص والدراما ، ولكن في ذلك اكبر تمهيد لظهور مسرحيات شوقي واحمد زكي ابو شادى وعزيز اباظة الشعرية ."

على ان النقاد اختلفوا في تجديد مطران وبرز منهم من جرده من هذه الصفة وهم جماعة مدرسة الديوان : العقاد وشكرى والعازني .

---

(1) مندور ، الدكتور محمد   الشعر المصرى بعد شوقي ص: ١٢١

فمطـــران لم يجروء على تحطيـم الـوزن والقافيـــة بل نراه في قصيد تـــه (نيرون) يستنفـد المفاجـم في التفتيش عن القوافـي . ولكنـه يتساهل احيانا ويفلت من قيـد القافيـة الواحـدة . كما في اهم قصائده : (الوردتان) ج ١ ص٠ ٣٥ . (شهيد المروءة) ج ١ ص٠ ٨٢ (الاقـتران) ج ١ ص٠ ١٣٨ . (فنجان قهـوة) ج ١ ص٠ ١٤٨ وفي بعض قطـع من (حكايـة عاشقيـن) ج ١ ص ١٨٥ . (الجنين الشهيـد) ج ١ ص٠ ٢٢٣ (الطفـلان) ج ٢ ص٠ ٦١ (هـل تذكريـن) ج ٢ ص٠ ١٣٥ ، (عيد الميـلاد) ج ٢ ص٠ ٢٤٦ ، (حكاية وردة) ج ٢ ص٠ ٢٨٨ (يوم البرميـل) ج ٤ ص٠ ٧٣ و (ذكـرى) ج ٤ ص٠ ٢٦٢ .

ونـلاحظ ان هـذا الخروج على القافيـــة الواحـدة انما يكـون اكثر ما يكـون عنـد مطـــران في القصائد القصصيـة ولا يكون الا نادرا في الـرثاء والمديـح .

وينقـل حنـــا الفاخـوري [1] فقـرة من " المجلـة المصرية " (م ١ ج ٣ ص٠ ٨٥) ، لمطـــران حيث يقـــول :

" ان خطـة العـرب في الشعـر لا يجب حتما ان تكـون خطتنا ، بل للعـرب عصرهـم ولنـا عصرنـا ، ولهـم آدابهـم واخلاقهـم وحاجاتهـم وعلـومهـم ، ولنا آدابنـا واخلاقنـا وحاجاتنـا وعلـومنا ، ولهـذا يجب ان يكـون شعرنا ممثلا لتصورنا وشعـورنا لا تصورهـم وشعـــورهـم " .

ولنلتفت الى مقدمـة مطـران لدواوينـه حيث يقـــول : [2] " فشرعت انظمه لترضية نفسـي حيث اتخلـى . او لتربيـة قومي عنـد وقـوع الحـوادث الجلى . متابعـا عـرب الجاهلية فـي مجاراة الضميرعلى هـواه . ومراعاة الوجـدان على مشتهاه . موافقـا زماني فيما يقتضيه من الجرأة علـى الالفاظ والتراكيب لا اخشى استخدامها احيانا علـى غير المألوف من الاستعـارات والمطروق من الأساليـب . ذلك مع الاحتفاظ جهـدى باصـول اللغـة وعدم التفريط في شيء منها الا ما فاتني علمـه . "

الـى ان يقـول : [3] " هـذا شعر ليس ناظمه بعبده . ولا تحمله ضرورات الوزن او القافيـة على غير قصده . يقـال فيه المعنى الصحيح ، باللفـظ الفصيـح . ولا ينظر قائلـه الى جمـال البيت المفرد ، ولو انكـر جاره وشاتم اخاه ودابر المطلع وقاطع المقطع وخالف الختام .

---

(١) فاخوري ، حنا — تاريخ الادب العربي ص٠ ١٠٣٣

(٢) مطران ، خليل مقدمة الديوان ج ١ ص٠ ٨ — (٣) المصور ، نفسه ص٠ ٩

بل ينظر الى جمال البيت في ذاته وفي موضعه ، والى جملة القصيدة في تركيبها وفي تناسق معانيها وتوافقها مع ندور التصوير وغرابة الموضوع ومطابقة كل ذلك للحقيقة وشغوفه عن الشعور الحر وتحرى دقة الوصف واستيفائه فيه على قدر."

الى ان يقول [١] على انني اصرح ، غير هائب ، ان شعر هذه الطريقة - ولا اعني منظوماتي الضعيفة - هو شعر المستقبل لانه شعر الحياة والحقيقة والخيال جميعا ."

وقد يكون مطران اول شاعر عربي يفهم الشعر على انه يتناول (الحياة والحقيقة والخيال) ولو اضاف الى هذه العناصر الثلاثة عنصر الذوق الفني لكان تعريفه للشعر تعريفا تاما .

ونرى ردا على هذا القول ان الشعر اكثر من (ترضية النفس حين تتخلى) ومفهومه انه (للوعظ والارشاد) مفهوم قديم لا يتمشى مع التجديد ومع روح العصر .

الشعر في عرفي عملية فنية فيها خلق وابداع ، وهو ارقى الصناعات الفنية يجمع بين الفكر والخيال ويخاطب العقل والعاطفة والذوق السليم .

ونرى ايضا ان التجديد لا ينهض على تجديد في (الالفاظ والتراكيب) بقدر ما يقوم على فهم الشعر فهما صحيحا يجعله بحق ارقى الصناعات الفنية . فاذا كان الشاعر حرا بحياته الشخصية حرا في ان يكون له ما يشاء من الاصدقاء والروابط الاجتماعية فهو ليس حرا في ان يسخر شعره لمثل هذه الاشياء . ذلك لان حياة الشاعر ملك لنفسه اما فنه فهو ملك لسواه .

وفي رأى ابي شادى [٢]. ان مطران جاء بمذهب الحرية الفنية الصحيحة التي تحترم شخصية الفنان واستقلال الفن عن الصناعة والبهارج والاناقة الزخرفية وكل ما يفرض العبودية على الفن والفنان من الفاظ وقيود اتباعية لا يحتمها الجمال المطبوع واصالة الفن . دعم مطران وحدة القصيدة وشخصية الفنان وعزز رسالته كما تدعم الديمقراطية حقوق الانسان ، وفتح له باب الحياة على مصراعيه كما افسح له آفاق الخيال ، وابرز له كل شيء في هذا الوجود ، صغيرا كان ام كبيرا ،

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٠ - ١١

(٢) ابو شادى ، احمد زكي الاديب ١٢ عدد ١٠ (١٩٥٣ ص ٤٠٣

كموضوع شعرى خليق بعناية واهل للتناول الفني اذا ما استطاع الشاعر ان يتجاوب معه ، وحبب اليه الموضوعات الانسانية بدل الاقتصار على العواطف الذاتية فحسب ، واقنع شعراء مدرسته بان على كل منهم رسالة مثالية لا بد له من ادائها ، وليست وظيفة الشاعر ان يكون نظاما لغويا او بين المرتلين الانتهازيين ، بل عليه ان يكون بين زعماء الفكر ورسل الوجدان ودعاة الاصلاح واعلام الايمان لجيلهم ولما بعد جيلهم وان يجمع بين كل القيم التي تؤهل الزعامة الروحية العقلية التي تزاوج ما بين احلام الفنان وحكمة الفيلسوف الواقعي . بهذه التعاليم وما اليها انجب مطران وتلاميذه انجابا ممتازا شرف العربية كما اغنى الادب الانساني الصادق ."

ومن الانصاف ان نعترف لمطران تجديده في خروجه بالشعر العربي من مجاله الضيق وفلكه المحدود الذى ظل يدور فيه منذ اول نشأته ، وجعله يطل على مدى ارحب ويشرف على مناخات اجد . فلم يعد الشعر كل الشعر عنده محصورا بالمدح والغزل والوصف والفخر والهجاء والرثاء ، بل اخذ يتناول مفاهيم جديدة ويعبر عن فكر راقية ويتناول مواضيع تتعدى حدود الزمان والمكان وذلك واضح في قصائده الشهيرة امثال (المساء)(الجنين الشهيد) (الاسد الباكي) (نيرون) وقليل غيرها .

واخذ مطران بالرومانتيكية التي اعجب بها من قراءته للشعراء الفرنسيين ، امثال لامرتين وموسيه . وهناك ظاهرة يجب ان نلتفت اليها وهي ان مطران الذى سافر الى فرنسا - وكان قد درس الفرنسية واتقنها قبل سفره - نزل تلك البلاد ومدارس الشعر فيها قائمة على تحطيم الرومانتيكية فمن رمزية الى واقعية الى طبيعية الى برناسية ومدرسة الفن للفن قامت جميعها على انقاض الرومانتيكية التي اصبحت تسمى داء العصر .

وهذا ما يقوله الدكتور احسان عباس [1] " بلغت الرومانطيقية اوجها في الثلث الاول من القرن التاسع عشر . وفي المانيا وبعد سنتين من وفاة جوته حدث تغير وتوقف ، اودى بشمس الرومانتيكية الى الكسوف ، وكانت فرنسا اسبق من المانيا الى التعبير عن هذا التحول فيما سمي الواقعية والطبيعية على يد فلوبير وموباسان وزولا وغيرهم ."

---

(١) عباس ، الدكتور احسان ، فن الشعر ص: ٤٩ .

فلماذا لم يتأثر مطـران بهـذه المدارس المستحدثـة واخذ بالرومانتيكيـة ؟ ألان هـذه المدارس لم تلائم هـوى في نفسـه ؟ ام لانـه ما استطاع ان يفهمها ؟ اني لا ارى ان مكوث مطـران في فرنسـا افاده شيئا كثيرا ، وان يكـن قد استفاد اكثر من شوقـي .

ومهما يكن من امر فان السنتين اللتين امضاهما في فرنسا معتمتين من حيث معرفـة اخبار الشاعـر وصلاته الادبيـة بالشعراء والادباء الفرنسيين ومدى تأثره بهـم . فجل ما نعـرف انه كان على صلـة بجماعة تركيا الفتاة ، فهـل يعني هذا ان نشاطه السياسي قد غلب على نشاطه الادبـي ؟

فهـو لم يذهـب الى هناك قصد الافادة من الادب الافرنسي والاطلاع على هـذه المدارس الحديثـة وفهمهـا والاخـذ بهـا . وانما بقي نظره مثبت على رؤوس كبار من شعـراء فرنسـا امثال هيجـو ولامرتين وموسيـه .

سافـر مطـران مرغما اول الامر لانه كان مضطهدا من قبل السلطنة التركيـة التي حاولت اغتياله فنصحه اهله بالسفر ، فهو لم يذهب طالب علم بقدر ما ذهب طالب حماية وعمل شأن مـن سافـر من اللبنانيين في طلب العيـش . والامـر الثاني ان مطـران قد افاد من الأدب الفرنسي في دراسته في زحلة وبيروت وقرأ نماذج من الأدب الرومانتيكي مما جعل الرومانتيكيـة تلاقـي هوى في نفسـه فلم تقو هـذه المدارس الجديدة على زعزعتهـا . امـر ثالث ان الانسان متمسك بما يألف محافظ على ما يعـرف لا يقبل بسرعـة على بهـرج الجديد المحدث . وامـر رابـع هـو ان الرومانتيكيـة قد تكـون وجـدت هوى في نفسه ولاءمت مزاجـه فتأثـرها دون سواها . فهـي قائمة على التغني بالذات وانعكاس لما في دخيلة النفس ، ومطـران بطبيعتـه رقيـق حواشي النفس شديد الحساسيـة .

غير ان مطـران لم يقلد شعراء الفرنجة الا فيما يتعلق بالاساليب وحافظ على نهـج العـرب وصياغتهـم ومتانـة لغتهـم .

وفي رأي شفيـق المعلوف :(١) "ان شعر مطـران هو مدرسة الشعر الرفيـع في هـذا العصر . وان لمن الاجحاف انكار ذلك . فلو نظرنا الى اعلام القريض ممن هم في طبقة هذا الشاعر ،

---

(١) المعلوف ، شفيـق العصبة الاندلسيـة م ١٠ سنة ١٩٤٩ ص ١١٤ ، ٢٢٦ ، ٣٣٨

لرأينا على نتاجهم مسحات من الطريقة العربية القديمة يشيع فيها ما في القديم من فصاحة اسلوب وبعيد جرس وجلال بيان ، كما هو الواقع في شعر البارودى وتامر الملاط وصبرى وشوقي وحافظ ، فانهم لم يندوا في كل ما نظموه عن اساليب الاولين ، بينما نرى ان خليلا على رغم ما في شعره من احكام الوصف وجمال الافصاح ، يزين منظومه بابدع ما هو في متناول القرائح ، مجلوا في غلائل من الفن المغرى على احدث ما في الفن الادبي من طرق ، حتى لو رحت تترجم ما يقوله الى لغات الاعاجم لما وقعوا منه الا على شعر عالمي نفيس، تفاخر به امة صاحبه سائر الامم . ولن ينصف مطران الانصاف كله ، الا متى بسط نتاجه في معارض آداب الشعوب ، وحرر من جلباب اللغة الام ، ليعرض خلوا من الزخرف ، وبيد وعاريا كما اجتحفه القلب من الفكر وقذفت به العبقرية الى النور".

أن يترجم مطران الى الغرب فكرة لا بأس بها ومقياس لتقييم شعره ، ولكن لماذا لم يترجم ؟ ومن يضمن لنا انه اذا ما ترجم يستطيع ان يقف على قدميه امام شعر الغرب الراقي ؟ ومن يضمن لنا ايضا انه حتى اذا ما ترجم لم يجدوا فيه اقل من بضاعتهم ردت اليهم ؟ .

وعلى كل حال فالنقاد متفاوتون في النظر الى مدى تجديد مطران . فمنهم من يرى انه مجدد في كل شعره . ومنهم من يتحفظ ويرى ان التجديد ليس الا في قليل من شعره ولا يتعداه الى التجديد الجذرى .

وارى انه في الحديث على التجديد والمجددين يجب ان ننظر في اى زمن يكون هذا التجديد وبالنسبة الى من . هل هو مجدد بالنسبة الى الشعراء العباسيين ؟ ام بالنسبة الى معاصريه من شعراء العربية في قطر خاص ام في جميع الاقطار ؟ ام هو مجدد بالنسبة الى شعراء المهجر ؟ ام هو مجدد بالنسبة الى الشعر العالمي دون تخصيص ؟

لا شك في ان مطران مجدد بعض التجديد بالنسبة الى معاصريه من شعراء مصر امثال البارودى وصبرى ، وشوقي وحافظ وعبد المطلب وغيرهم . ولكنه يقصر في تجديده هذا اذا هو قيس بالتجديد الذى جاء على ايدى شعراء المهجر . اما اذا قيس شعره بشعر الغرب الذى عاصره بدا قديما ليس فيه جديد .

ومهما يكن من امر فان الناس لم يقبلوا على شعر مطران جميعا ، فرضي عنه فريق وازور عنه فريق آخر وهذا طبيعي يحصل في حال الانتقال من شعر الفوه الى شعر لم يألفوه يحتاج

الى درس وامعان نظر لانه مزيج بين الفكر والخيال .

ويقول عادل الغضبان:[1] "ما من شك في ان ثقافة العصر ستجعل من هذا الشعر شعر الغد وستسجل للخليل انه سبق عصره بنحو نصف قرن ." ثم يقول : "وكيفما كان الامر فشعر الخليل مرآة عصره وبلاده رثى وواسى ومدح وهنأ ووصف ورسم وعلم وهذب وجمع وسجل وثار واستثار ورضي واسترضى ومج مرقمه بالسحر ينفثه افانين والوانا ويخلد على الزمن فضائل النفوس ومأثرات الكرام ."

واذا نظرنا في هذا القول نرى ان الغضبان جعل مطران سابقاً لعصره بنحو نصف قرن لانه (رثى وواسى ومدح وهنأ الخ). وعندى ان مطران لو ابتعد عن شعر المناسبات هذا واكتفى بالقليل من شعره الصافي الذى جاء عن احساس وصدق عاطفة لكان قد سبق عصره بحق . اما ان نرى في شعر المناسبات عند الخليل سبقا فهذا امر لا يقره الا من كان ضعيف البصر .

وفي رأى جريدة (لانوفيل لترار) [2] "ان خليل مطران جدد في جميع المناحي الادبية ، مستوحيا ثقافته الاوربية دون ان يجرح التقاليد المتأصلة في نفس كل شرقي ."

وكذلك يرى الاب روفائيل نخله [3] "ان مطران قد احدث بجسارة مدهشة انقلابا عظيما في شعر اهل زمانه بل في الشعر العربي على وجه الاطلاق ."

ثم يسأل ما الذى جدده مطران ويجيب : كل شيء ما عدا الاوزان ، جدد المواضيع والتعابير ، فحسبه بذلك فضلا بل مجدا عظيمين ، يخلدان اسمه في تاريخ ادبنا الناهض".

وهذا قول ملقى جذافا لم يدعيه مطران ، المتواضع ، نفسه . وكذلك قوله : "ان مطران حين نزل الى ميدان القريض كان هذا الفن قد هوى عندنا الى اقصى دركات الانحطاط كان اكثره تافها بمواضيعه مبتذلا بتعابيره ، يكتفي اصحابه المتشاعرون بأن يستظهروا شعر الاقدمين ، منتزعين منه رقعا يضمون بعضها الى بعض ويؤلفون بها منظوماتهم السقيمة ، الخالية

---

(١) الغضبان ، عادل الكتاب ابريل ١٩٤٧ ص: ٨٣٨

(٢) المكشوف ، عدد ١٢٩ ص: ٤

(٣) نخلة ، الأب روفائيل ، المشرق ٤٦ ، ١٩٥٢ ص: ٦١٧

من الحقائق السامية والعواطف النبيلة والخيالات الجديدة ، فليس لها ، والحالة هذه ، من الشعر الا اسمه ."

وهذا قول مبالغ فيه ايضا لانه ليس من احد يقر انه لما نزل مطران ساحة الشعر كانت خالية الا من النظامين . فاين نذهب بالبارودى واسماعيل صبرى ، واين نذهب بالشاعرين الكبيرين شوقي وحافظ اللذين عاصرا مطران وجروا جميعا في حلبة واحدة . فشوقي ، امير الشعر ، اشد غنائية من مطران ولهذا عاش شعره وغني . وحافظ يبزه في الرثاء وقول الشعر الجزل الفخم .

ومن النقاد الذين ينكرون التجديد على مطران ويضعفونه - بالاضافة الى مدرسة الديوان التي مر ذكرها - الاستاذ مخائيل نعيمه: (١)

" حاول مطران في بدء نشأته الشعرية ان يخرج على المألوف من الاساليب ، وان يتنكب السبل المطروقة ، وان يجعل من القصيدة وحدة متماسكة ، وان ينوع القافية في القصيدة الواحدة ، وان يعالج الشعر القصصي ، ويطرق موضوعات ما كان الذين سبقوه يحسبونها جديرة بشرف الشعر ."

ثم يقول : " ولكن مطران الذى شاء في بدء نشأته الشعرية ان يكون من المجددين برغم "المتعنتين الجامدين من المتطسين الناقدين " ما لبث ان عاد الى حظيرة المقلدين . فما تمكن من التفلت من قيود بيئته وزمانه . اما التجديدُ الذى جاء به فقد اقتصر على بعض القصص يسبكه في موشحات من النوع الحديث ، ولكن في موضوعات مأخوذة من احداث يلتقطها هنا وهناك وهنالك مما تنقله الصحف السيارة والسنة الناس في كل يوم . فلا ابتكار ، ولا خلق ، ولا مقالع واسعة غنية يفتحها الخيال في العالم الباطني او الخارجي ."

وهذا قول وان يكن فيه شيء من القساوة هو قول صادق الى حد كبير . فكيف يريد وننا ان نفهم التجديد اذا كان التجديد فهم الشعر على انه يسخر لكل مناسبة وينحط الى اسفل الدركات .

---

(١) نعيمة مخائيل الرسالة سنة ٣ عدد ٥ ، (١٩٥٧)

وهكذا يكون الخليل في نظر مخائيل نعيمة قد ابتدأ مجددا وانتهى مقلدا فهو خاتمة القديم وبداية الجديد .

ورأى بعض النقدة ان الخليل لم يقطع الصلة بينه وبين اسلافه ومعاصريه من الشعراء فنظم في التهاني والمديح والتكريم والرثاء . ثم يأخذ هولاء في تبرئة الشاعر الذى تضطره الحياة الاجتماعية الى مماشاة معاصريه والسير على مناهجهم . وعندى ان الشاعر العبقرى لا يأبه الى مماشاة عصره بل يطبع هو عصره بطابعه ويجعله يماشيه بل ويمشي وراءه .

وفريق آخر لا يرى فضلا لمطران في تجديده ذلك لانه لم يكن في يده ان يقف في وجه التجديد . ويمثل هولاء العقاد الذى يقول (١)

" اما انه من المجددين فذلك ما لا ريب فيه ، ولكنه لا فضل له في تجديده لانه لم يكن يستطيع غيره . وانما العناء كل العناء في التجديد الذى ينازع فيه الانسان موروثاته وعقباته ويتخذ له فيه طريقا غير الطريق المرسوم له من قبل وجوده .

اما الاستاذ مطران فقد كان في حاجة الى جهد لاجتناب التجديد ولم يكن محتاجا الى جهد لاتباع مناهج الادب الحديثة ، لانه درج على الدراسة الاوروبية ولم يفرض عليه الماضي الموروث ان يتشيع تشيع العقيدة لبقايا الآداب العربية او بقايا الآداب الاسلامية ، فعناؤه حين يمضي في طريق التجديد عشر خطوات دون العناء الذى يلقاه في الخطوة الواحدة رجل مثل حافظ ابراهيم ."

وبعد ان عرضنا الى آراء هولاء النقاد الذين نستطيع ان نقسمهم الى فريقين : فريق يرى ان مطران حامل لواء التجديد في الشعر العربي الحديث ، وانه مجدد في جميع شعره دون استثناء . وفريق آخر لا يرى ان مطران قد جدد تجديدا جذريا فتجديده ضعيف يتناول بعض نواحي شعره ولا يتعداها .

على ان مطران قد كسب عطف النقاد لاسباب اهمها :

(١) كرههم لشوقي وتحاملهم عليه وحسدهم له جعلهم ينظرون الى مطران نظرة عطف ورضى .

---

(١) العقاد شعراء مصر ص: ١٩٩

(٢) شخصية مطران محببة لدى الجميع لانها قد احتوت على جميع عناصر الرجولية وهو لم يدخل فريقا ثالثا في اية خصومة ادبية ، كالتي ادخل فيها شوقي وحافظ.

(٣) ومطران لم ينهج النهج الاتباعي المعروف بل نحا منحى ابداعيا جعله ملفت الانظار.

هذا ، ومهما اختلف في الامر فان المنصف لمطران يقف موقفا وسطا بين هؤلاء وهؤلاء ، فلم يكن مطران كما اراد الفريق الاول مجددا في كل شعره حاملا لواء التجديد ، وهذا امر بدهي اذ انه لو جدد مطران لما كانت الحاجة ماسة اليوم الى التجديد الذى يروق له شعراء المدرسة الحديثة ، ثم ان هناك امرا يجب ان نلتفت اليه وهو ان الصراع قائم بين القديم والجديد في كل زمن وما يلبث الجديد ان يصبح قديما. قام دعاة التجديد وعلى رأسهم ابو نواس يدعون الى التجديد في العصر العباسي وتبعتهم مدرسة المهجر وتبع ذلك المدرسة الحديثة في الشعر التي سمت نفسها مدرسة الشعر الحر. فالجديد يتجدد دائما.

ولم يكن مطران ، والحق يقال ، كما اراد الفريق الثاني الذى كاد ينكر عليه كل فضل في التجديد ، اذ انه لا يستطيع ان ينكر منصف ان مطران يمتاز عن زميليه شوقي وحافظ في الاخذ بيد الشعر والخروج به من حدود الكلاسيكية الضيقة التي يسميها مخائيل نعيمة " الكلاسيكية المزيفة " ، الى آفاق الرومانسية الرحيبة. واننا نستطيع ان نحصر تجديد مطران في الخطوط التالية :

١ ـ المواضيع
٢ ـ الخيال
٣ ـ الاتجاه الرومانتيكي
٤ ـ الشعر القصصي
٥ ـ نظرة جديدة الى الطبيعة
٦ ـ وحدة القصيدة
٧ ـ الشعر التمثيلي للمآسي.
٨ ـ الشعر الانساني
٩ ـ صك تعابير شعرية جديدة.

اكتفي الآن بذكر هذه النقاط وعدم شرحها والتوسع بها لان ذلك سوف يأتي فيما بعد .

واذا لم يستطع مطران ان يجدد تجديدا جذريا يتناول مفهوم الشعر وقوالبه فهو ليس المسؤول الوحيد من هذا التقصير ولكن يشاركه في ذلك فقدان الناقد المثقف الموجه وجمهور القراء الواعي المتذوق الذى يفرق بين الغث والسمين ويمد يده يأخذ هذا الجديد ويقبل عليه . فقد اصبح الشاعر بفضل وسائل النشر من طباعة وصحافة ومجلات واذاعات وتسجيلات ، يكتب للقراء مخاطبا اياهم مقيما معهم صلات وروابط من المودة والالفة . ولهذا التأثير المتبادل اثر كبير في شعر الشاعر وفنه وفي ذوق الجمهور وتثقيفه . فاذا لم يقبل الجمهور على شعر الشاعر وادب الاديب اصاب هذا الاخير انتكاس يجعله يعدل مذهبه ويغير طريقه لكي يلائم اهواء قرائه .

ولا شك في ان مطران الذى اخذ يعد نفسه للتجديد المجدى وجد عدم استعداد وعدم تشجيع من كلا النقاد والقراء . ووجد انهم يقبلون على شعر شوقي وحافظ بحماسة واندفاع بينما يقبلون على شعره بشيء من الفتور . وكما ان مرد هذه الظاهرة الى ثقافة الناقد والقارىء المحدودة كذلك تعود الى طبيعة شعر مطران نفسه الذى يفتقر الى غنائية شوقي وفخامة حافظ وجزالته ويفوقهما تعقيدا وكد ذهن بحيث يتعذر على غير المثقف ثقافة عصرية واسعة فهم شعر مطران بسهولة . وهذا يعلل عدم صلاحية شعر مطران للغناء بينما نرى ان قصائد شوقي وحافظ لا تزال على كل شفة ولسان خالدة على حناجر ام كلثوم ومحمد عبد الوهاب وغيرهما من كبار المغنين .

ويرى ادهم [1] "ان لشعر مطران موسيقى هادئة خافتة النبرات ، ولعل هذا الهدوء وخفوت النبرة ، هو السبب في انكار الذوق المصرى العام لموسيقية الرجل في شعره فقد حدثنا الاديب الشاعر عبد اللطيف النشار ان الذوق المصرى لا يؤخذ بموسيقية شعر الخليل ، لان الذوق المصرى لا يستهويه (او يستتيمه) غير النبرات الظاهرة والموسيقى الصاخبة والحركة والجلجلة في التوقيع ."

وفي رأى السحرتي [2] "ان طغيان الفكرة في كثير من شعر مطران قد الجأه الى البحور الطويلة والنغم المستطيل الذى لا يثير هزة في النفوس، ولا نبضا قويا في القلوب ، ولهذا لم تكن انغام مطران من الانغام الجاذبة الآسرة ."

---

(١) ادهم ، خليل مطران ص. ١٠٨

(٢) السحرتي ، مصطفى عبد اللطيف الشعر المعاصر ص. ١٢٦

ويضيف ادهم الى ذلك سببا آخر منع مطران من ان يجدد تجديدا كبيرا كامن في طبيعة اللغة العربية نفسها التي تنقصها الالفاظ الدالة على المعنويات بحيث تتغلب عليها الصبغة المادية ٠

وذلك قوله (١) " ومن هنا كانت ثورة الابداعية على الاتجاه الاتباعي ، من حيث تترسم الابداعية الاغراض الاوربية في الشعر ثورة على الاغراض العربية ، ومحاولة للخروج على الروح العربية ـ وكما كانت هذه الثورة قائمة في حدود اللغة العربية ، فانها لم تقدر على استيعاب الاغراض الاوربية كاملة من حيث ارتبطت بعض الاغراض العربية من جهة المعاني بالالفاظ العربية ٠ مثال ذلك ان الالفاظ الدالة على المعنويات في العربية تتغلب عليها الصبغة الحسية ، ومهما كانت اغراض الشاعر الابداعي معنوية فانها تكتسب الصبغة الحسية من مدلولات الالفاظ ٠"

" والحقيقة ان الحركة الابداعية التي قام بها خليل مطران لم تكن في جميع نواحيها تجديدا وخروجا على القديم وثورة عليه ، انما كانت في بعض النواحي ، واكثرها يتصل بالاغراض العامة للشعر دون المبنى ، مثال ذلك قيام حركة مطران الابداعية على اساس ادخال الشعر القصصي والتصويرى للادب العربي فهذين الضربين يخلو منهما في الاصل الشعر العربي القديم ، كما يخلو منهما الشعر الاتباعي الحديث ٠ ولا شك ان ادخال هذين الضربين كان على اساس خطير ٠ هو محاكاة الاشياء في صورها الخارجية محاكاة موضوعية ٠ وهذه كانت نتيجة للاخذ بالخيال الاوروبي ، ولهذا تطور في الشعر الابداعي الحديث ٪ الخيال الشعرى من الهواتف والاصداء التي تسمعها الآذان والصور التي تراها العين ، الى صور واشباح تبرز للمخيلة وتتمثل للذهن مستكملة اسباب وجودها الموضوعي في الخارج عن الشاعر ٠"

---

(١) ادهم ص٠ ٢٦ ـ ٢٧

الملامــــح الرومانتيكيــــة فــي شعر مطــران

قلنا ان خليل مطران يمتاز بشعره الرومانتيكي ، وقلنا ايضا ان رومانتيكية مطران تعود الى تأثره بالثقافة الافرنسية والى شدة حساسيته وتأثره بمجالي الطبيعة واحوال الناس. وكانت جميع هذه المشاهد والمرئيات تمتزج في دخيلة نفسه يلونها الخيال وتراقبها المعاودة.

ويذكر مندور (١) "ان الآراء تشعبت في البحث عن مقومات شعر الخليل فسماه البعض شاعرا ابداعيا اى رومانتيكيا ، وسماه آخرون شاعر العصر ، وذلك فضلا عن القاب التفخيم التي لا تفيد تخصيصا لمذهب او ايضاحا لمنهج مثل شاعر القطرين وما اليها من القاب. ومع ذلك فان الاجماع يكاد ينعقد على ان خليل مطران يعتبر رائدا للمدرسة الجديدة في الشعر العربي المعاصر ، حتى ليكاد يختط طريقا يشبه الطريق الذى اختطه في الشعر العباسي مدرسة البديع وعلى رأسها ابو تمام ، في مواجهة مدرسة عمود الشعر وعلى رأسها البحترى ، وذلك عندما يقارن النقاد بين مدرسة البارودى وشوقي وحافظ وغيرهم ممن ساروا على عمود الشعر العربي ، والمدرسة الحديثة التي تنتسب الى مطران وتمتد في جماعة ابوللو (٢) خلال احمد زكي ابو شادى وابراهيم ناجي ومن سار على دربهم من الشعراء الناشئين في مصر وغيرها من البلاد العربية. وهذه المدرسة تختلف هي الاخرى عن مدرسة شعراء المهجر التي لم تخرج على الشعر العربي التقليدى في موضوعاته وافكاره واحاسيسه فحسب بل وفي قوالبه وصيغته.

ان مطران يصوغ احاسيس وافكار عصره في ديباجة قديمة بمتانة لغتها وسلامة اسلوبها وروعة صياغتها."

وهو يعرف الشعر في رثائه لاسماعيل صبرى (٣)

الشعر تلبية القوا	في والشعور بها مهيب
وبه من الايقاع ضر	ب لا تحاكيه الضروب
هو محض موسيقى وحسا	ت تصورها الضروب
هو نوح ساقية شكت	لا قدر ما يحوى القليب

---

(١) مندور محاضرات عن خليل مطران ص. ١١

(٢) الصواب بلام واحدة

(٣) الديوان ٣ : ١٩

هو ما بكاه القلب لا معيار ما جرت الغروب
هوانة وتسيل من جرائها نفس صبيب

وهذا تعريف رائع للشعر الرومانتيكي :

ورومانتيكية صافية واضحة نتلمسها في بعض قصائده اولاها (بدر وبدر)[1] حيث يقول :

لم انس حين التقينا والروض زاه نضير
اذ العيون نيام والليل راء حسير
نشكو الغرام دعابا ورب شاك شكور
وفي الهواء حنين من الهوى وزفير
وللمياه انين تذوب منه الصخور
وللنسيم حديث على المروج يدور
وللازاهر فكر يرويه عنها العبير

وفي (مشاكاة بيني وبين النجم)[2] يخاطب الشاعر النجم ، سمير العشاق المسهدين ، فيقول :

ارى مثل سهدى في الكوكب احل به مثل ما حل بي ؟
يهيم هيامي من وجده ويهرب من مهده مهربي
ونجتاز هذا الفضاء رحيبا فاما بنا فهو لم يرحب
اذا سرت بحرا اراه به انيسي عن جانب المركب
وان سرت برا يجارى خطاى ففي الشرق آنا وفي المغرب
رفيق السرى فيك جمر يذيب وان سال كالمدمع الصيب
اسر هواك الى صاحب يؤاخيك في حملك المنصب
اما كل ذى كلف متعب شريك لذى الكلف المتعب ؟

وهكذا يجعل الشاعر النجم شريكا له في سهاده وحبه ، ويقوم بتوثيق الروابط بينه وبين النجم الجماد ، فيجعله رفيق السرى ، وصاحبه الكلف المتعب . ثم يجعله مشوقا الى الشمس يطاردها كما يطارد المحب محبوبته :

---

(١) الديوان ج ١ ص: ٢٣
(٢) الديوان ج ١ ص: ٢٩

مشوق الى الشمس طلابهـــا   مجـد علـى شقـة المطلــب

ثم يعـود الشاعـر ويطمئن النجم الى انـه واياه سـواء في الحب والعـذاب :

وبي مثل ما بك من شاغــل   ولي مثـل ما لك من مأرب

فتاة كصوغ الضياء اليهـــا تناهــت مني قلبــي المــوصـــب

من الحـور دان فـوادى بها   ووحدها الحب في مذهــبي

فان كنت يا نجم طالعتهـــا   وقد سفرت لك فـي مرقـــب

فانت اذن في الهوى عاذرى   ولست لِسهـدى بمستغـرب

ففـي هـذه القصيـدة تتجلي رومانتيكيــة مطـــران بكل وضوح فهـوعاشق مسهـد يشكــو سهاده وحبـــه الى النجم الـذى اصابه ما اصابه فاحس معـه ورق لـه . وما الرومانتيكيـــة ســوى التعبيرعن الذات ــ ذات الشاعـر ــ الذى لا يكتفي بوصفـه الاشياء المجردة بل يصفها من خلال مرورها في نفسـه . فالشاعـر الرومانتيكـي يستخدم الظلال والالوان ويترك الخطوط فيوهي بدلا من ان يعرض ملتجئا الى الخيـال الذى ينقـل القارئ الى عالم الايحاء عالم الوهـم والمخيلة ، والخيـال هو الذى يسبغ صفـة الرومانتيكيـة على الاشياء ــ اذ انه ليس هناك شيء رومانتيكي بطبيعته (١)

والخيـال اذ يتيـح للشاعـر ان يعبرعن ذاتـــه فيصـورعواطفـه واحاسيسه ومشاعـــر نفسـه ينقل القـارئ الى ما وراء عالـم الحـس الى حـدود رحبـة من الروى الملونة (٢)

ويعـود الشاعـر في المقطـع الاخـير ويكشـف عن سبب سهـده وشكـواه فاذا هو الحب واذ بهـــا فتاة رائعـة الجمال احبهـا الشاعـر ووحـدها في حبـه ولكن حيـل بينه وبينهـا فيوصي صديقـه النجـم ان يقــوم بـدور رسـول الخـير ويتطوع لِنقل رسائـل الغــرام .

فهــذه القصيـدة الرومانتيكيـــة الاولى التي تطالعــك في ديـوان الخليــل ، وشأن الشاعر الرومانتيكي ، يغني مطـــران حبـه ، ويمزج هــذا الحــب في الطبيعـة وتجيش عاطفـة الشاعـــر ولان العاطفـة متفاوتـة بـين النـاس اجمعـين ، كان الاختـلاف بـين الشعراء والادباء في عرض المشاهـد ذاتهـــا ومن هنا كان خضـوع الشعر للعاطفـة اولا وليس للعقـل ، لان العقل عنصـر

---

(١) **Babbitt I, Rousseau & Romanticism Pagé 260.**

(٢) المرجـع نفسـه ص. ٤١

مشترك بين الناس بحيث لا يختلف عقلان سالمان على حقيقة ما .

ولما كانت العاطفة تتجمع اشد ما تتجمع في الحب ، اخذ الشعراء الرومانتيكيون يقدسونه ، فالله محبة ، والحب هو الذى يربط العوالم بعضها ببعض ، وكل ما في الطبيعة يحب حتى الجماد يحب ، ومن هنا اصطبغت الرومانتيكية بالصبغة الصوفية ، واصبح حب الرومانتيكيين حبا مثاليا غير مدنس بشهوة جسدية عابرة .(1)

ففي (تبرئة)(2) يخاطب حبيبته :

وان الذى عاب منك السفو	ركمن قال للشمس يا سافره
واني اهواك ملء عيو	ني وملء حشاشتي الصابره
وملء الزمان ، وملء المكا	ن ، دنياى اجمع والآخره
فان يستملك الي الهوى	وعين العفاف لنا خافره
اليس الهوى روح هذا الوجو	د كما شاءت الحكمة الفاطرة ؟
فيجتمع الجوهر المستدق	بآخر ، بينهما آصره ؟
ويأتلف الذر وهو خفي	فيمثل في الصور الظاهره ؟
ويحتضن الترب حب البذا	ر فيرجعه جنة زاهرة ؟
وهذى النجوم اليست كدر	طواف على ابحر زاخرة ؟
عقود منثرة بانتظا	م على نفسها ابدا دائره ؟
يقيدها الحب بعضا وكل	الى صنوها صائره .

وهكذا يبعث الشاعر حبه العنيف العفيف الذى يضيق عنه المكان والزمان . والحب هو روح الوجود وهو الذى يؤلف بين دقائق الاشياء ، في الكون ويربط بين المخلوقات والخالق بين التربة والبذرة ، وبين الكواكب ونواميس الكون .

هذه هي رومانتيكية مطران التي تجعله يسمو بالحب من قضية شخصية عاطفية قائمة بين شخصين ، الى الكون الشامل ، الى عالم الطبيعة ، عالم النبات والجماد . واذا بالحب يسمو ويرتفع حتى يشمل الله الذى هو بدوره محبة .

---

(1) Bernbaum, E. Anthology of Romanticism P. xxvii

(2) الديوان ج ١ ص: ٥٣

ويرى حبه في الطبيعة ، يراه في (الحمامتان) [1] حيث يصور حب حمامة لاليفها ، كانت تنوح على فقدها له الى ان اعياها التعب وهو كان بدوره يسعى اليها حتى اذا سمعت صوته اسلمت الروح .

وفي " قلعة بعلبك " [2] ذكرى طفولة الشاعر وذكرى حبه الاول — اعتاد المؤلف للمنتخبات الادبية ان ينتقي من هذه القصيدة في كتب التدريس الابيات التي يصف فيها الهيكل ، اما انا فارى عكس ذلك ، ارى ان الابيات الجميلة ، الرائعة التي تستحق ان تنتخب ، مع الاعتراف بجمال وصف القلعة وروعته ، هي تلك التي تحمل عاطفة الشاعر وتفتح عن براعم طفولته وحبه لهذه الفتاة التي يسميها " هند " ومنها نعلم ان قصة حبه ترجع الى عهد الطفولة ، ومن هنا كانت قوته وحرارته فقد نما هذا الحب وترعرع وقوى واشتد حتى ملك على الشاعر احساساته وعواطفه : —

يقول مخاطبا القلعة بعد غياب طويل متذكرا طفولته ومرحه وحبه :

ذكريني طفولتي واعيدي	رسم عهد عن اعيني متواري
يوم امشي على الطلول السواجي	لا افترار فيهن الا افتراري
نزقا بينهن غرا لعوبا	لاهيا عن تبصر واعتبار
مستقلا عظيمها مستخفا	ما بها من مهابة ووقار
يوم اخلو " بهند " نلهو ونزهو	والهوى بيننا اليف مجاري
كفراش الرياض اذ تتبارى	مرحا ما له من استقرار
نلتقي تارة ونشرد اخرى	كل ترب في مخباء متداري
فاذا البعد طال طرفة عين	حثنا الشوق مؤذنا بالبدار
وعداد اللحاظ نصفو ونشقى	بجوار ، ففرقة ، فجوار
ليس في الدهر محض سعد ولكن	تلد السعد محنة الاكدار
كلما نلتقي اعتنقنا كأننا	جد سفر عادوا من الاسفار
قبلات على عفاف تحاكي	قبلات الانداء والاسحار
واشتباك كضم غصن اخاه	وكلثم النوار للنوار
قلبنا طاهر وليس خليا ،	اطهر الحب في قلوب الصغار

---

(1) الديوان ج ١ ص ٧٣

(2) الديوان ج ١ ص ٩٧

كان ذاك الهوى سلاما وبردا … فاغتدى حين شب جذوة نار
حبذا " هند " ذلك العهد لكن … كل شيء الى الردى والبوار
هد عزمي النوى وقوض جسمي … فدمار يمشي بدار دمار

هكذا يبدو خليل مطران شاعرا رومانتيكيا في معرض وصفه للقلعة ، ليست القلعة عنده مجرد صخر محكم النحت والصنعة ، ليست مجرد اعمدة ، وهياكل ذاهبة في الفضاء ، انما هي مبعث ذكرى حبيبة ، ذكرى طفولة الشاعر ومرحه وحبه البريء الطاهر وعهد هو احلى ما في العمر ، فيشبه لهوه بغراش الرياض وقبلاته البريئة تحاكي قبلات الانداء والاسحار وكضم غصن اخاه ، وكلثم الزهر للزهر. كل هذا الرجوع الى الطبيعة دليل على رومانتيكية الشاعر وعلى حبه العفيف الطاهر. فاذا وجدان الشاعر وعاطفته يستفيقان من بين الخرب والاطلال ، واذا برومانتيكيته تبدو في لون جديد هو لون الألم والكآبة واذا به يصف ما يجول في دخيلة نفسه من الم وحزن ولوعة وحب وكآبة. واذا بالهياكل الخالدة توحي له بالردى والدمار "كل شيء الى الردى والبوار ". وفي هذا الم وفيه مرارة تبلغ اوجها في قوله :

هد عزمي النوى وقوس جسمي … فدمار يمشي بدار دمار

فلو تناول هذا الموضوع — وهو وصف لقلعة بعلبك — الشعراء العرب الذين سبقوا مطران وعاصروه لكانوا اكتفوا بوصف القلعة وصفا تصويريا فوتغرافيا دون ان يتعرضوا لمشاعرهم واحاسيسهم ولنقارن بين وصف مطران للقلعة وسينية البحتري الشهيرة في وصف ايوان كسرى .

لقد اكتفى البحتري بالوصف الدقيق والتصوير الرائع دون ان يدخل عنصر العاطفة والذاتية في هذا الوصف فبقيت القصيدة في موضوعها المحدود ولم تخرج منه الى ارجاء فسيحة لا تحد .

هذا فضل مطران ، وهذا ما تفرد به دون سواه من شعراء الجيل الماضي .
ثم نصل الى قصيدة (المساء)[1] وهي بدون شك رائعة. ففي هذه القصيدة تبدو رومانتيكية مطران اجلى وارقى ما تكون. وهي القصيدة التي نظمها في الاسكندرية وهو عليل .

---

(١) الديوان ج ١ ص. ١٤٤

كتب في نوفمبر سنة ١٩٠٢ مقالا عنوانه "رحلة صيف" نستطيع ان نستدل منه على الظروف التي نظم فيها قصيدة المساء. قال: ذهبت الى الاسكندرية، وفي تقديري ان اقضي ثمة يومين، وفي تقدير الله ان اقضي شهرين. فما هو الا ان خلت ليلة حتى باغتني داء، فضرب واثقل، ثم تمكن فاعضل، ثم اناخ بكلكل. فما صحوت بعد ايام من سكرته، ونجوت من مضطرب غمرته، نهضت ببقية الجسم الباقية كما تلبس الخرقة البالية. قال الطبيب: فعليك بالمكس، حسن هواؤها وجل رواؤها. فقصدت المكس وما ادراك ما هي عليه الآن. وقال نثرا يصف الطبيعة بالمكس: "والبحر شديد الخفوق لا يمل من مداعبة الصخور بمثل خشونة الضوارى في تداعبها، المنظر على الجملة بديع في مطلع الشمس وفي مغربها. وللشمس فيها تجليات باهرة خلال الغمام، وللغمام شكل وتلون فاتنان، وللافق تألق عجيب في ترتيب قدر المنطقة التي يتحزم بها وابرازها في ابدع زينة".

ونستطيع ان نقول ان الاسكندرية، حاضرة مصر الثانية، قد فازت من مطران باحدى روائعه واصدقها دلالة على مذهبه الجديد في الشعر.

وفي هذه القصيدة يقول واصفا داءه:

داء الم فخلت فيه شفائي	من صبوتي، فتضاعفت برحائي
يا للضعيفين! استبدا بي وما	في الظلم مثل تحكم الضعفاء
قلب اذابته الصبابة والجوى	وغلالة رثت من الادواء
والروح بينهما نسيم تنهد	في حالي التصويب والصعداء
والعقل كالمصباح يغشى نوره	كدرى ويضعفه نضوب دمائي

فانظر كيف يبعث الداء عاطفة الشاعر ويفجرها اروع تفجير. ولكن المعاودة التي فطر عليها الشاعر ما تلبث ان تسلط العقل على هذه العاطفة فيكبح جماحها ذلك لان الشاعر لا يترك لعاطفته وخياله العنان فهو لا يريد ان يغرق القارئ بألمه ويأسه، فيلتفت الى حبيبته التي كانت قد فارقته الى الأبد والتي لم يعد له منها غير ذكرى ممضة تشترك مع دائه للقضاء عليه:

فالشاعر الرومانتيكي اذا احب قدس محبوبته. واذا اخفق في حبه هذا لجأ الى ذكرياته يستوحيها ويعيش على ما ترشحه عليه من سعادة، ممزوجة بالم. وهو يحب، مع

حبه لحبيبته ، الخير والحق والجمال .[١]

فقد احب الشاعر الرومانتيكي الجمال وجعله غاية ، وكلف بالمثالية مما يجعله يسعى الى الاصلاح وطلب الحرية والبساطة والسلام في الحياة[٢] وفي حين وجد الشاعر الرومانتيكي الشر في العالم والفساد في المجتمع نقم على هذا العالم وثار على هذا المجتمع فعاش في يأس وألم وحزن هو ما نعبر عنه بالملنكوليا . (Mélancolie) التي كانت محببة الى قلوب الرومانتيكيين اذ ان في الالم ما يجعل المرء يرى نفسه في ترفع عن باقي الناس . وقد تغنى روسو كثيرا في الالم[٣] وكذلك موسيه الذى تأثر به مطران والذى يقول "الرجل متدرب والالم سيده".[٤]

والقائل ايضا : "لا شيء يجعلنا كبارا كمثل الالم الكبير".[٥]
او كما يعبر شيللي "Shelley" بقوله : "اجمل اغانينا تلك هي التي تخبر عن اشد الافكار حزنا ".[٦]

فيقول مطران :

هذا الذى ابقيته يا منيتي	من اضلعي وحشاشتي وذكائي
عمرين فيك اضعت لو انصفتني	لم يجدرا بتأسفي وبكائي
عمر الفتى الفاني وعمر مخلد	ببيانه لولاك في الاحياء
فغدوت لم انعم كذى جهل ولم	اغنم لذى عقل ضمان بقاء

---

(١) ببيت ما روسو والرومنتيكية ص. ٢٣٦

(٢) Bernbaum, E. Anthology of Romanticism P. xxvii

(٣) ببيت ، ا روسو والرومانتيكية ص. ٣٠٧ — ٣٠٨

(٤) Musset, A. de: Poesies Page 210 - 211
"L'homme est un apprenti, la douleur est son Maitre".

(٥) المصدر نفسه
"Rien ne nous rend si grands qu'une grande douleur".

(٦) Shelley P.B. "To A Shylark" Complete Poetical works Page 382."
"Our Sweetest Songs are those that tell of Saddest thought".

ثم يقـول ان الحب احب شـقاء :

حاشاك بل كتب الشقاء على الـورى والحبّ لـم يرح احـب شـقاء

ومـا يلبث الشاعـر ان يصـور الـمه وحبـه حتى يدخـل عنصـر الطبيعـة ، كعبة الرومانتيكيين ومحجتهـم .

وهذا الرجوع الى الطبيعـة كان نتيجـة امرين رئيسيين ، اولا : دعـوة روسو الى العـودة الى الطبيعـة . وثانيا : الاخـذ بفكرة الحـلول في الوجـود - حلول اللـه في الطبيعـة - التي جـاء بها سبينـوزا .(١)

ففـي اللجـوء الى الطبيعـة سـلام وطمأنينـة وبساطـة وهـرب من المجتمع الفاسـد ، والطبيعـة مجـال رحب للخيال والتأمـل .

فيـقول مطـران :

متفـرد بصبابتي ، متفـرد	بكآبتـي ، متفـرد بعنائـي
شاك الى البحر اضطراب خواطرى	فيجيبني برياحـه الهوجـاء
ثاو على صخر اصم وليت لـي	قلب كهـذى الصخرة الصماء
ينتابها مـوج كموج مكارهـي	ويفتهـا كالسقم في اعضائـي
والبحـر حفاق الجوانب ضائـق	كمدا كصـد رى ساعـة الامساء

فيشارك البحـر والصخر ومغيـب الشمس ، واذا بـه يحـل في الطبيعـة ويجعلهـا حالة فيـه تشاركـه الـمه وشقاءه ويقوم خيـال الشاعـر الذى يحـد ه العقل الواعـي بجمع شتات الصـور حتى لتبد و الطبيعـة كانهـا قطعـة من نفس الشاعـر او الشاعـر جزء من اجـزاء الطبيعـة .

ويبـد و للباحث ان نظـرة مطـران الى الطبيعـة نظرة جد يد ة بمفهـوم حد يث ، فان الشعـر العربـي مليء بوصـف الطبيعـة . غيـر ان مطـران لا ينظر الى الطبيعـة نظرة فوتغرافيـة عابـرة يصـف فيها الاشياء وصفا حسيا بحيث تبقـى بعيد ة عن نفسه ، وانما ينظـر اليها من خلال نفسه وينظر الى كائناتهـا وكأنهـا كائنات حية فيجسد ها ويجعـل لها عقلا وقلبا وروحا ووراء كل ذلك اعتنـق مطـران فلسفـة تربط بـين عوالم الطبيعـة وبينه هي الحـب . فالحب يجمع بـين الطيـور والازهـار وادق ما في الطبيعـة وبين الكواكب والافلاك الواسعـة

---

(١) عـوض ، لويس مقد مـة " برومتيوس طليقا " لشلي ص ٤٢

ونواميسها وهو الذى يربط بين هذه الاشياء كلها ، صغيرها وكبيرها ، وبين الله في نطاق وحدة الوجود ، ونظرة مطران هذه نظرة رومانتيكية شرقية ممزوجة بالصوفية وروحانية الشرق .

وعن المساء يقول مندور [1]

" هذه قصيدة وجدانية قوية ، ولكن وجدانية مطران تغاير ما ألفه الشاعر العربي في وجدانياته ، وذلك لانها مركبة . لا تصدر عن عاطفة موحدة تنبثق من القلب مباشرة ، بل تمتزج بالخيال الشعرى ، ويسيطر الفكر على صياغتها .

والواقع ان طبيعة مطران الشعرية تستند الى الخيال اكثر من استنادها الى الاحساس المباشر ، فالخيال هو الذى يثير عاطفته في قصائده القصصية ، حيث نراه يتصور المواقف والاحداث الشخصية ثم ينفعل بما يتصور ولكنه لا يترك لخياله ولا لعاطفته العنان مطلقا بل يخضعهما لعقله وتفكيره ، ويظهر هذا المجهود الارادى في الصياغة .

ففي هذه القصيدة نرى الشاعر مريضا منفردا بكآبته منفردا بعنائه ، منفردا بصبابته . على ان المرض لم يغير شيئا من طبيعته ولم يذهب بشيء من خصائص شاعريته المركبة ، فخياله حي يدرك الطبيعة الخارجية ، بل نستطيع ان نقول ان الشاعر يمتزج بهذه الطبيعة بفضل ذلك الخيال ، حتى يرى نفسه في مرآة تلك الطبيعة ، فكأنه يكون معها اصلا وصورة ، بحيث يمكن القول باننا نستشف في هذه القصيدة ما يصح ان نسميه ب " الحلول الشعرى " "Pantheisme poetique" فالشاعر حال في الطبيعة او الطبيعة حالة فيه . فرياح البحر الهوجاء صدى لاضطراب خواطره ، والصخرة الصماء ينتابها موج كموج مكارهه ، والبحر خفاق الجوانب ضائق كمدا كصدر الشاعر ساعة الامساء ، وكدرة البرية صاعدة الى عينيه في الاحشاء ، والافق معتكر قريح الجفن .. وهو يرى خواطره بعينه كدامية السحاب ، والدمع يسيل من جفنه مشعشعا بسنى الشعاع الغارب ، والشمس في انحدارها الاخير بين السحاب كانها آخر دمعة للكون تمتزج بدموع الشاعر لترثيه . ومن كل هذا تتكون المرآة التي يرى فيها الشاعر نفسه ، او تحل الطبيعة في الشاعر كما يحل فيها . وهذه خاصية تتميز

---

(١) مندور — الدكتور محمد محاضرات عن خليل مطران ص: ١٧

بهـا وجدانية مطـران المركبة التي تمتزج بالطبيعـة وتبادلها المعـاني والاحاسيس، وكأن الطبيعـة عنـده كائن حي يتمتع بكافـة خصائص البشر من خوالج واحاسيـس."

فقـد تمكن مطـران كما يـرى ادهم[1] عن طريـق خيالـه غير المحـدود والمتنوع من ان يجعـل الشعـر العربـي يحمل صـورا وضروبا من الشعـر لم تكـن العربيـة تحتويها من قبـل. الى ان يقـول : لا شك ان الاغـراض الشعـريـة بلغـت الغايـة في يد الابداعيين من جهـة تسلسل المشاعـر واطراد الخواطر واتساق الخيـال ، حتى ان مطـران انتهى الى روائـع من الشعر آيـة في الاعجـاز في السنين الاول من قيامـه بحركـة التجديـد ."

وفـي (العالم الصغـير مرآة العالـم الكبـير ، فنجـان قهـوة) [2] يجعـل مطـران مـن فنجـان القهوة فلكا كفلك السماء وعالما كعالـم الارض والنجـوم :

" ليلى " اجيلي الطرف فيه تنظـرى	سر الكيان وآيـة الازمـان
تجـدى سماوات وسحـن عوالمـا	فتانـة الابداع والاتقان
منثورة الافـراد اومنظومـة "	جمعـا بما لا تدرك العينان
سيـارة بين الجهات حوائـرا	مرتادة في البحث كل مكـان
كل يصـير الى حبيب مرتجـى	حتى يُدانيـه فيلتصقـان
فيذوب كل منهمـا في صنـوه	وكذاك يحيا بالهـوى الصنوان
جسمان يغتديان جسمـا واحـدا	كتوحـد الحبيين يقترنـان
روحان تمتزجان حتى تصبحـا	شبـه الصبا والطيب يمتزجان

ففـي هذه الابيات ايضا تبدو رومانتيكية مطـران الـذى يجعـل الحب الرباط الذى يشد العوالم ويجمعهـا ويجعـل الطبيعـة تشاركه حبه وتبلـغ الرومانتيكيـة عنده حد الصوفيـة فيذوب الحبيـب بمحبوبـه ولا شك في ان مطـران قـد اضاف الى الرومانتيكيـة لونا جديـدا من صوفيـة الشرق . هـذا الذوبان والتلاشـي في ذات المحبوب كمثل الذوبان والتلاشي في ذات اللـه وهوما نعبر عنـه بالشطحـة الصوفيـة عند المتصوفـة .

---

(١) ادهـم ص: ٢٧

(٢) الديـوان ١ : ١٥٥

وكان مطران لشدة حساسيته وحبه لمشاركة الغير فيما يصيبهم من مصائب والم يتغنى بآلامهم ويشاركهم في شقائهم واذا به يتناول الحادثة البسيطة ويجعل منها موضوعا رومانتيكيا رائعا . كما يفعل ب (في تشييع جنازة)[1] حيث يخرج من منزله فتطالعه جنازة فيسأل عن الميت فيقال له انه شاب انتحر ، فيشارك في تشييعه ويأخذ في رثائه رثاء لا تفرضه المعرفة ولا الصداقة ولا المنفعة ولا الرياء بل يفرضه الشعور بالاخوة الانسانية وحب المشاركة بالمصاب :

وكذلك يفعل في (الجنين الشهيد)[2] التي يصف فيها مأساة فتاة مسكينة اسمها (ليلى) جاءت القاهرة واخذت تشتغل في الحانات لتعيل ابويها ثم يأتي شاب فيغرر بها ويتركها حاملا وتنتهي القصة (ولن اتوسع هنا في شرح هذه القصيدة ، بل اتركها للحديث على قصص مطران) وهي تريد ان تقتل طفلها هذا فلماذا يعيش وليس له اب ايعيش للفقر والعذاب والذل والهوان :

فيا ولدى المسكين فلذة مهجتي ... ويا نعمة عوقبت فيها بنقمة
ومن كنت ارجوه لسعدى وبهجتي ... وكان يناجيه ضميرى بمنيتي
وآمل ان يحيا ويرجع لي بعلي

تموت ولما تستهل مبشرا ... تموت ولم انظر محياك مسفرا
تفارق قبرا فيه عذبت اشهرا ... الى جدث منه ابر واطهرا
وتحيا صغار الطير دونك والنحل

تموت وما سلمت حتى تودعا ... وامك تسقيك السموم لتصرعا
وتنفيك من جوف به كنت مودعا ... لتخلص من عيش ثقيل بما وعى
من الحزن والآلام والفقر والذل

فان تلق وجه الله في عالم السنى ... فقل ربي اغفر ذنب امي محسنا
فما اقترفت شيئا ولكن ابي جنى ... علينا فعاقبه بتعذيبه لنا
وامطره نارا تبتليه ولا تبلي

كفرت بحبي في اشتداد تغضبي ... فعفوك يا ابني ما ابوك بمذنب
فقل : رب امي اهلكتني لا ابي ... وامي زنت حتى جنت ما جنته بي
فزدها شقاء واجزها القتل بالقتل

---

(١) الديوان ١ : ص ٢٠
(٢) الديوان ١ : ص ٢٢٣

وهكذا يستفيق ضمير المرأة وتأبى رومانتيكية مطران الشرقية الممزوجة بالصوفية الا ان ينتصر الضمير الانساني عند (ليلى) فتقر بانها شريكة في الجريمة ·

ولنقف الآن عند " حكاية عاشقين "(1) وهي القصيدة التي يقال انها تمثل قصة حب الشاعر · فلا شك في ان الخليل قد عرف الحب كما عرفه اكثر الناس ولكنه عرفه اعمق واعنف من معرفة الناس العاديين له · غير ان مطران الكتوم ابى ان يفصح عن هذا الحب فراح يلف ويدور ، يلمّح ولا يصرّح ، فاذا محبوبته " ليلى " واذا بها " سلمى " او " هند " او " سعاد " او غير ذلك من الاسماء التي يستعملها الشعراء كناية دون ان تدل على شخص معين ·

وفي قصيدته (هوانت) (2) يقول :

يا منى القلب ونور العين مذ كنت وكنت
لم اشأ ان يعلم النا س بما صنت وصنت
ولما حاذرت من فطنتهم فينا فطنت
ان " ليلاى " و " هندى " و " سعادى " من ظننت
تكثر الاسماء لكن المسمى هو انت

وحب الخليل هذا حب عذري عفيف شأن الحب الرومانتيكي · وكان ان ماتت هذه الفتاة ، التي احبها الشاعر بمرض السل وكان قد حيل بينه وبينها قبل ان تنتقل الى دنيا الآخرة لانها كانت من عائلة ارفع من عائلته ولكن الشاعر ظل امينا على حبه محافظا على ذكراها حتى نذر حياته للعزوبية وابى ان يتزوج بعد فقد تلك الحبيبة ·

ويعترف الشاعر بانه كتم حبه حيث يقول :

كتمت هواك دهرا لا لخوف ... وما انا من يروعه الحمام
ولكني حرصت عليك منهم ... ولو اودى بمهجتي الغرام
وكم عاتبت فيه النفس لوما ... فان عوتبت راعني الملام
كجرح قد الطفه بلمسي ... وان هو مسه غيري اضام
ظللت عليه اخفيه واشقى ... الى ان بات وهو بنا سقام

---

(1) الديوان ١: ص· ١٨٤
(2) " ٢: ص· ٣٢٦

ثم يتحدث عن الحب وعبقريته فيقول :

من لم يحب فما الصفاء له ... صفو وما كدر به كدر
ينجاب عن وجه الحياة كما ... تنجاب عن مرآتها الصور

ومثل ذلك قوله :

والحب الزم للارواح ما عظمت ... وقد يكون لها ادعى الى العظم

ويعرف الحب بقوله :

الحب في المعنى العميم الكامل ... معنى المراحم والفداء الشامل

ثم يصف حالته النفسيه بعد موت حبيبته :

ابيت طوال الليل والداء مسهدى ... اعنف نفسي وهي لم تقترف جرما
على ذكر عهد كان لي منك موعد ... بتجديده لو لم تحل دونه الحمى

ثم ينفجر بعد ان تؤلمه الذكرى كما ينفجر النبع :

احبك حتى لا سرور ولا منى ... ولا شمس الا ان اراك ولا نجما
احبك حتى ينكر الحب رسله ... جميلا وقيسا والاولى استشهدوا قدما
ولو لم تكن في الموت سلوى اخافها ... لاحببت حتى الموت فيك ولو ذما

هذا حب جارف وشعر رائع يتكشف عن نفس مكتوية بنار الحب ، فالخليل يعبر عن خلجات فوأده ويعصر نفسه التي مزعتها لوعة الاسى ويقفز في هذا البيت الاخير القفزة الرائعة حيث يقول لولا خوفه من ان الموت يسلبه حبيبته لكان احبه واقبل عليه .

وتبدو رومانتيكية مطران في تفاعله مع الطبيعة ، مع الزهر والسحب ، والغصن والطير :

من علم الزهر ان يفتر لي كذبا ... وباكي السحب ان يندى وما صدقا ؟
ونائح الطير ايلامي بمنطقه ... كأنه شاح حالي بما نطق ؟
ومائس الغصن اغرائي بعطفته ... فان دنوت تسامى نافرا فرقا ؟

وفي مناجاته لحبيبته :

فيا منية للقلب كنت بقربها — ارى كل عسر في الزمان يسارا
ويا جنة النعمى لشاد تشوقه — على الدهر ما شاق الربيع هزارا
بروحي افدى وردة قد حفظتها — لذكراك اسقيها الدموع حرارا
اقبلها في كل يوم تشوقا — لمن نسجتها للغرام شعارا
واحيي بها آثار حبك شاكيا — واسمع نجواها دجى ونهارا

ومطران موحد في الحب لا يشرك فيه احد وفي هذا دلالة على اخلاصه في حبه :

اقسمت ما اشركت فيك ولم يكن — لي في الهوى دين سوى التوحيد

ويأتي صديق له من رفاق صباه ويخبره ان حبيبته الغائبة مصابة بمرض عضال فيهيج ويضطرب ويود لو ركب اليها وامض البرق فينصحه خليله بالتعقل وعدم الذهاب اليها لانها اذا رأته سوف تسوء حالتها ولكي لا يعرض نفسه للداء الاثيم.

غير ان الشاعر يقرر ان يذهب اليها حتى ولو اصيب بعدوى المرض :

لئن كان موت في مقبّل ثغرها — سأرشفه شهيا مطيبا
خلقنا لكي نحيى ونقضي في الهوى — اليفين يأبى الحب ان نتشعبا
فان ساءنا دهر اثيم بفرقة — فزعنا الى قبر رحيم فقرّبا
واحبب بهذا الوصل بعد انفصالنا — ويا موت انت المستغاث فمرحبا !

وتموت هذه الحبيبة ولم يشفع لها دعاء الشاعر ولا صلاة الحبيب ، ويبقى للشاعر الألم والذكرى فيقول :

كنا وكان الحب ينصبنا — ملكين تاج السعد يعصبنا
لا شيء يحزننا ويغضبنا — والدهر يخدمنا ويرهبنا

وسريرنا عال على السحب

وتخطر له حبيبته الراحلة وقد سمع قينة تتغنى وتضرب العود فيقول :

ان لي قلبا خفوقا — واهن العزم كسيرا
يشبه الطائر منها — ض الجناحين اسيرا

ان لي في الغيب الفا قد نأى عني نفورا
حجبت منه الليالي عني الصبح المنيرا
منية قد اصبحت في خاطر الدهر ضميرا
فارق الدنيا وابقاني جزوعا مستطيرا
ابتغي السعي اليه حيثما بات قريرا

— — —

فاذا ادركته اطفأت من وجدى السعيرا
واتحدنا فاغتدينا مزج روحين سرورا
وتألقنا على الدهر نسيما وعبيرا
او شعاعا ان تبينت فنور ضم نورا :

— — —

ان لي قلباً خفوقاً واهن العزم كسيرا
يشبه الطائر منهاض الجناحين اسيرا
ايها القينة يهنيك الصبى غضا نضيرا
واسلمي دهرا طويلا واغنمي صوتا مثيرا
يستحر منه جناحين فوادى ليطيرا
ويشب حتى يفوق ال انجم العليا كثيرا
ويخل الشهب فيما دونه ذرا نثيرا

ويعثر الشاعر في صوانه على منديل ابلاه الزمن ولم يسلم منه سوى الموضع الذى طرز عليه حرفان من اسمها . فأثار ، ذلك الباقي من المنديل اشجانه فانطلق يبكي :

اعد ايها المنديل ذكرا محببا وانطق بـه الطيب الذى فيك مطربا
واطنب بما تحكيه عنها فانه اذا ساء اطناب حبيبتك مطنبا
فذلك ذكر الحب انت تعيده بل الخمر اشهى ما يكون واعذبا
وما بك من نشر ففي القلب مثله طواه الهوى قدما وما زال طيبا

وهكـــذا يستطيـع الشاعـر المبـدع ان يجعـل من شيء تافـه مثل "المنديـل" موضوعا رومانتيكيا رائعـا ، وقد ذكرت سابقا انه ليس هناك شيء رومانتيكي بطبيعتـه وانما يصبح الشيء رومانتيكيا عندما يضفي عليـه الشاعـر المبدع خياله وعاطفتـه فيلونـه من خلال نفسـه وينقـل قارئه الى اجـوائه وعوالمه. وهكذا فعل مطـران بهذا الذى بقي من المنديـل.

ويختتم قصيـدته هذه بقـوله :

وما زال هذا الحب فيّ مؤيـدا	مكينا نبت عنـه السنون وما نبـا
وما زلت يا منديـل "ليلى" ملازمي	تشقني الذكرى نسيما مطيبـا
اصابك ناب قارض من فم البـلى	الى موضع منـه اسمها فتجنبـا
وغـال فوادى البين الا بقيـة	قضى الحب ان احيا بها فاعذبـا.

يـرى بعض النقـاد ان مطـران متكلف في غزله شأن من سبقـه من شعـراء او من عاصـروه امثال شوقي وحافظ ، وانه يتغـزل وينسب ويستهـل قصائـده بمقدمات الغـزل دون ان يعرف الحـب او يعـرف المرأة.

ولكني ارى ان الكلام على غـزل مطـران مثل الكلام على غـزل شوقي والقليـل الذى عند حافظ منـه تجن وبهتـان اذ انه يتضح مما عرضت من شعـر مطـران ان عاطفـة الشاعر وحبه ليسا طلاء وتزييفا كما في غـزل شوقـي :

مـال واحتجـب	وادعـى الغضـب
ليت هـاجـرى	يشـرح السـبب

ويقـول ابو شادى[1] "عاطفـة الحب التي الهبت فواد مطـران في صباه ثم القته في لجـة الحـزن العميق بقيـة حياتـه ، هي دعامـة الزاوية في بنيان شعره الوجداني."

وهـو الـذى يخاطب قلبـه :

يبغي الشفاء من الولـوع	ولا شفاء مـع الولـوع
الف الصبابـة فهـي ام	مرضـع وهـو الرضيـع
والطفـل يشقى بالفطـام	فكيف يقبـله مطيـع

---

(١) ابو شادى الاديب م ١٢ عـدد ١٠ (١٩٥٣) ص: ٣-٤

ويأتي الربيع فيذكره فيها ويبكي ويقول :

يا للربيع وزهره	شوك وانهره دموع
يا للشباب ولا سرو	ر ولا غزاء ولا هجوع
من كان مفقود الحبيب فلا	شباب ولا ربيع

فانظر الى هذه الكآبة تمسح قلب الشاعر الشاب ، والشباب ربيع العمر ، والربيع شباب الدهر ، وانظر الى هذا الحب الذى يتجدد مع كل ربيع.

هذا هو مطران الحساس الرقيق الحواشي الذى صور نفسه بقوله:

والذى درعه فواد رقيق	فجريح ان يقتحم او يقاحم

وصور قلبه فقال :

وقلبي مسموع الخفوق معلق	بمنهدم الاركان اجوف معتل

فحب مطران حب صادق عفيق وهو القائل :

وكم عرضت لي الغانيات ، فعفتها	وصنت ضميرى ، واللسان المشببا

لم يتزوج فينحصر حبه لزوجته واولاده بل احب الناس اجمعين ، احب الانسانية ففرح لفرح الناس وبكى لبكائهم . وبلغ الحب عنده ارفع درجات الرومانتيكية اذ جعله الرباط المقدس بين الافلاك والعوالم وجعله روح الطبيعة وبهجتها فالحب بين الطيور ، والفراشات والازاهر. ذلك يعود الى وجدان الشاعر وعاطفته الملتهبة وخياله السامي وحساسيته ورقة حاشيته. فالحب عنده سر الوجود وظل الله على الارض.

وهو موحد في حبه لا يشرك فيه احدا . وهذا يدل على اخلاق الشاعر الكريمة الذى حافظ على حبه لحبيبته التي ماتت ولم يتنكر لها وعاش حياته اعزبا ، يذكرها كل عام ويرسل لها قصيدة يسأل عنها الفراشات والازاهر والطيور.

ولا شك في ان مطران كان معجبا بالشاعر الفرنسي الكبير الفرد دموسيه " Alfred de Musset " فقد قرأه وتأثره وترجم له " الليالي " "Les Nuits" ولا شك في ان مطران قد تأثر بحب موسيه ورومانتيكيته وهو القائل فيه :

منشد للغرام لم يشد الا	كان انشاده نواحا شجيا
شاعر كان عمره بيت تشبيب	وكان الانين فيه الرويا
ان في نظمه لحسا لطيفا	باقيا منه في السطور خفيا

هي ابيات كتبها مطران على الصفحة الاولى من ديوان موسيه تعبر احسن تعبير عن شعر الشاعر الفرنسي الكبير وكذلك تنطبق على وصف مطران نفسه فكأنه قد وصف حاله لما وصف حال موسيه ،

ويقول ادهم [1] "ومما لا شك فيه ان الخليل وجد من طبيعته الشاعرية ومن العوامل التي اكتنفته ـ واهمها حبه ـ ما ازجى به الى عالم الشعر. ومما لا ريب فيه ان حب الخليل جعل نفسيته تتفتح واوتار قلبه تهتز امام مشاهد الحياة ومجاليها . وهذا يظهر من مقارنة شعره ، الذى نظمه في الفترة التي جاءت قبل عام ١٨٩٧ والتي سبقت تاريخ حبه ، بالشعر الذى قاله ايام حبه (١٨٩٧ ـ ١٩٠٣) او في الفترة التي جاءت بعد ذلك. بيان هذا ان حب الرجل جعله متفتح النفس يحس بادق النبرات ويشعر بأرق الخلجات مما جعل له ـ بحكم طبيعته المعاودة من نفسه ـ مقدرة على تصوير خلجات النفس ولوامعها وبدراتها ، الشيء الذى لم يظهر الخليل من قبل حبه براعة فيه ".

و (الاسد الباكي) [2] التي قالها وهو معتكف في "عين شمس" حوالي سنة ١٩١٢ وقد انتابه حزن شديد على اثر مضاربة قام بها فخسر ثروته ، هي احدى روائعه .

وقد عرفت هذه القصيدة "بساعة يأس " لان الشاعر كان قد ضاق بالحياة وضاق بالناس وعزم على الانتحار لو لم يتداركه اصدقاؤه الكثر ويخففوا عنه :

ومطلع هذه القصيدة جميل رائع :

دعوتك استشفي اليك فوافني	على غير علم منك انك لي آسي

والشاعر ،وهو كتلة من احساس وعاطفة ، يشارك الناس افراحهم واحزانهم ويأبى ان يشاركوه المه ويأسه فينزوى عنهم ويبكي نفسه لنفسه ، متكلفا السرور والمرح مخفيا المه وحزنه بإباء ما بعده اباء وشهامة ما بعدها شهامة .

---

(١) ادهم ص: ٧٥ (٢) الديوان ٢: ص: ١٧

هناك ابيح الشجو نفسا منيعة — على الضيم مهما يفلل الضيم من باسي
يمر بي الاخوان في خطراتهم — اولئك عوادى وليسوا بجلاسي
اهش اليهم ما اهش تلطفا — وفي النفس ما فيها من الحزن والياس

وتتكشف رومانتيكية الشاعر في نهاية القصيدة كما ابتدأت في مطلعها :

انا الالم الساجي لبعد مزافرى — انا الامل الداجي ولم يخب نبراسي
انا الاسد الباكي ، انا جبل الاسى — انا الرمس يمشي داميا فوق ارماسي
فيا منتهى حبي الى منتهى المنى — ونعمة فكرى فوق شقوة احساسي
دعوتك استشفي اليك فوافني — على غير علم منك انك لي آسي

وينتهي الشاعر بهذا الهمس الجريح يخاطب به حبيبه المجهول البعيد فهو شفاؤه ودواؤه اليه يضرع ان يبرئه من المه — على غير علم منه ٠

والشعر الراقي كما قيل ما هو الا نقل التجربة نقلا حيا للاذهان ، وهكذا يفعل مطران " الذى ينقل القارىء الى جوه وبذلك هو الشاعر الحق على حد تعبير دونالد آدمز[1]

ففي مثل هذا الشعر الرائع يقف مطران وجبهته تنطح السماء ٠ يكفيه ان يكون له قصائد ست مثل هذه القصيدة الرائعة لكي يطاول الاعمدة الستة في بعلبك ويشمخ عليها ويخلد :

وقد يوفق مطران في ساعات التجلي فيسعفه الخيال والعاطفة ويأخذ عقل الشاعر مكانه من العربة وتأتي الصياغة الفنية وقد قصت على قد فلا زيادة ولا نقصان كلام منسجم منسق وابيات مترابطة متآلفة تشكل وحدة القصيدة او الوحدة الشعرية — وهي الرباط الذى يضم التجربة ، والصور ، والانفعالات ، والموسيقى ، والالفاظ في وشاح اثيرى — وبهذه الوحدة يتكامل القصيد وتدب فيه الحياة ٠ فهل اروع من هذا القول وابلغ : (انا الاسد الباكي ، انا جبل الاسى) (فيا منتهى حبي الى منتهى المنى ،)
(دعوتك استشفي اليك فوافني — على غير علم منك انك لي آسي ٠)

---

(1) Adams, Donald: The writer's Responsibility, 1946

فمطـــران كما يقـــول منـــدور [١] يحتفـل بالصياغـة ولكـن هذا الاحتفال يختلف اختلافا بينـا عن احتفال مدرسـة ابي تمام بها المسماة بمدرسـة البديـع ، وعلى هـذا الاسـاس لا يمكـن ان يوصـف شعر الخليـل على انه شعـر مصنوع ، على نحو ما يوصـف شعـر البديـع ، فالصنعـة فيـه محكمـة الى حد الخفـاء ، حتى ليصح القـول بانهـا من صميم الخلق الشعـرى .

وعناصـر الرومانتيكيـة قائمـة في هـذه القصيدة ، وفيها حتى الهـرب من المجتمع الفاسـد والانفراد واللجوء الى الطبيعـة وذلك حيث يقـول :

الى "عـين شمس" قد لجأت وحاجتـي	طلاقـة جو لم يدنس بارجاس
اسرى همومي بانفرادى آمنـــــا	مكايد واش او نمائم دســاس

وحبـه لفتاتـه الذى لا ينساه يذكيـه الالم ويبعثه الحـزن ينساب خيطا دقيقـا خلال القصيدة كأنه الطيـف :

فلا لله لولا ذلك الطيف والهـوى	له مسعد لم يملك الدهر اتعاسي

ومن (غريـب الى عصفورة مغتربة) [٢] وقد نظمهـا الشاعـر في جنيف بقـرب تمثال جان جاك روسو ، زعيـم الرومانتيكيـين الاكبر ، وقـد رأى على شجرة طائـرا يشبه ان يكون مصريا . هي خطرة فكـر للناظـم الف ان يرسل مثلها في موعـد من كل عـام تحيـة الى فقيد عزيز في عالم الغيب . وقد جعـل مدارها في هذه القصيـدة على عصفورة اشتبهت عليـه ان تكـون مجلوبـة من مصر للاتجار او قاطعـة من قواطـع الاطيـار .

يستهـل الشاعـر هذه القصيـدة استهلالا رومانتيكيـا رائعا :

يا من شكـت المي معـــي	طيبتـه في مسمعـــي
شكواك الطـف بلســـم	لجراحـــة المتوجـــع
ما اعلق الشدو الـرخيـم	بكل قلب مـولـــع
غني اهازيج النـــوى	وعلى نواحـــي اوقعـي

وبعد ان يذكر مصـر ويمتدحها ويصف السرب وكيـف يتجمع وكيف يسـير اجمل وصف واروعـه ، ويحمد عصفورته المرحة الطليقـة يطلب منها ان تعـود الى مصـر وتزور قبر حبيبته وتبلغها سلامه وتذكـر

---

(١) منـدور ، خليـل مطـران ص: ١٥

(٢) الديـوان ٢ ص: ٢١

لها بانه لا يزال على عهده من الحب والهوى :

سيرى وولي صدرك ال	مشتاق شطر المربع
حتى اذا ما جئته	وشرعت اعذب مشرع
وشدوت ما شاء السرو	ر على ارتقاص الافرع
عوجي ببستان هنا	لك في العراء مضيع
صفصافه متناوح	والنور بادى المدمع
لي في ثراه دفينة	كالكنز في المستودع
تخفي الازاهر قبرها	عن اعين المستطلع
كانت مثالا للمحا	سن في مثال اروع
فتحولت لطفا الى	طيف ارق وابدع
طيف يشف به البلى	عن رفعة وتمنع
قولي له ان جئته	يا انس هذا البلقع
اتحس في هذا الثرى	نبضات قلب موجع ؟
هذا حنين من فوا	د محبك المتفجع
عدت العوادى جسمه	عن قرب هذا المضجع
فمضى باحزن ما يكو	ن اخو الاسى وباجزع
ونوى الضريح اضره	كنواك يوم المصرع

نعم الشفيعة انت لي	عند الملائك ، فاشفعي :

فلا شك في ان هذه القصيدة من القصائد الرومانتيكية الرائعة يشحنها الشاعر بالحنين الى تلك الحبيبة التي لم تفارقه ذكراها . وفي مطلع القصيدة الرائع يجعل الشاعر العصفورة تشاركه المه ، ففي شدوها الحزين الم يستطيبه الشاعر ، الوحيد ، الغريب ، فهو لم يكتف بان يتلذذ بالالم من حيث ان يشعر به ويحسه بل ويجعل حاسة السمع (طيّبته في مسمعي) تشارك ايضا حاسة الشعور فتشترك حواسه بهذه اللذة التي يبعثها الالم .

وكان الشاعر قد اعتاض عن فقدها بضريحها يزوره ويسقيه دموعه ويبثه اشجانه فحرم حتى من قرب هذا الضريح فزاد المه الما :

ونوى الضريح اضمره	كنواك يوم المصرع

وهكذا فان صاحبته - التي كانت قد ماتت - كما يقول ادهم [١] بما كانت قد تركته في نفسه من ذكريات كانت تحضر في ذهنه كل عام فيتحرك في صدره الشجن فينظم فيها مرثاة جديدة ، وهكذا ظل مطران يرثيها مدة عشرين سنة .

ومن قصائد الذكرى هذه ، قصيدة بعنوان (وردة ماتت) [٢] يشبه فيها الشاعر حبيبته الميتة بالوردة التي تموت في عنفوان العمر فترحب بها الارض وتفتح لها صدرها ويذبل الريحان حرقة عليها وتغمض عيون النرجس ، والفراشات - شبهات الطير - حائرة تنوح على قبر هذه الوردة التي تنام بين الازاهر والورود . وقد اخذ الشاعر يسأل هذه الفراشات :

ما الذى تبغين من جوبك يا	شبهات الطير ؟ قالت وابانت :
"نحن - آمال الصبى - كانت لنا	ههنا محبوبة عاشت وعانت
كانت الوردة في جنتنا	ملكت بالحق ، والجنة دانت
ما لبثنا ان رأيناها وقد	هبطت عن ذلك العرش وبانت
فترانا نتحرى ابدا	اثرها او نتلاقى حيث كانت"

وهنا يبدو جليا هذا التعاطف بين الشاعر والطبيعة . فكأن الارض والزهر والفراشات والغصون تشاركه في حنوه ولوعته ، ففقيدته لم تعد فقيدته وحده بل اصبح له في فقدها شركاء ، واصبح الفاقد الاصيل يسأل شركاءه عن فقيدته .

فاذا دنت في سيرها من زهرة	همت بأخذ ذيولها وبلثمها
او جاورت فرعا رطيبا لينا	اهوى بمعطفه ومال لضمها

والروض الذى يصغي لطيب حديثها :

والروض ساكنة الى نسماتها	تصغي لطيب حديثها ولنمها .

وتتضح هذه الفكرة اكثر في قصيدته (النرجسة) [٣] حيث يروى قصة شاب لبى نداء الوطن

---

(١) ادهم ص. ٧٩

(٢) الديوان ٢: ص. ١٠

(٣) الديوان ١: ص. ٦٣

فحزنت عروسه لفراقه وغرست زهرة نرجس تسليها الى ان يعود : وكانت تتعهدها وترعاها الى ان جاءها نعي زوجها فشقت مرارتها عليه ولما تفقدت اليفتها النرجسة فاذا بها تموت وفي عينها دمعة .

داع دعاه الى الجهاد فازمعا	سفرا وجاء بنفسه متطوعا
غلبت حميته هواه بعرسه	فنأى وودع قلبه اذ ودعا
وقضت "امينة" بعده ايامها	في الحزن غير امينة ان تفجعا
غرست بصحن الدار زهرة نرجس	لتكون سلوتها الى ان يرجعا
كانت تبالغ في رعايتها كما	ترعى عيون الام طفلا مرضعا
حتى اذا ما جاءها عن بعلها	نبأ اصم المسمعين وروعا
شقت مرارتها عليه واوشكت	من هول ذاك الخطب ان تتصدعا
وكأن ذاك الرزء قبل وقوعه	مما شجاها لم يكن متوقعا
فتفقدت صبحا اليفتها التي	كانت سلتها حسرة وتوجعا
فاذا نضارتها ذوت وكأنها	عين اسال الحزن منها مدمعا

لا شك في ان في هذه القصيدة منتهى التفاعل والمشاركة بين الانسان والطبيعة .

وعلى ذلك يعلق نجيب جمال الدين [1]:

"ان انعدام الكائنات كافة ، احيائها وجمادها في وحدة الوجود الشاملة في ذهن الشاعر ، وتحسسه العميق بهذه الوحدة ، يتسق واعمق التأملات الفلسفية في الحياة والفن ، ثم ان الافاضة بها عن صفحة وجدان الشاعر ، لفتح جديد في ادب العرب ! ".

وفي (غزل)[2] يصف حبيبته ويعترف بان ذكراها لا تفارقه :

يا مائسا عن غصن بان	اعيت محاسنه بياني
اني اضعت جميل صبري	في جمالك وافتناني
من يعبد الشمس المنيرة ،	هل يلام على افتتان ؟
رحماك يا طلق المحيا	لو رثيت لذل عاني
ابدا يظل على مثا	لك في سواد القلب حاني

(١) جمال الدين ، نجيب خليل مطران شاعر العصر ص. ١١٤ (٢) الديوان ٢: ص. ١٩٥

كل بآن غـــير ذكـــرك فهـــو شغلـــي كل آن

والطبيعـــة ، لا يغفـل عنهـــا مطـــران فهـــي حـــرم الرومانتيكـي الاكـبر ففي (البنفسجة)[١] يقـــول :

الحســن كل الحسن في الطبيعــة انظر الى آياتهـــا البديعـــة
ماذا تقـــول الزهـــرة الوديعـــة ؟

ومطـــران شأن الشاعـــر الرومانتيكـي ، مولـع بالجمال يتعشقـه ويتتبعـه : فهو في وجـه حسناء او منظـــر جميـــل او زهـــرة حلوة .

وكذلك احـب مطـــران الخـــير والحـــق مكملا الاقانيم الثلاثـة ، فعاش حياتـه محبـا للخير ساعيا لـه داعيا مطالبا بنصرتـه .

ولا شك في ان حبـه لفتاتـــه لم يكـن لانهـا جميلـة كما صـورها وحسـب ، بل لانهـا جمعت بالاضافـــة الى الجمال الرقـــة واللطف والعطف والدماثـة والحنو والكـــرم :

ويصـــور مطـــران حبيبتـه هذه مظهرا شخصيتها في قصيدتـه (العصفور)[٢] حيـث يصـف نزهـــة كان يقـوم بهـــا بصحبتهـــا في المساء وبينما هما عائدين واذا هما بالقرب مـن منزل حقـير استأذنتـه الفتاة وهرولت نحو المنزل فارتاب الشاعـر ولحق بها فاذا هو امام ام تبكـي واطفالهـــا السبعـــة وبينهـــم " ليلى " كالملاك تجزل لهـم العطاء . فاعجب الشاعـر بما رأى ورجع الى الـــوراء ولما عادت فتاتـه ابدى لها اعجابـه من تلطفها بالعطاء فتنصلت وانكـرت حياء فكانـت لاول مـــرة تكذب وفي ذلك يقـــول :

فتنصلت كـذبا ولـــم يسبـق لها قـــول افـــتراء
ولربما كذب الجــــوا د فكان اصدق في الســـخاء
يخفي الكريـم مكانـــه فتراه اطيـــار الســـماء

ولم يقف حنو فتاتـه عند العطف على البؤساء المساكين فما اكملا طريقهمـــا يتجاذبان اطراف الاحاديث اذ بعصفور صغير يهوى مرتجفا من احـدى الشرف فاسرعت " ليلى " تلتقطه بحنو ورفق وتأخـذه

---

(١) الديـوان ج ٤ ص ٢٤٩
(٢) " ج ١ ص ١٠١

اخذ الام لطفلها تدفئه وتعيد له الحياة فاكبر الشاعر لها هذه العاطفة ·

ويصيب ادهم حين يقول [١]:

"كانت حبيبة مطران فتاة ذات حسن وجمال · ويظهر من مطالعة شعر الخليل فيها انها كانت فتاة غنية الاحساس ثرية الشعور تفيض بهما على صاحبها وتغمره فاذا باوتار نفسه تهتز واذا بصحنة وجدانه تتكشف لها وشائج الصلة بين حياة الحب التي يحياها وحياة الطبيعة التي تبدو له في مجاليها ومشاهدها ·"

ومهما يكن من امر فان مطران شاعر الرومانتيكية الاول في شعرنا الحديث · يرتكز شعره هذا - شرط ان يصفو - على العاطفة والخيال والفكر · وتمتاز عاطفته بالعمق والاتساع والغنى ، وخياله مصور رائع يوزعه الفكر ويوجهه ومن اثر هذا الفكر انه خلع على عاطفة الشاعر الثبات وخفت الموسيقى الشعرية وجعلها هادئة ناعمة ، وعنه يقول السحرتي [٢]:

"ان مطران قد حمل شعلة الابداعية منذ اكثر من اربعين عاما وشعره يعد نقطة تحول في الادب العربي المعاصر ، وقد اكتفى الرجل بأداء رسالته تاركا للشباب تطوير الشعر الحديث ، وتجديده موضوعا واسلوبا ، وقد ازهرت لحسن الحظ براعم هذا التجديد ، فاخرج بعض شباب الشرق العربي نماذج فريدة في الشعر الابداعي والواقعي ·"

وخلاصة القول ، فالملامح الرومانتيكية التي تبدو بارزة في شعر مطران هي :

١ - تقديسه للحب وجعله الرابط الذى يربط العوالم بعضها ببعض (بدر وبدر)(العالم الصغير مرآة العالم الكبير) ·

٢ - حبه لفتاته (حكاية عاشقين) ·

٣ - تقربه من الطبيعة والنظر اليها نظرة جديدة ومشاركتها له في احاسيسه والحلول فيها · (مشاكاة بيني وبين النجم) (من غريب الى عصفورة مغتربة) (البنفسجة) (المساء) ·

٤ - تقديسه للالم (المساء) (الاسد الباكي) ·

---

(١) ادهم ص· ٧٧

(٢) السحرتي مصطفى عبد اللطيف الشعر المعاصر ص· ٢١٧

٥ ـ الكآبـــة " Melancolie" (حكايـة عاشقــين)

٦ ـ حبـه للجمـال (حكايــة عاشقــين) .

٧ ـ نقمته على الفساد في المجتمع وهربـه الى الطبيعـة (الاسـد الباكـي) .
(المســاء)

٨ ـ خروجـــه الى صوفيــة شرقيـــة (العالم الصغير مرآة العالم الكبــير) .

اغـــــــــراض شعـــــــــره

أ ـ شعر القصص

قلنا في حديثنا عن مطران الشاعر في معرض الكلام على تجديده انه جدد في الشعر القصصي وكان بحق اول شاعر عربي نضج عنده هذا الفن .

وقصص مطران ينقسم الى قسمين :

١ - قصص تاريخي يأخذ مادته من التاريخ اما باستغلال القصة التاريخية استغلالا تاما ام يتناولها الخيال بشيء من التحوير . مثال ذلك : (مقتل بزرجمهر)[١] (نيرون)[٢] (فتاة الجبل الاسود)[٣] و (فنجان قهوة)[٤] وهو في قصصه هذا ثائر على الظلم والاستبداد يتخذ قصص التاريخ يلف بها بذور ثورته ونقمته .

٢ - وقصص اجتماعي لم يأخذ مادته من التاريخ بل التقطه من صميم الحياة الاجتماعية والبيئة التي يعيش فيها وسكب فيه ما شاء من احاديث . امثال : (بنت شيخ القبيلة)[٥] و (الجنين الشهيد)[٦] و (حكاية عاشقين)[٧] و (الوردة والزنبقة)[٨] و (الطفلان)[٩] و (وفاء)[١٠]

وهو ، شأن من عاصره من الشعراء ، درس التاريخ واستفاد من كبار احداثه واصدق ما يدل على هذا القول انه يفتتح ديوانه بقصيدة تاريخية (١٨٠٦ - ١٨٧٠) يصف فيها انتصار نابليون الاول على الالمان في معركة يانا ودخوله برلين ثم انتصار الالمان على نابليون الثالث ودخولهم باريس . واولى تآليف مطران كانت في التاريخ فقد الف كتابا سماه "مرآة الايام في التاريخ العام ." في جزئين صدر الاول منهما سنة ١٨٩٧ وفيه يجمع آراء كان قد قرأها في كتب التاريخ .

وقد ساعد مطران من طريق آخر على بعث القصص ووضع هذا اللون ، الجديد على الادب العربي ، بين ايدي القارئ وتعويده عليه كي يألفه ذوقه فيقبل عليه . وكان ذلك عن طريق ترجمته لروائع مسرحيات الغرب . فقد ترجم لكورني Corneil ١ - "السيد Le Cid "

---

(١) الديوان ١ : ١٢٠
(٢) " ٣ : ٥٠
(٣) " ١ : ١٧٩
(٤) " ١ : ١٤٨
(٥) " ٤ : ١٠٦
(٦) الديوان ١ : ٢٢٢
(٧) " ١ : ١٨٥
(٨) " ١ : ١٣٤
(٩) " ٢ : ٦١
(١٠) " ١ : ١٠٥

٢ • سينا Cinna ٣ • بوليكت Polyeucte وترجم لراسين Racine باربنس Bérénice وترجم لشكسبير Shakespeare ١ • هاملت Hamlet ٢ • ماكبث Macbeth ٣ • عطيل Othello ٤ • تاجر البندقية The Merchant of Venice. و٥ • الملك لير King Lear وترجم بالاضافة الى ذلك رواية "هرناني Hernani لفكتور هيجو Victor Hugo.

هذا بالاضافة الى ما خطه قلمه من روائع.

واني سوف امسك الكلام على قصص مطران التاريخي الى فصل يفرد للشاعر الثائر، لان هذا القصص يدور جميعه على الثورة والحرية.

واتناول الآن قصص مطران الاجتماعي الذى استطاع ان ينال بواسطته قصب السبق في هذا اللون الجديد من الادب.

ففي (وفاء)[1] يقص الشاعر قصة فتاة عوادة جرت في مصر وقد حضر الناظم ختامها. ويبدأ قصته بوصف محاسن الفتاة التي آثرت الطواف متسولة محافظة على شرفها رافضة كل ما يبذل لها من ثمن لو ارتضته لعاشت في نعيم. وكان ان رآها فتى وسيم الطلعة غني، فغازلها فأبت واعرضت عنه وحاول ان يشتريها بالمال فصدته ثم صادفها ذات يوم في روضة واخذ يتودد ها فاستبانت في كلامه صدقا وكشفت له عن رقة حالها وضعة حسبها وعن انه لا يمكن ان يكون صادقا في طلب يدها وهو له ما يشاء وباستطاعته ان يجد فتاة اجمل منها وارفع مجدا وجاها. ولكن الفتى اكد لها صدق كلامه:

فقال لها : بل يشهد الله بيننا	واسقام قلبي الواله المتوجع
وتشهد هذى الشمس عند غروبها	وما حولنا من نورها المتفرع
ويشهد ذا الروض الاريض ودوحه	وما فيه من زهر وعطر مضوع
وهذى الظلال الباسطات اكفها	وهذى الشعاع المومئات باذرع
وهذى المياه الناظرات باعين	وهذى الغصون المصغيات بمسمع
باني لا ابغي سواك حليلة	ومهما تسمني صبوتي فيك اخضع

(١) الديوان ١: ١٠٥

فتهش لحديثه وتنتابها نشوة من السرور وغدت كالملاح يرى منارة :

ولا آنس الملاح بشرى مغارة — له بلقا اهل وصحب ومربع

وتعاهدا على الحب والوفاء .

ويقترنان ، ولا يمر عام حتى ينزل بالفتاة داء قاتل فيحنو عليها خليلها ، وينسلخ على اساها قلبه و يظهر لها البشاشة ويخفى الجمر المستعر ينهش صدره نهشا . واذا بها تدعوه وتخبره بأن اجلها قد دنا وتطلب منه ان لا يبتعد عنها لانها تحس دنو الموت اذا ما عنها حبيبها ابتعد . وتذكره بالعهد الذى قطعاه ، فالموت يفي الامانات وتطلب منه ان يتمتع بشبابه بعدها فهو في حل من عهده يكفيها ان يحتفظ لها بصورة في اصغر زاوية من قلبه .

ولكن الفتى الوفي يأبى ان تموت حبيبته ويعيش بعدها فما ان ذهبت في التراب حتى قتله اليأس ولحق بها الى العالم الآخر .

وهكذا تنتهي القصة وقد صور فيها مطران الوفاء احسن تصوير . وقصته هذه التي تنتهي بمأساة ، اذ يموت البطلان ، متوافرة فيها شروط القصة من عرض وعقدة وحل . فقد يعرض مطران قصته عرضا رائعا من حيث الحبك والسبك بلغة سلسة وشعر رفيع ونغم داخلي لا يثور حتى ليهدأ .

و (الوردة والزنبقة)[1] قصة فتاة ابعد عنها اليف صباها وابى اهله تزويجه منها لانها فقيرة . وهي على شكل رسالة من ليلى الى عزيز . تبدأ القصة وليلى تشكو لحبيبها ما تعانيه من جوى الحب وحرقة البعاد . ولم يبق من وسيلة تجمع بينهما غير الرسائل تأتيها من حبيبها فتعيد لها الحياة . والذى يزيد في المها ان داريهما تتقابلان ولكن ليس لهذا القرب من فائدة ، وتظلم الدنيا في عينها فلا شيء تأمله غير الموت فلا الروض يخفف عنها ولا الزهر يروق لها . وتنزل سحرا الى حديقتها تنبه الازهار من نومها تجمع باقة تحاول بها سلو مصابها فتبدو لها وردة كئيبة حزينة في ذبولها قصة حب عنيف للزنبق الذى يشمخ بقربها يطاوع ريح الصبا فيعطف عليها مقبلا فتهم الفتاة بقطف هاتين الزهرتين فاذا بوالدها يمسك يدها

---

(١) الديوان ١ : ١٣٤

والدمع في عينيه ويقول لها ، دون ان يعلم ما وقع كلامه على فتاته ،عفوا يا بنيتي ترفقي بهتين الزهرتين العاشقتين ولا تقضي عليهما وان يكن الموت يريحهما من عذاب الحب ، دعينا نشهد قصة حبهما وخاتمتها كيف تكون :

فقد جاورت هذى الوفية الفها	اذ الالف مياس المعاطف اميل
فكان اذا مرت به نسم الصبا	يسر اليها سر من يتغزل
يداعبها جهد الصبابة والهوى	ويعرض عنها لاعبا ثم يقبل
ويرشف كل من جنبين حبيبه	دموع الندى خمرا رحيقا فيثمل

ولكن غصن الزنبق ما يلبث ان يجف ويلتوى فتحزن الوردة لفراق اليفها الموشك ، ويلوى الحزن عنقها حتى لييد وانها سوف تسبقه الى الموت.

وما كانت قصة الوالد التي تدور على حب الوردة للزنبق الا قصة فتاته وحبيبها، فالوالد الذى يبكي الزهرتين كان اجدر به ان يبكي فتاته ويرثى لحالها :

فوا رحمتا ! هذى حقيقة حالنا	رآها ابي في الزهرتين تمثل
بكى جزعا للزهرتين ولو درى	لصان لنا الدمع الذى راح يبذل
هما صورتانا في الهوى وحديثنا	حديثهما بين الازاهر ينقل
اقبّل ذاك الغصن كل صبيحة	كأني للنائي الحبيب اقبّل
وانظر اختي في الشقاء كأنني	اراني بمرآة اموت واذبل

وهكذا تنتهي القصة التي يجبلها مطران برومانتيكيته ويصورها بخياله.

قصة حب وحرمان ينتهي بموت اكيد :

وارقى قصصه الاجتماعي (الجنين الشهيد)[1] يقدم لها بقوله : " هي قصة جرت في مصر حضر الناظم وقائعها كما شهد حكاية العاشقين ووصفها بحقيقتها لتكون تذكرة وعبرة ."

---

(١) الديوان ١: ٢٢٣

وفي ذلك اعتراف صريح بأن القصة واقعية وليست من نسج الخيال ، التقطها عدسة الشاعر من البيئة التي يعيش فيها .

والقصة طويلة تقع في اثنتين وعشرين صفحة تدور على صبية حسناء فقيرة جاءت القاهرة من الصعيد تستعطي وتتسول لتعول اهلها . ويصور الشاعر شقاءها وفقرها ثم جمالها واكتمال انوثتها وتفتح كنوز صدرها تصويرا رائعا .

وتبدأ العقدة حين يعرض الاب ، وقد شاهد اكتمال انوثة فتاته ، على زوجته ان تعمل " ليلى " في احدى الحانات ففي ذلك دخل وافر يكفيهما مؤونة السؤال ويهيء لهم جميعا عيشا افضل . فتقتنع الام وتتودد من ابنتها وتعترف لها بانها هي بلسم لها ولوالدها . وللحال تظهر الفتاة رغبتها في ان تحمل كل ما تشير اليه امها اذا كان في ذلك اسعاد للوالدين . فتكاشفها الام بما هيأ لها من عمل في احدى الحانات وتدفع الفتاة في طريق الغواية والضلال .

ويقبل طلاب المجون على (ليلى) يخطبون ودها ويطلبون رضاها يتخنون في وصف محاسنها والتودد اليها ومداعبتها . وابوا ان يصدقوا ان الفتاة عذراء وراحوا يهزؤون منها ومن عفافها .

غير ان احد الرفاق استاء من تصرف رفاقه وقد ازعجوا الفتاة واسمعوها كل كلام وقح فهاجمهم ودافع عنها . وتدور الخمرة في الرؤوس ويثمل الصحب وكلهم ذئاب يتسابقون الى افتراس نعجة وديعة ، وهي تتدلل وتتحرض عنهم فتزيد في رغبتهم فيها . وتتقن الفتاة صنعتها وتحسن صيد العشاق المتيمين . فتنهال عليها الاموال لتنتهي بها الى والدتها تبتاع بها حلى وتعيش في ترف ونعيم .

وتنزلق " ليلى " نحو الرذيلة تبيع جسدها وعفافها ، تتقن المكر والكذب والخداع ، وهنا يستفيض الشاعر في تحليل الشرف والعفاف وتصوير نفسية الفتاة الساقطة . وهو في ذلك ينظر نظرة اجتماعية خلقية وينتهي بان الخداع يستطيع ان يظهر البغي اذا احتشمت ولبست لباس التعفف مظهر الحرة الابية بحيث يختلط الامر في التمييز بين الاثنين :

وهل في ضياء الشهب فرق لمستجلي ؟ .

ولكن فتى جميلا نذلا كان يميل الى ليلى ويظهر تودده وهي تصده وتميل عنه وظل يجالسها ويلاصقها الى ان وعدها بالزواج فراق ذلك لها وماذا تبغي فتاة مثلها غير صدر زوج تسند رأسها عليه وتنصرف عن حياتها البائسة. وانتهت مماطلتها بالقبول واحبته وكذبت ما روته صديقاتها عنه، ويجيء جميل فتقبل عليه وتخفل سائر الناس وكان بين جلاسها شيخ متصاب يبذل لها المال وتبذل الود لسواه. فيلومها على ذلك ويغلظ لها القول فينتصر لها "جميل" ويوسع الشيخ لكما وضربا. وزادها ذلك المشهد حبا لجميل الذى وجدت فيه نصيرا ومدافعا. ويستغل حبها له ويغتنم الفرصة ويقودها الى مكان قفر معد لكل محرم :

فعفت، فمناها، فزادت تمنعا فاقسم الا ان يموتا اذا معا
طعيني حديد بين كفيه مستل

ويبالغ في اغرائها ويقسم لها انه من الغد يكون بعلها فيرفع شأنها ويعيل اهلها .

وكان الدجى قد رق حتى تصدعا وهب بشير الصبح يرتاد مطلعا
فما زال يجلو خافيا ومقنعا الى ان نضا ادنى الستور وقد وعى
بما طاهرا اجراه اثم فتى نذل

وقد ذكر هذا المقطع في الطبعة الاولى من الجزء الاول من ديوان الخليل في ص. ٢٢٣ على شيء من التحوير :

وكان يهم الصبح ان يتطلعا ويفتض ازرار السماء ليسطعا
ويرفع ثوب الليل عنه ليخلعا فلم يطو منه الذل الا وقد وعى
دما طاهرا جراه اثم فتى نذل

ويعلق ادهم على هذا المقطع بقوله : "فيه صنعة شعرية ماهرة متقنة. اراد الشاعر ان يصور اعتداء الشاب على الفتاة وفض بكارتها قبل ان يتنفس الصبح ويشهق. فوصف الجو وكأنه كان يصف عملية الاعتداء وما يسبقها وما يرافقها من فك ازرار وانزياح استار وخلع ثياب. فجعل الصبح يفض ازرار السماء ليسطع ويرفع ثوب الليل جاعلا للسماء ازرارا ولليل اثوابا ثم ذكر ذيل الرداء وهنا انتهت عملية "التشليح" فاراك الدم - ان مطران هنا يشبه الكمرا تاركة لك ما حذفته المراقبة لتعود وتظهر لك دما احمرا تستدل منه على ما جرى تاركا لخيالك ان

يشارك دون عينيك بما حدث. لقد قصد مطران الى هذا الطباق وتعمده قاصدا الى جعل الصورة مزدوجة كأنما وضع مرآة داخل مرآة.»

وتسقط الفتاة وتحمل ويجفوها الناس وجميل يسلبها ما كانت قد ادخرت من مال وهي تعطيه مخافة ان يتحول عنها وهو ينفق ما تعطيه في البذخ والترف يسيء اليها وتغفر له، وتقبل منه المر. وتسوء حالها وتمرض وتطلب منه ان يرد لها ما اعطته من اموال لكي تستشفي فيعدها وينصرف الى غير لقاء. ويتركها حاملا مريضة جفاها اهلها وازور عنها الناس.

وتفقد كل ما كانت تملكه حتى الخاتم الذى كان قدمه لها. وتنصرف الى طلب المغفرة تضرع الى الله تسأله ان يترفق بجنينها الذى جنت عليه. ثم تصمم على قتل الطفل فلماذا يحيا وليس له اب اتتركه يحيا للذل والفقر؟ .. اما عاشت هي في الذل والفقر وانتهت بها الطريق الى حيث انتهت؟.

ويصف مطران هذا الصراع في ضمير المرأة فهو ولدها وفلذة كبدها أتبقيه للذل ام تقتله وترتكب اثما فتريحه من حياة ليس فيها غير الشقاء؟ وتقتله آخر الامر.

الا لم هذا الطفل يحيا ولا ابا   له؟ اليشقى شقوتي ويعذبا؟

....

تموت ولما تستهل مبشرا   تموت ولم انظر محياك مسفرا
تفارق قبرا فيه عذبت اشهرا   الى جدث منه ابر واطهرا
وتحيا صغار الطير دونك والنحل.
فان تلق وجه الله في عالم السنى   فقل ربي اغفر ذنب امي محسنا
فما اقترفت شيئا ولكن ابي جنى   علينا فعاقبه بتعذيبه لنا
وامطره نارا تبتليه ولا تبلى

ويستفيق ضميرها وتعترف بانها شريكة في الجريمة:

كفرت بحبي في اشتداد تغضبي   فعفوك يا ابني ما ابوك بمذنب
فقل: رب امي اهلكتني لا ابي   وامي زنت حتى جنت ما جنته بي
فزدها شقاء واجزها القتل بالقتل

وتسقط جنينها لتعود بعد عام وتسلو ما فعلت. وجميل ناعم البال حتى اذا التقت عيناه بليلى تبسما لذكرى الشهيدين . البكاره ، والطفل .

وتلاحظ ان هذه القصيدة التي يندران يوجد مثلها في الشعر العربي قديمه وحديثه تكاد تحوى جميع مميزات شعر مطران . فالخيال ، والعاطفة ، والتصوير ، وحسن السبك ، ووحدة القصيدة ، جميعها تجدها فيها .

وحدة القصيدة التي قلنا ان مطران امتاز بها واكيد عليها وهو فهم القصيدة انها وحدة عضوية متماسكة وليست ابياتا مفككة تنقل وتبدل دون ان يتأثر المعنى او يختل القصد .

واكثر ما تبدو وحدة القصيدة في شعره القصصي ذلك ما يؤكده منـدور في قوله[1]: "ومدرسة الجديد في الشعر العربي الحديث لم تهاجم تفكك القصيدة لتباين اغراضها وانتقال القوى فيها من غرض الى غرض فحسب ، بل هاجمت ايضا التفكك في الغرض الواحد . وطلبت بالا تقتصر القصيدة على وحدة الغرض بل وان تبنى بناء عضويا بحيث لا يستقل عما سبقه وما لحقه . ولا يمكن ان ينقل من يوضعه الى موضع آخر الا اذا امكن ان ينقل الذراع او الساق او العين من مكان الى آخر في الجسم البشرى ، وهذه الوحدة العضوية للقصيدة مبدأ دعا اليه خليل مطران في مقدمة ديوانه واخذ به في طوال قصائده القصصية والدراماتيكية بل وفي سائر القصائد ."

فلا شك في اننا لا نستطيع ان نعبث في قصص مطران فلا سبيل الى تقديم او تأخير او زيادة او نقصان ، وهذا بدهي اذ ان مطران يروى قصته متسقة الحوادث فلا مجال الى الاخلال في سياقها .

ويرى شفيق المعلوف[2] انه ليس غلوا قولنا ان خليلا قد بز في فن الشعر القصصي كل من تقدمه من شعراء العرب . ولو تتبعنا نتاجه الادبي لوجدنا ذلك النوع غالبا في معظم شعره ، واليك ما قاله في احدى بواكير قصائده في وصف فاجعة :

---

(١) منـدور ، الدكتور محمد الشعر المصرى بعد شوقي ص. ١٥

(٢) المعلوف ، شفيق العصبة مجلد ١٠ (١٩٤٩)

خطيبــة شهــر سابــق الموت بعلهــا   اليها فاغـواها ولكن على طهــر.

فقـد جاء هذا البيت وحـده قصـة كاملة في بضـع كلمات ، ودل دلالـة واضحة على ما لمطـران من نقاء فكـرة وصفاء خيال ، ودقـة وصف ، وبراعــة سرد كانت من ابرز صفاتــه ، وبدت باظهـر مجاليهـا في ما خلفه بعد ذلك من آثــار."

وفي (غـرام طفلـين)[1] يروى قصـة طفلين فتى وفتاة شبا معـا على الهـوى ثم يتفرقان كل الى مدرسـة فيتألمان لهــذا النـوى ويتراسـلان - وهما بعد لا يحسنان الكتابـة - بالذكر تراسل القلب للقلب. ومـا ان عرفـا خط الحـروف حتى كتب الفتى "سلمى "وخطت الفتاة "يوسف " فكأن هتين اللفظتين جمعتا كل المعـانـي .

ويبقـى اسم "سلمى "محفـورا على قلب "يوسـف "الذى يظل على نار البعاد يبث اشواقـه الى حبيبتــه.

وكذلك تتألـم الفتاة في مدرستهـــا . اهلها يبغـون لها ان تهناء بتحصيـل العلـم وهـي تـرى في ذلك كل الشقاء وتأسـف لعهـد الصبى يضيع بغير حب. وتتمنى لو كانت مثـل الطيـور تمرح هانئة كل اليف واليفتـه.

و (الطفـلان)[2] قصـة شبيهـة (بغـرام طفلين) تـدور على طفلـة ثريـة ذات حسب وطفـل وضيـع فقـير كان اجيرا للفتاة اتخذه اهلهـا لتسليتهـا والهائها . وتشتد اواصر الصداقة والحب بين الطفلين في غفلة من اهـل الفتاة كلما كبرا في الســن . كثيرا ما يمثلان عرسا فيتعانقان ويغمران بعضهمـا بالقبل ويسأل اهل الطفلـة من تريد شريكا لحياتها فتدل على الغلام . وما ان يكبرا حتى يفرق بينهما فتبتعد الفتاة عن الفتى ويقل اللقـاء وكانت هذه مشيئة اهل الفتــاة فيحزن الشـاب ويقـرر ان يذهب في سـفر فيجيء الفتاة مودعـا شاكيا حزنـه وغرامه الانه فقـير حيل بينـه وبين من يحب ؟ فليضـرب في مجاهل الارض ويجمع المال اذا كان المال هـو الوسيلـة الوحيدة للحصـول على فتاتـه . وقضى اعـواما وراء البحار يجمع الذهب والفتاة ترقب عـودتـه

---

(١) الديــوان ١: ٢٤٥

(٢)   "   ٢: ٦١

وتحفظ حبه . ولكن ما تلبث ان يجيئها خطيب ثرى متهدم فتزوج منه مكرهة . فلم تذق طعم الهناء تعيش على ذكرى حبيبها الغائب . وما تلبث ان تعتل وتموت في ريعان الصبى .

ويعود فتاها وقد اصاب ثراء وجاها عظيمين وما يلبث ان يعلم بالمصاب فيحزن اشد الحزن ويهاجم مجتمعا مجرما قضى لهما بالشقاء ، تباع فيه الفتاة كالسلعة ، وطفق يبكي فتاته ويندبها واذا بصوت يناديه من خلف الزمن : ان اللقاء في الجنة حيث الخلاص من شرور البشر .

و (بنت شيخ القبيلة)(١) تقص قصة هواها وتذكر سعادتها بزواجها من "حسن "الذى احبته وآثرته على حبيب آخر يدعى "عمر ".

وهي قانعة بما قد اغدقه الله عليها من نعيم . فوالدها غني له الدور والقصور والجنائن .

وكان اول لقاء لها مع حسن على البئر حيث كانت مع بعض اترابها يملآن جرارهن فاذا بحسن وهو كمي ظمآن ، جاء يطلب الماء فتسقيه وقد اعجبها حسنه ويسألها عن والدها وينصرف على ان يعود في الغد ويجتمعان ويقع كل في غرام الآخر وكانت ساعة من اطيب ما في العمر لو لم يفاجئهما "عمر " خطيبها الاول ، ولكنهما تأبى ان تبدل "حسن " "بعمر " وتقترن به ويعيشان بوئام .

وهكذا نرى ان مطران في قصصه الاجتماعي ثائر على اوضاع المجتمع الذى يحتقر الحب ويقف في سبيله ، ويقدم عليه المال ، فيرى الزواج تجارة وليس الفة ومودة ، يرتبه الاهل دون ان يكون للفتاة فيه يد ، والذى يخاف الفاسق الفاجر يسلب الفتاة المستضعفة مالها وعفافها ويتركها هزءة للهازئين . ومطران يعرض الى هذه الآفات عرضا رومانتيكيا رائعا دون ان يغلب عنده موقف الوعظ والارشاد .

وفي هذه القصص تظهر شخصية مطران واضحة جلية . فهو اجتماعي ، دقيق الملاحظة ، يعالج مشاكل الحب لما كان له من تأثير عليه . وهو عطوف رؤوف ينتصر للمظلوم ويدافع عنه . عدسته مفتوحة متهيئة لالتقاط المشاهد ، فيصف الوفاء ويصور الفقر ومآسي الحياة والفوارق الاجتماعية ويدعو الى الحرية وانصاف المظلومين .

---

(١) الديوان ٤ : ١٠٦

شــــعر الثــورة والحــــرية

شعر الثورة والحرية

لا تقل ثورة مطران على الاوضاع السياسية وعلى الظلم عن ثورته على الاوضاع الاجتماعية من جهل وفقر ومرض .

وثورته هذه التي يعكسها شعره تنقسم الى نوعين : نوع يقع تحت القصص التاريخي يلجأ اليه الشاعر ويفرغ فيه نقمته على الظلم دون ان يعرّض باحد من الحاكمين ، يتناول شخصية تاريخية عرفت بالاستبداد امثال كسرى ونيرون ويسكب فيها ثورته على الطغاة الظالمين يقرع الشعوب المستكينة المتخاذلة وينفخ نار الثورة عن طريق غير مباشر .

والنوع الثاني هو قصائد ثائرة متحررة صريحة يقولها الشاعر دون خوف او وجل يتحدى السلطان ويتناول حوادث معينة يشجبها بجرأة وصراحة .

علمنا من مراجعة حياة الخليل انه نشأ نشأة حرة متحررة فكره الظلم والاستبداد . ولا غرابة في ذلك فهو قد تربى تربية حرة ودرس الادب والتاريخ الافرنسيين وهما حافلان باخبار الثورة وافكارها . وكان ان عاش وترعرع في وطنه لبنان وهو تحت السيطرة التركية والاستبداد العثماني . فثار الفتى على الظلم وكان يذهب الى اعالي الاشرفية مع بعض رفاقه ينشدون " المارسييز " نشيد الثورة ورمز الاستقلال فارتابت السلطة التركية المتحكمة في نشاط الشباب وهو لم يكن يبلغ السابعة عشرة من عمره ودبرت له من يغتاله وكان ان نجا من الاغتيال وسافر الى فرنسا . ولم يطلق حبه للحرية فاتصل بجماعة " تركيا الفتاة " مما جعل الحكومة التركية تطلب من الحكومة الفرنسية ابعاده[1] .

---

١) - ادهم ص: ٦٧ - ٦٨

كل هذا يدل على ان مطران نشأ نشأة الشاعر الثائر الحر . وكل شيء كان مهيئا له ليكون كذلك : شعبه مستعبد ، وهو متعشق للحرية متشرب بروح الثورة الفرنسية ، وهو مضطهد ملاحق مهدد بالقتل . وهو فوق هذا وذاك شاعر حساس يتجاوب مع نفسه وبني قومه .

وفي حديث مع الشاعر يجيب على سؤال يتعلق بغرض الشعر يقول (١) :

" لقد رايت ان الشعر كان عاملا قويا في نهضة الدول ، فيجب ان يكون له غرض خاص في كل مقام . يجب ان لا يكون مجرد مدح وذم ومراعاة للظروف والاحوال . ويجب ان يكون للقصيدة غرض واحد ، وان تكون صادقة بالنسبة لغرضك منها . هذا هو القصد الاول الذى من اجله عملت . والى جانب هذا كنت ارى آلام الشعوب وتعاساتها وانكرها واعتقد انها متأتية للشعوب منها لنفسها . اردت ان تشعر الشعوب بمسؤولياتها .

ان تشعر بحقها في الحياة الحرة السعيدة ، وان لا تتنزل عن هذا الحق مرة واحدة لان رجلا حمل سكينا واراد منها ان تفعل ذلك . ومن اجل هذا الغرض نظمت قصائدى الكثيرة التي تؤلف المجموعة الضخمة التي ازمع على نشرها بعنوان " الطغاة " (٢) : من قصيدة (السور الكبير) الى قصيدة (نيرون) وما بعدها . التي عرضت فيها صور التاريخ وعبره ومسؤولية الشعوب ، وحقها ، بل واجبها في تقرير مصيرها . وفي جميع القصائد التي قلتها تأتي هذه الصورة على اشكال مختلفة :

بناء الناس قام جباية ولو ذوبوا تذهيبه لجرى دما

---

١) ـ حديث مع خليل مطران مجلة الطريق م ٤ عدد ١٤ ص٣

٢) ـ قام بهذا العمل الاستاذ رئيف خورى وجمع قصائد مطران التي تتناول الحرية وقدم لها بكتاب سماه " الطغاة " ./..

وقد ساعد الزمن على تطوير الفكر ، واشاعة هذه الاهداف ، وهذا المفهوم الجديد للشعر ، بمعاونة الحركات العامة العنيفة التي جرت في العالم من ثورات وحروب ، وتحولات في دول الشرق والغرب وانهيار الدولة العثمانية ونهضة البلاد العربية التي ادت الى عزل الرجعيين الجاحدين وانتصار روح الكفاح والتجديد في كل مكان وكل ميدان •

وينتقل من ذلك الى الحديث على المظالم الاجتماعية فيقول : "ان هناك نوعين من الشكوى : الشكوى من تصرفات القدر كالمرض والموت وغيرهما والشكوى من الظلم الاجتماعي كالفقر والحرمان والاستبداد ، وقد يقول الشاعر ان الناس لا يكفون عن الشكوى ، فما لي اعيد ما يقولون ، ولكن الشكوى هي صرخة النفس المعذبة وصرخة الفكر الراغب في الاصلاح • وقد شكوت انا في قصائدي كثيرا ، فليس من قصيدة كتبتها الا وفيها تنديد بالظلم الاجتماعي وتطلع الى المساواة والحرية والعدل •

وكيف السبيل الى الرضى وتجنب الشكوى في بلاد كان اديب يقول عنها : " نفوس تحترق تحت رق !•

••• فان الظلم والتفاوت وتحكم القوى في الضعيف ، امور غير طبيعية يجب ومن الممكن ان تزول •"

فمطران ، الشاعر الحساس ، عاصر السلطان العاتي عبد الحميد وشارك شعب بلاده في تذمره وتأففه من الطغيان الترك ، ولمس انتفاض الشعوب البلقانية على استعمار الاتراك ووصف ذلك في (فتاة الجبل الاسود)[1] • وفي اول صباه غزا الانكليز مصر ، ثم جنوبي افريقيا

---

١) ـ الديوان ١ : ١٧٩

في الحرب الشهيرة بحرب البوير (الطفلة البويرية)[٢] . كما غزا الافرنسيون افريقيا الشمالية ٠ والطليان طرابلس الغرب (عتاب واستصراخ) [٣] والدول العربية كانت تنتقل من استعمار الى استعمار تارة باسم الحماية وطورا باسم التمدن فلا بد للشاعر الحر من ان يتجاوب مع هذه الحوادث ويثور على الظلم ٠ وكان من حظ الشعر العربي ان مطران كان بحق اول شاعر ثائر متحرر لم يعش في بلاط فيكون شاعرا رسميا كما كان شوقي ، ولم تقيده الوظيفة الرسمية كما قيدت حافظا في آخر ايامه فكان اكثر حرية وتجاوبا مع آلام الشعب ، وهو لم يكن يتخذ الحادثة السياسية العابرة بقدر ما كان ينظر الى مهاجمة الظلم من حيث هو بغيض ، ، والمطالبة بالحرية ليس لشعب او امة دون امة بل لجميع الناس على السواء ٠

وكان مجموع ما نظمه من شعر ثورى تسع قصائد هي :

١ ـ الاهرام ٠ ٢ ـ في ظل تمثال رعمسيس ٠ ٣ ـ السور الكبير في الصين

٤ ـ مقتل بزرجمهر ـ ٥ ـ فنجان قهوة ـ ٦ ـ نيرون ـ ٧ فتاة الجبل الاسود ٠

٨ ـ حرب غير عادلة ولا متعادلة ـ ٩ ـ عتاب واستصراخ ٠

فان مطران قد درس تاريخ الثورة الفرنسية علاوة على ذلك كله ٠ واخذ بها واحب نابليون الاول ، ابنها البار ، وذكره في شعره مرارا :

١ ٠ (١٨٠٦ ـ ١٨٧٠)[٣] يذكر انتصار نابليون الاول على روسيا في معركة (ياناً) ٠

---

١) ـ الديوان ١ : ١٦٢

٢) ـ = ٢ : ٧١

٣) ـ = ١ : ١٥

٢٠ (نابليون الاول وجندى يموت) [١]

٣٠ (نابليون وهو يرقب السماء في اخريات ايامه) [٢]

ثم ان مطران كان على صلة حسنة برجال مصر الاحرار وخاصة الزعيم مصطفى كامل ٠

يقول الرافعي [٣] : " كان بين مطران والزعيم مصطفى كامل صداقة وود داما طول العمر ، كان موءيدا لدعوته نصيرا لرسالته ، دافع عنها في حياة مصطفى ، وظل وفيا لها بعد مماته ، ويبدو مبلغ اعجابه وتقديره لعبقريته في قصيدته التي انشدها سنة ١٩٠٨ في حفلة الاربعين لوفاته ٠ وقد نشرها في ديوانه وصدرها في طبعته الاولى بهذه الكلمة التي تعد في ذاتها قصيدة من النثر المنظوم ،

قال : " مصيبة الشرق في رجله الفرد ، وبطله الاوحد ، مصطفى كامل ، ايتها الروح العزيزة ! ان في هذا الديوان اختتمه برثائك ، نفحات من نفحاتك ، ودعوات من دعائك ، فالى هيكلك المدفون بالتكريم تحية الاخ المخلص للاخ الحميم ، ووداع المجاهد المتطوع للقائد العظيم ٠ "

ويظهر ولاءه له في قصيدته هذه حيث يقول :

جزع النصارى واليهود لمسلم   هو خير من والي واوفى من وفى ٠

وكذلك قال عن سعد زغلول ، ومحمد فريد ، وعبد العزيز جاويش وسواهم من رجالات مصر الاحرار ٠

٠٠٠/٠٠٠

---

١) ـ الديوان ١ : ٤١
٢) ـ = ١ : ٥٩
٣) ـ الرافعي ، عبد الرحمن : شعراء الوطنية ص ١٦١

هذا ، واذا عدنا الى شعره ماذا نجد ؟ نجد قصيدة واحدة ، بل مقطوعتين صغيرتين بعشرة ابيات فقط نظمهما حوالي سنة ١٩٠٩ هما (مقاطعة)[١] و (تهديد بالنفي)[٢] ، يجهر فيهما بنقمته على الظلم والاستبداد .

اين ذهبت نقمته في مطلع شبابه ؟ . لماذا سكت ، هل تغيرت سياسة الاتراك ؟ ام هدأت ثورة الشباب ؟ ام خاف فسكت ؟ .

لا لم تتغير سياسة الاتراك ولم يشمل العدل دنيا البشر ولكن مطران لم يصمت بل اخذ يظهر افكاره الثائرة بلباس التاريخ فينظم القصص والملاحم والقصائد في ظلم الحكام الذين مدّ لهم ضعف الشعوب وجهلهم وخنوعهم .

وفي رأى ابي شادى[٣] " قد يمجد مطران لابتداعه المنوع في جميع ضروب الشعر ، وليس اهونها القصص - ولا يحائه بما تركه لغيره ، لا عن عجز بل عن سماحه ، كالشعر التمثيلي ، وقد يمجد ، كما مجد فعلا لسريادته الممتازة في فنون الادب ، ولكن تبقى الصفة الاهم لمطران والنعت الاكرم ، فان شاعر الحرية الفنان الملهم اول الشعراء الاحرار في العالم العربي جميعه باسمى التقدير " .

ولناخذ الان القصص التاريخي الذى وضع فيه مطران ثورته على الظلم واخلاصه للحرية .

.../...

---

١) - الديوان ٢ : ٩

٢) - = ٢ : ٩-١٠

٣) - ابو شادى ، احمد زكي الاديب ١٢-١٠-٩٥٣ ص٣-٤

في (مقتل بزرجمهر)[1] يعالج مطران موضوعا تاريخيا يتناول فيه كسرى ملك الفرس الذى اشتهر بالعدل ، فاذا كان هذا شأن العادلين من الحكام فما حال الملوك الظالمين ؟ . غيران الشاعر يريد ان يصور اسطورة عدل كسرى الذى يمثل الحاكم المستبد الذى يقتل وزيره بزرجمهر لغير ما سبب ولم يستطع احد ان يقول له ما اجمل الكحل في عينيه ذلك لان الشعب الضعيف المستسلم لم يكن يجرؤ على محاسبة مليكه المستبد فلم يكن له الا ان يطيع ويعيش على الذل والخنوع ولم يقف في وجه كسرى ، الذى يمثل الملك المستبد العاتي ، سوى فتاة هي بنت الوزير بدت سافرة تغرى الجموع تقول للظالم شلت يدك ، وقد سفرت الفتاة لانها لم تر بين الجموع رجالا :

ما كانت الحسناء ترفع سترها لو ان في هذى الجموع رجالا

يبدأ الشاعر بتصوير كسرى وقد الهه شعب فارس وسجدوا له وعفروا وجوههم فبغى وطغى ومرد ذلك الى استكانة الشعب وجهله وضعفه فهو شعب ذليل ليس له ان يريد ، ولا يحسن الا ان يطيع :

ما كان كسرى ، اذ طغى في قومه الا لما خلقوا به فعّالا
هم حكّموه فاستبد تحكما وهم ارادوا ان يصول ، فصالا
.. لكن خفض الاكثرين جناحهم رفع الملوك وسود الابطالا

ففي هذه القصيدة يرمز مطران (بكسرى) الى الملك المستبد وبشعب فارس الى كل شعب جاهل خانع مستضعف . وفيها يظهر مطران كرهه لكل حكم مستبد ظالم ويدعو الى الشورى والحكم العادل : ... / ...

---

١) — الديوان ١ : ١٢٠

هل مقالة الرسالة عن هذا ؟؟ يشير الى ؟

والحكم اعدل ما يكون جدالا ؟

وهو لا يلوم كسرى الذى يستبد ويتجبر بقدر ما يلوم شعبه الذى يرخي له العنان ويقف منه موقف المتفرج كانه قطيع نعاج تقاد قانعة راضية الى المذبح •

وفيها مغزى آخر هو تمجيد المراة الصارخة في وجه الظلم والاستبداد • فالصيحة جاءت من المرأة • والمرأة الشرقية لم تتعود ان يكون لها حساب فشاء مطران ان يصور ابنة بزرجمهر صورة الفتاة الثائرة على التقاليد البالية تفرض رايها وتجاهر به دونما خوف او وجل • ففي موقفها هذا جعلت الرجل يخجل من نفسه ، وضعته امام مسؤولياته ونفخت فيه روح الحماس والثورة •

هذا ما اراده مطران فقد استغل قصة من قصص التاريخ القديم وافرغ فيها ثورته ونقمته على الظلم والطغيان وحث الشعب على المطالبة بحقه والمدافعة عن حريته والفناء في سبيل كرامته •

وفي قصة (فنجان قهوة)[1] يروى قصة ملك طاغ احبت ابنته جنديا جميلا من حراسه ، وتواعدا على اللقاء سرا تحت جنح الليل ، بواسطة مربيتها ، وعند اللقاء كان ابوها الملك يجلس على هضبة • فسمع ورأى على غير علم منهما ، رآها وهي تقابله ، ورآه واقفا قبالتها كالتمثال ، ووقعت الفتاة صريعة الخوف والرهبة ، وانتهى امر الحارس بان احضره الملك وامر بان يسقى فنجانا من القهوة مسموما — وقد ادى مطران قصته هذه تادية مرسلة

.../...

---

١) — الديوان ١ : ١٤٨

لم يتقيد فيها بالقافية وان تقيد بالبحر ونجده قد جمع فيها جميع العناصر الدراماتيكية فبدأ بجو رهيب يتوائم مع المأساة ، وادار فيها حوارا نسبيا ، واوجد المازق ، وانتهى بنهاية شجيه توافق بدايتها التي هيأ لها جوا رهيبا فالبحر ساج ولا حراك ، والليل كانه قطيع نساء فلا نجم ولا سراج :

البحر ساج والسكينة سائدة والليل داج والمدينة راقدة
غمر الظلام هضابها وجبالها وقلاعها وصروحها ، فازالها
لا نجم في الافق المحجب سافر خلل السحاب ولا سراج ساهرا

وهذه القصة ايضا ماساة تنتهي بموت البطلين ، فاكثر قصص مطران الاجتماعية تدور حول الحب الذى يحال بينه وينتهي بهلاك المحبين .

وفي (فتاة الجبل الاسود)[1] ، التي يستمدها من التاريخ الحديث يصور فيها ثورة الجبل الاسود على الاستعمار التركي ، ويصور الحرب التي تدور رحاها بين الاتراك الغاصبين وشعب صغير يستميت في الدفاع عن حريته وكرامته ، ولكي لا يفتح عيون الاتراك عليه ، وهو عدوهم القديم يصور امة الترك امة باسلة متمرسة على الحروب ، وهو في تصويره هذا ، من طريق غير مباشر - يمدح اهل الجبل الاسود الذين يحاربون دولة قوية عاتية وليس ضعيفة مستضعفة ويننتصرون .

.../...

١) - الديوان ١ : ١٧٩

وما الترك الا شيوخ الحروب ومرضعوها من المولد
اذا القحوها الدماء فلا نتاج سوى الفخر والسؤدد

ولكن شعبا يدافع عن حريته لا يهاب الموت :

ولكن قوما يذودون عن حقيقتهم من يد المعتدى
وتعصمهم شامخات الجبال وكل مضيق بها موصد
ويدفعهم حب اوطانهم ويجمعهم شرف المقصد
لو الموت مد اليهم يدا لردوه عنهم كليل اليد

وبينما فريق من جنود الترك على راس منحدر نصبوا مدافعهم واحاطوا بها كالليوث اذ بفتى يافع كالغصن الرطيب يفاجئهم .

لهيب الحروب على وجنتيه والنقع في شعره الاسود

ويفرغ نار مسدسه على الاعداء ويعمل سيفه يمينا ويسارا الى ان يسقي الصخر من دمائهم . ثم تمكنوا منه وقيدوه وساقوه الى قائدهم فاصدر ان يقتلوه غداة غد :

فاقصى الفتى عن حراسه وشق عن الصدر ما يرتدى
وابرز نهدى فتاة كعاب بطرف حيي ووجه ندى
كحقي لجين بقفلي عقيق وكنزين في رصد مرصد
فكبّر لما راه الامير وهلل اشهاد ذاك الندى
وراعهم ذانك التوأمان وطوقاهما من دم الاكبد
ووثبهما عندما اطلقا بعزم الى ظاهر المجسد
كوثب صغار المها الظامئات نفرن خفافا الى مورد

يبدع مطران في وصف النهدين وتظهر مقدرته على الوصف الرائع .

وترخي ضفائر شعرها وتخاطب جنود الترك ، الذين تعودوا ان يوردوا سيوفهم مهج النساء ، طالبة منهم ان يقتلوها ويثأروا لدماء قتلاهم . وكان امير الترك يصغي لما تقوله هذه الكاعب الحسناء فاعظم نفسها واكبر بأسها ويأبى ان يقتل فتاة تدافع عن وطنها دفاع المستميت ، ويوصي بها خيرا لتعلم ان في امة الترك اخلاقا . ثم يخاطب رجاله قائلا :

انهلك شعبا غزت داره . ثقال الجيوش فلم يخلد ؟

فما بلد تفتديه النسا ء كهذا الفداء بمستعبد

و (نيرون) [1] — احدى طوال الملحميات في الشعر العربي تساق في عمد على قافية واحدة — يقدم مطران لها بقوله :

" تعلمون ان الشعر العربي ، الى هذا اليوم ، لم تنظم فيه القصائد المطولات الكبر في الموضوع الواحد ، وذلك لان التزام القافية الواحدة ، كان ، ولم يزل ، حائلا دون كل محاولة من هذا القبيل . وقد اردت بمجهود نهائي ختامي ابذله ، ان اتبين الى اى حد تتمادى قدرة الناظم في قصيدة مطولة ذات غرض واحد ، يلتزم لها رويا واحدا ، حتى اذا بلغت ذلك الحد بتجربتي بينت عندئذ لاخواني من الناطقين بالضاد ضرورة نهج مناهج اخر لمجاراة الامم الغربية فيما انتهى اليه رقيها شعرا وبيانا .

وادى التزام مطران القافية الواحدة لقصيدة بلغ عدد ابياتها ٣٢٧ بيتا الى اقحام كلمات نبشت من بطون المعاجم . امثال (اقمطرا) (طثرا) (ترّا) (يحذئرا) (القمسرا) (سبيطرى) (ازمهر) (خزرا) (مسبكرا) (ترا) (هطرا) (مسجهرا) (مصمقرا) (شزبئرا) و (اثبجرا) .

---

١) — الديوان ٣ : ٤٧

وما الى ذلك من كلام سمج كسيف ابعد ما يكون عن موسيقى الشعر .

والقصيدة تتناول قصة من قصص التاريخ الروماني القديم تدور على الطاغية الشهير نيرون الذى احرق روما بغية ان يتسلى وينظم في ذلك شعرا . فيصور مطران المنكرات التي ارتكبها نيرون من قتل امه وزوجه واحراق روما واضطهاد المسيحيين واطعامهم للوحوش الجائعة .

ومطران يشجب حكم الفرد ويلقي اللوم على الشعب المستسلم .

انما يبطش ذو الامر اذا لم يخف بطش الاولى ولوه امرا .

كان نيرون اول امره رفيقا بقومه ولكنه ما ان وجدهم مطيعين له حتى اخذ يبطش فيهم ، واول ما فعله قتل امه التي كانت قد قتلت عمه لكي توصله الى الحكم .

ثم ولى " قليقولا " الذى ولى حصانه (قنصل) على اعيان روما . ويذهب الغرور بنيرون كل مذهب فيدعي الحسن والطرب والتصوير والتمثيل والشعر حتى يحرق روما . ويبدع مطران في وصف الحريق :

زحفت رابية مضرمة تلتقيها في عناق الوهج اخرى

جمعت اقسام " روما " كلها في جحيم تصهر الاجسام صهرا

فالمباني تتهاوى والجذى تترامى والدمى تنقض جمرا

والاناسي حيارى ذهل غامروا هولا وساء الهول غمرا

ثم يصف الحريق " شعرا "وتصويرا" و" سماعا " .

ويذهب نيرون بعد ذاك يتهم النصارى بانهم هم الذين احرقوا المدينة ، والنصارى قوم مستضعفون فليقذف بهم في اشداق الوحوش الكاسرة وليكن ذلك المشهد خير تسلية للشعب .

ولم يبق لنيرون ظلم يقترفه وشر يعمله فيقضي منتحرا .

وينتهي مطران من قصيدته بموعظة رائعة :

من يلم " نيرون " ؟ اني لائم امة لو كهرته ارتد كهرا

كل قوم خالقوا " نيرونهم " " قيصر " قيل له ام قيل كسرى !

ولمطران غير القصائد القصصية الثائرة نفثات اخر لا تقل عن سابقاتها قوة وحسن اداء . ففي (السور الكبير في الصين)[1] يدير الحوار بين شاعر وملك ، فيسأل الشاعر الملك ، وقد بدا عليه شيء من الهم والكآبة ، ما سبب هذه الكآبة . فيجيب الملك بانه قد مني برعية خانعة لا الظلم يثيرها ولا هي تغضب فيريد ان يبني لها سورا يحجبها عن الناس . فيجيب الشاعر الحليم انه لو رفع الجدار حتى بلغ الكواكب فلسوف يصنع الانسان ما ينسف الجبال ويدك السور ولن تختنق الصين وتعزل عن العالم .

لقد صحت نبوءة مطران وهدم جدار الذل .

وفي (شيخ اثينة)[2] — وهو آخر منذ يرلها ايام انحلالها على ايدى الرومانيين ودخولها في اعمال دولتهم — يندب الشيخ الاثيني مجد امته ويطلب من الدهر ان يزيد في هوانه لعل ذلك يحرك الشعب المتخاذل .

فبعد ان كانت السيطرة لاثينة وكان لها العز والمجد باتت خاضعة لروما ، فهي نفحة عز وكرامة ينفخها شيخ مسن في شعبه لعله يعي ويستعيد مجده .

وفي (الاهرام)[3] تظهر ثورة مطران على الظلم فليس بيت القصيد وصف الاهرام من حيث هو ضخامة وروعة وتراكم اجيال ، انما هو رمز للظلم والاستبداد وتسخير دم الشعب لبناء جدث لفان . ويهيب مطران بهؤلاء الفراعنة ان :

.../...

---

١) — الديوان ١ : ٦٠
٢) — = ١ : ٦٤
٣) — = ١ : ١٠٤

قوموا انظروا السوقة فيما حولكم　　تدوس هامات الملوك همدا
قوموا انظروا العدو في دياركم　　يحكم فيها مستبدا ايدا .

فمطران يلقي بذور ثورة سياسية اجتماعية في هذه الابيات فالملوك الذين حكموا وطغوا وبغوا تدوس على هاماتهم السوقة . مجد الملكية مجد زائل ، لا يبقى غير وجه ربك وصالح الاعمال .

براعة مطران انه يطلب من الاموات ان ينظروا الى العدو الاجنبي المحتل يتحكم في مصر مستبدا ، هذا تقريع للاحياء وحث خفي على الثورة وطلب الحرية وخلع نير الاستعمار .

واذا قابلنا نظرة مطران الى الاهرام بنظرة شوقي (على سفح الاهرام)(1) نجد انه يخالفه تماما . شوقي يمجد الاهرام ويرى فيه عملا جبارا يخضع له ويخشع ويدعو الى تقبيله :

قل للاعاجيب الثلاث مقالة　　من هاتف بمكانهن وشاد
لله انت فما رايت على الصفا　　هذا الجلال ولا على الاوتاد
لك كالمعابد روعة قدسية　　وعليك روحانية العبّاد
اسست من احلامهم بقواعد　　ورفعت من اخلاقهم بعماد

× × ×

... قم قبّل الاحجار والايدى التي　　اخذت لها عهدا من الاباد

من هنا كان مطران رائد الشعراء الاحرار .

وفي (الطفلة البويرية)(2) ـ وقد نظمت في اول الحرب بين بريطانية والبوير ـ يصف الشاعر طفلة ترى والدها مضطربا وامها تبكي دون ان تعرف السبب فتنام لتنهض في الغد وتعلم بان اباها سار الى الحرب وان قوما من الغاصبين جاءوا ليفنوا امتها .../...

---

1) ـ الشوقيات　١ : ١٣٥
2) ـ الديوان　١ : ١٦٢

ويسلبوا ما عندها من ذهب ، فتهب امة البوير وهي القليلة العدد والعدة لتدفع جيشا عظيما مدربا ومجهزا . علمت الفتاة كل ذلك ولما جاء المساء ركعت كالملاك بالقرب من سريرها تسأل الله وتضرع له ان يحمي اباها وينصر قومها .

هذا شعب تحق له الحياة ، كلهم جنود لدرء العدوان لا فرق بين رجل وفتاة حتى اطفالهم تضرع الى الله ان يحمي لهم وطنهم .

وفي (حرب غير عادلة ولا متعادلة بين امة كبيرة وامة صغيرة) [١] يخاطب الشاعر نفسه ويهيب بقلمه ان يكون بجانب المظلوم :

فيم احتباسك للقلم	والارض قد خضبت بدم ؟
سدد قويم سنانه	في صدر من لم يستقم
نبه به ام الزوا	ل فعله يحيي الرمم

وهو يدعو ابناء وطنه بان يقوم كل واحد منهم بواجبه نحو وطنه .

فالشعب الخانع لا امل له بالحياة .

وهو معجب برئيس الدولة الصغيرة يهب مع شعبه للدفاع عن الوطن وقد تغلبوا على اعدائهم وعفوا عنهم . ولكن العدو ما يلبث ان يجرد حملة هائلة ويشن غارته على حين غره فينكل فيهم شر تنكيل .

فيسخط على الظالمين ويغبط من مات في سبيل حريته .

و(في استئناف حرب جائرة) ، بين امة كبيرة وامة صغيرة[٢] يمجد بطولة الدولة الصغيرة المستضعفة التي استطاعت ان تقف في وجه امة كبيرة عاتية .

وينتهي الشاعر وهو يقرّع مصر، مصر العزيزة على قلبه، ليت (مينا) يرى كيف تحيا امته ذليلة مستضعفة . ثم يصور حالتها وفساد مجتمعها احسن تصوير :

.../...

---

١) - الديوان ١ : ١٧١
٢) - = ١ : ٢٥٤

كيف يقوى معشر عدتهم هزلهم، والمشرفيات، النكات ؟
ابخوف الغول يرجى عندهم خلق البأس وترجى العظمات ؟
ام بآداب والحان يهي معها العزم وتقوى الشهوات ؟
فارفع الصوت وايقظهم فقد طال عهدا بهم هذا السبات
ما « لمصر » شبه قبر واسع منذ فرعون، ومن فيها رفات ؟

وفي (اقوال صريحة)(١) يهيب ببني الشرق ان يتنبهوا ويستفيقوا ويلقوا عنهم الترهات :

بني الشرق فلنفقه حقيقة حالنا لننجو او يقضى القضاء المحتم
يصول علينا الجهل غير مدافع بجيش له في كل ربع مخيم
ويعوزنا الاخلاص في كل مطلب ويعوزنا الخلق المتين المقوّم
افي ظنكم ان المحاق يزيله عزيف بالات وغوغاء تنأم ؟
اشرط المعالي ان نقول « بودنا » ويمنع ازماع ويحبس درهم ؟
الى اى حين في ونى وتقاعس تدفعنا الدنيا اماما ونحجم ؟
الى اى حين في قلى وتخاذل وشمل شتيت والعدى تتحكم ؟
الى اى حين والصروف زواجر نعيش كما يقضي علينا التوهم ؟

وفي (مقاطعة)(٢) التي نظمها على اثر اضطهاد الاحرار وتسليط قانون المطبوعات على الافكار :

شردوا اخيارها بحرا وبرا واقتلوا احرارها حرا فحرا
انما الصالح يبقى صالحا آخر الدهر ويبقى الشر شرا
كسروا الاقلام هل تكسيرها يمنع الايدى ان تنقش صخرا ؟
قطعوا الايدى هل تقطيعها يمنع الاعين ان تنظر شزرا ؟
اطفئوا الاعين هل اطفاؤها يمنع الانفاس ان تصعد زفرا
اخمدوا الانفاس هذا جهدكم وبه منجاتنا منكم ... فشكرا !

١) — الديوان : ٢ : ٧ — ٢) — الديوان ٢ : ٩

ولما انتشرت هذه الابيات انتشار النار في الهشيم ووصلت الى رياض باشا رئيس الوزارة المصرية في ذلك الحين توعد الشاعر بالنفي ة من مصر ، فاجابه مطران بعنوان (تهديد بالنفي)[١]

انا لا اخاف ولا ارجي فرسي موهبة وسرجي

فاذا نبا بي متن بر فالمطية بطن لج

لا قول غير الحق لي قول وهذا النهج نهجي

الوعد والايعاد ما كانا لدي طريق فلج

ففي هاتين المقطوعتين نجد مطران يهاجم الظالمين معرضا نفسه للنفي والاضطهاد دون خوف او وجل ٠

و (في ظل تمثال رعمسيس)[٢] نرى ان الملك العاتي ينعم على شقاء شعبه ، فالشعب الذى يوصل ملكه الى المجد لا يجني غير الفناء والشقاء وخمول الذكر ٠

مسخرا قومه طرا لخدمته وما بغى ، رب سوء محض احسان

بحيث آب وكل الفخر حصته ولم يؤب غيره الا بحرمان

كم راح جمع فدى فرد وكم بذلت في مشترى سيد ارواح عبدان

لموقع الامر فيهم كل تكرمة ومنفذ الامر فيهم كل نسيان

وفي (اللبن والدم)[٣] يصور مطران اميرا ظالما قدم له طعامه وهو لبن فما ان مد اليه يده حتى تحول الى دم احمر واذ بصوت هو نذير الغيب يخبره بان هذا انذار له كي يكف عن بغيه وظلمه ٠

وبعد هذا العرض لشعر مطران الذى يعبق بالحرية لا اجدني مضطرا لسياق اى دليل وذكراية حجة واضافة اى برهان ٠

---

١) ـ الديوان ٢ : ٩ ـ ١٠) ٢ـ) الديوان ٢ : ١٧٥ ـ ٣) ـ الديوان ٤ : ٨٣

وخلاصة القول ، ان قصص مطران الشعرية هي صور من الحياة البشرية بعضها واقعي واكثرها محتمل الوقوع يلونها خيال الشاعر الخلاق كيفما يشاء . ومطران في شعره القصصي هذا يراعي القصة من عرض وعقدة وحل ويتقيد بها في اكثر الاحيان . ويلجأ احيانا الى المفاجأة كما في " فاجعة في هزل " حيث يظن ان الفتى حي يتظاهر انه ميت فاذا هو ميت حقا ، وفي " فتاة الجبل الاسود " حيث ينقلب الشاب المهاجم الى فتاة . وان يكن ينحا في بعض قصصه منحى كلاسيكيا بحيث يحافظ على وحدة العمل ووحدة الزمان كما في " فتاة الجبل الاسود " فهو في اكثر قصصه رومانتيكي يمزج بين الواقعية والخيال . " فنجان قهوة " " الجنين الشهيد " " مصرع بزرجمهر " " نيرون " ، وغيرها .

ومما يراه ادهم(1) " ان الحياة تندمج في وجدان الخليل من وجهها العام ، الذى يشترك فيه كل الاحياء . وهذا يثبت ان نظرة مطران رغم عمقها واتساعها فهي لا تزال نسبية لا تصل الى ابعد من رواية الحياة العامة الكلية ممثلة في شخصه . بيان ذلك انه ينطق في قصصه الشعرية الشخوص على اساس اعارته شخصيته لهم ، ولهذا تبقى شخوص قصصه ناقصة من حيث انها لا تدل على الا انماط خاصة وشخصيات خاصة تنتهي شخصياتها الى الجزئيات والتفاصيل التي تتقوم بها ، والتي تختلف باختلاف الافراد " .

وعنصر التصوير ظاهر في قصص مطران فالالوان مضبوطة بقدر والاشكال منقولة بقوة ، والحركة ملائمة للسرد والعرض والحوار ، ذلك واضح في " فتاة الجبل الاسود " " فنجان قهوة " " غرام طفلين " و " نيرون " وغيرها .

.../...

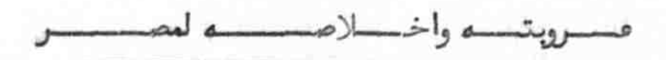
---

1) — ادهم ص ١٣٣

ومطران في شعره القصصي يؤمن بالفضيلة ويدعو لها، وهو ينزع نحو التعليم والتهذيب " الجنين الشهيد " . " وفاء " . وهو شغوف بالمآسي فكثيرا ما تنتهي قصصه بمأساة فيموت البطل او البطلان . " وفاء " " فنجان قهوة " " الطفلان " .

ويميل مطران احيانا الى التحليل في قصصه فيحلل شخصياته تحليلا نفسيا واف كما في " الجنين الشهيد " حيث يصور الصراع الذى يجول في نفس الفتاة .

والحب والبطولة يذهبان بنصيب كبير من شعره القصصي ، وشعره هذا على العموم متين السبك حسن الديباجه .


عروبته واخلاصه لمصر

عروبته واخلاصه لمصر.(١)

والى جانب هذا التفرد بالتنديد بالملوك الطغاة، فقد كاد يتفرد ايضا بالاشادة بالعروبة، ولم يقف حبه على وطنه الاول لبنان، ولا على وطنه الثاني مصر، بل امتد الى جميع البلاد العربية فاستحثها على مناهضة الاجنبي الدخيل لتخلص لها قوميتها ويعود اليها مجدها العتيد وفي ذلك قوله :

داع الى العهد الجديد دعاك	فاستأنفي في الخافقين علاك
يا امة العرب التي هي امنا	اي الفخار نميته ونماك
يمضي الزمان وتنقضي احداثه	وهواك منا في القلوب هواك

وبز مطران النظراء في مناصرته قضايا الحرية في البلاد العربية، وتفرد بالحملة على حكم الملوك الظالمين والحكام الجائرين . وله في هذه الناحية قصائد رائعة تعد فخرا للعربية. ففي حين كان شوقي وحافظ في شبابهما يترنمان بذكر السلطان عبد الحميد كخليفة للمسلمين، كان مطران في شبابه يحمل عليه، وعلى جوره واستبداده.

ويرى المقدسي (٢) "انه لم يكن القطر عربي من الاسباب الممهدة لظهور ادب قومي عربي النزعة ما كان لمصر في القرن التاسع عشر فهي اسبق البلدان العربية الى انشاء وحدة ادارية ذاتية، بل هي اول مكان بعثت فيه الروح العربية الاستقلالية."

ثم يقول : "واذا قلنا ان الادب المصري كان متشبعا بروح التشيع للخلافة والجامعة العثمانية فحكمنا يتناول المصريين الاصليين ولا سيما المسلمين منهم. اما نزلاء مصر من السوريين فكانوا فئتين متطرفتين، فئة تجاري المصريين في عثمانيتهم، وفئة تنكر عليهم هذا الاندفاع نحو تركيا.

ومن الفئة الاولى خليل مطران : اذ تتجلى النزعة العثمانية في شعره وفي ادب مطران وسيرته ما يدل على مجاراته الوطنيين المصريين في آمالهم ونزعاتهم . فلا نستغرب ان نسمعه في قصيدته (فتاة الجبل الاسود) يقول :

---

(١) كتب هذا الفصل بعد استمزاج رأي الاستاذين فؤاد صروف واميل الخوري.
(٢) المقدسي، انيس الخوري — العوامل الفعالة في الادب العربي الحديث ص ١٥٩

وما الترك الا فحول الحروب	رضيعو لظاها من المولد
اذا لقحوها الدماء فلا	نتاج سوى الفخر والسؤدد
سواء على المجد ايا تكن	عواقب مسعاهم تحمد (١)

وتظل هذه الحماسة فيه الى زمن متأخر كما نرى في القصائد التي يذكر فيها حرب طرابلس الغرب وبعثات الهلال الاحمر — ففي هذه وما يماثلها يظهر ميله العثماني وتشيعه لوطنيي مصر. " ومما يقوله ادهم (٢) ان مصر كانت في عهد الخديوى عباس حلمي الثاني (١٨٩٢ — ١٩١٤) ملتقى آمال شباب العرب وملجأ احرار العثمانيين . ذلك ان مصر كانت قد نالت في ظل الاحتلال الانكليزى شيئا من الحرية ظهرت آثارها فيما كان يتمتع به المصريون في ذلك العهد من الحرية الشخصية التي لم يكن يتمتع بها المواطنون العرب والترك خارج مصر في كل الدولة العثمانية . وقد هاجر الى مصر من سوريا ولبنان جمهور كبير في تلك الفترة تخلصا من الجو الخانق الذى تعيش فيه شعوب الدولة العثمانية ."

" وكانت مصر مسرح العاملين في الحقلين : حقل الجامعة العثمانية وحقل الوحدة العربية ، على اننا يمكننا ان نقول ان المجرى العثماني كان غالبا في مصر حتى اعلان الدستور في انحاء الدولة العثمانية عام ١٩٠٨ ."

ومطران الذى شاهدناه في شبابه يهاجم السلطان التركي ويثور على جور الترك واستبدادهم ببني قومه في لبنان وشاهدناه يعمل بجانب جمعية " تركيا الفتاة " في باريس ويشاركها في المطالبة باصلاح شؤون الدولة التركية . ومهاجمة السلطان عبد الحميد تشاء الصدف ان ينزل مصر في اول حكم الخديوى عباس حلمي الثاني سنة ١٨٩٢ فيقدمه له بشارة تقلا باشا ويساعده شوقي فيما بعد على التقرب من الخديوى فتوثق الصداقة بينهما ويرافق مطران الخديوى في سفرته الاولى الى تركيا حوالي سنة ١٨٩٣ . وكذلك تحسن صلة مطران بوالدة الخديوى ام المحسنين . وكان الخديوى ، كما كانت والدته ، تركي الهوى يميل الى مشايعة السلطنة العثمانية ويكره الانجليز . فلهذا وجه مطران نفسه مجاريا للشعور المصرى العام وخاصة شعور عباس حلمي الثاني في التشيع نحو تركيا . ولكن تشيع

---

(١) بينت في مكان آخر ان القصد من هذا الشعر اظهار بطولة " الجبل الاسود " اكثر مما هو مدح للاتراك

(٢) ادهم ص. ٧١

مطران هذا كان تشيعا معتدلا . فلم يكن مطران مؤمنا بالمجد التركي ولم يكن يقول بالخلافة العثمانية شأن المتعصبين لذلك فهو يعرف كل معايب الحكم التركي وافساد انظمته، ولكن قوله بالعثمانية كان بمثابة كسب شرعي للحصول على جلاء الانجليز. ففي مصر في ذلك الحين ، كان الطاغية المحتل الانجليز وليس الاتراك وكان القول بالعصبية العثمانية السبيل الوحيد للتخلص من حكم الانجليز.

ويقول الرافعي [(١)] "ان مركز مصر الشرعي لغاية الحرب العالمية كانت تحدده معاهدة لندن المبرمة سنة ١٨٤٠ ، والتي تعتبر صكا دوليا التزمت الدول باحترامه واهم احكام هذه المعاهدة الاعتراف باستقلال مصر المكفول من الدول ، وضمان عرش مصر في اسرة محمد علي ، وبقاء السيادة العثمانية عليها ، وفي سنة ١٨٨٢ وقع الاحتلال البريطاني فعصف بالاستقلال المعترف به لمصر في تلك المعاهدة ، ونزل بها الى مرتبة المستعمرات التي للحاكم العام البريطاني فيها مطلق التصرف في شؤونها ، فلما قام مصطفى كامل يدعو دعوته الوطنية كان واجبا عليه ان يحصر جهاده ضد الاحتلال البريطاني ، لانه رأى بحق ان الجلاء هو الرمز الحقيقي للاستقلال ، اما السيادة العثمانية فان التخلص منها من ايسر الامور بعد التخلص من الاحتلال — وبخاصة لان هذه السيادة قد تراخت مع الزمن وكانت سائرة من نفسها نحو الفناء."

ويقول بعد ذلك [(٢)] ان موقف مصطفى كامل من السيادة العثمانية كان موقفا قوميا حكيما ، وهو يشبه موقفه تجاه الامتيازات الاجنبية ، فلم يكن ينادى بالغائها بل كان يقول باحترامها ، لكي لا يستعدى الدول والجاليات الاجنبية في الوقت الذى يجاهد فيه الاحتلال ، وهو بذاته موقف "الوفد المصرى ، تجاه الامتيازات الاجنبية."

وخلاصة القول ان فكرة العروبة حتى زمن مصطفى كامل لم تكن قد تبلورت في الاذهان ، وهي لم ترسخ الا على زمن سعد زغلول.

فقد بات واضحا ان الروح التحررية في ذلك العهد ، اى على زمن عباس حلمي الثاني كانت متصلة اتصالا وثيقا بتركيا وكان التودد الى تركيا هو الحجة للتخلص من حكم الانجليز. لم يكن في كتابات مطران في الاهرام وقت ذاك اية دعوة لتركيا وانما كان يتخذ من مهادنته لتركيا ذريعة للمطالبة بجلاء الانجليز.

---

(١) الرافعي عبد الرحمن — مصطفى كامل ص. ٣٣٧

(٢) " " ص. ٣٤٠

مطـــران هـــذا كان تشيعـــا ~~حسنا كما يقولون~~ معتدلا • فلم يكـن مطـــران مؤمنا بالمجـد التركـي ولم يكـــن يقـول بالخلافة العثمانيـــةشأن المتعصبين لذلك فهـو يعـرف كل معايب الحكـم التركي وافساد انظمتـه، ولكـن قـولـه بالعثمانيـة كان بمثابـة كسب شرعي للحصـول علـى جـلاء الانجليز • ففـــي مصـــر في ذلك الحين ، كان الطاغيـة المحتل الانجليز وليس الاتراك وكان القـــول بالعصبيـة العثمانيـــة السبيـل الوحيد للتخلص من حكم الانجليـز •

ويقـــول الرافعي (١) "ان مركـز مصـر الشرعي لغايـة الحـرب العالميـة كانت تحددە معاهـدة لندن المبرمـة سنـة ١٨٤٠ ، والتي تعتبر صكـا دوليا التزمت الـدول باحترامه واهم احكام هـذە المعـــاهدة الاعـتراف باستقلال مصـــر المكفول من الـدول ، وضمان عرش مصـر في اسرة محمد علـي ، وبقاء السيادة العثمانيـــة عليها ، وفي سنـة ١٨٨٢ وقع الاحتلال البريطاني فعصف بالاستقلال المعترف بـه لمصـر في تلك المعاهـــدة ، ونزل بهـــا الى مرتبة المستعمرات التي للحاكم العـــام البريطاني فيها مطلـق التصرف في شؤونهـــا ، فلما قـام مصطفى كامل يدعو دعوتـه الوطنيـــة كان واجبا عليـه ان يحصر جهادە ضد الاحتلال البريطاني ، لانه رأى بحق ان الجلاء هـــو الرمز الحقيقي للاستقلال ، اما السيادة العثمانيـــة فان التخلص منها من ايســـر الامـــور بعد التخلص من الاحتلال — وبخاصـة لان هـذە السيادة قد تراخت مع الـزمن وكانـت سائـــرة من نفسها نحو الفنـــاء •"

ويقـــول بعد ذلك (٢) ان موقـــف مصطفى كامـل من الســـيادة العثمانيـة كان موقفـا قوميا حكيما ، وهو يشبه موقفـه تجاه الامتيازات الاجنبيـــة ، فلم يكـن ينادى بالغائها بل كان يقول باحترامهـــا ، لكي لا يستعدى الـدول والجاليـات الاجنبيـة في الوقت الـذى يجاهـد فيـه الاحتـــلال ، وهـــو بذاته موقـف "الوفد المصـرى ، تجاه الامتيازات الاجنبيـــة •"

وخـلاصـة القـــول ان فكـرة العـروبة حتى زمن مصطفى كامل لم تكـن قد تبلورت فـي الاذهـــان ، وهي لم ترسخ الا على زمن سعد زغلـــول •

فقـد بات واضحا ان الـروح التحرريـــة في ذلك العهـد ،اى على زمن عباس حلمـي الثاني كانت متصلـة اتصالا وثيقا بتركيا وكان التـودد الى تركيا هـــو الحجة للتخلص من حكم الانجليز • لم يكـن في كتابات مطـــران في الاهـــرام وقت ذاك اية دعوة لتركيا وانما كان يتخـذ من مهاجمته لتركيا ذريته للمطالبـة بجلاء الانجليـز •

---

(١) الرافعي عبد الرحمن — مصطفى كامل ص• ٣٣٧

(٢) " " ص• ٣٤٠

ومن الصواب ان نقول ان مطران كان يهاجم الانجليز ويطالب بجلائهم عن مصر . وموقفه منهم كان على العموم موقف مصري مناهضة الاحتلال وكل ما يتفرع عنه من تدخل في شؤون مصر وتوجيه سياستها .

وقد كان ذلك من اسباب عطف عباس حلمي عليه ، اما موقفه من فرنسا فكان محاولة الاستفادة من مناوأتها للاحتلال البريطاني لمصر . غير ان موقف فرنسا هذا تحول سنة ١٩٠٤ فقد تم الاتفاق بينها وبين انكلترا في (التحالف الودى) الذى تنازلت بموجبه انكلترا عن كل مصالحها ومطامعها في المغرب لقاء تنازل فرنسا عن كل ما كانت تدعيه من حقوق في مصر . ففقد طلاب الاستقلال "صديقاً" كانوا يحاولون الاستفادة من مناوءته للانكليز ولم يبق لهم غير الالتفات نحو تركيا .

ليس في شعر مطران ما يدل على انه شايع الفرنسيين . يقول الاستاذ صروف[1] انه فيما يعرف ، لا يوجد اى دليل لا في شعر مطران ولا في سيرته على مجاراته لسياسة فرنسا في الشرق . ولكن هذا لا يمنع ابدا انه كان متأثرا بادبها وانه في شعره وفي حياته كان يكرم شخصيات فرنسية كما كان يكرم غيرهم .

غير ان تشيع مطران لتركيا كان متزنا ومقرونا بالرغبة في المطالبة باصلاح حال الدولة التركية التي كانت تلقب بالرجل المريض لما اصابها من فساد وانحلال بسبب رداءة الحكم وجور الحكام . وقد ثار مطران على هذا الظلم وهاجم السلاطين المستبدين والحكام العتاة متسترا بستار التاريخ حينا مستغلا قصص الظالمين او مبتدعا شعرا قصصيا يهاجم فيه الطغاة الظالمين ايا كانوا دون تسمية اوتعريض .

وعلى كل حال لم تكن دعوة مطران الى العصبية العثمانية قوية مثل دعوة زميله شوقي ذلك لان مطران لم يكن مسلما فيدعو الى خلافة السلاطين الترك هذا على الرغم من انه كان عربيا ، ولم يكن يتعصب لدين .

ولم يكن يجرى في عروقه دم تركي كما كان يجرى في عروق شوقي . ومن سيرته يتضح انه كان ثائرا على السلطنة التركية ، في شبابه ، لفساد حكمها وجوره ، هاجمها في لبنان وعمل ضدها في باريس. ومن اسباب ذلك ايضا انه كان محبا للحرية ، داعيا

---

(١) صروف فؤاد من حديث معه .

للثورة على الاستبداد والاستعمار، كارها الظلم والظالمين مومنا بحق كل انسان زنجيا كان او ابيضا في ان يكون سيدا في وطنه. فكيف ينساق في ركاب دولة كانت سببا من اسباب الظلم والاستعمار، في هذى الديار؟. وهو يدافع عن المظلوم ايا كان حتى ولو كانت تركيا نفسها. لهذا نراه يقف بجانبها حين اعتدى عليها من قبل الطليان الذين ارادوا ان يسلخوا منها طرابلس الغرب.

واخيرا فاذا ساير مطران شعور المصريين المتشيعين لتركيا في قليل جدا من شعره فلا يعني ذلك ان حبه لتركيا حب اصيل فقد كان لا يدع فرصة حتى يهاجم رجالها الطغاة وعلى رأسهم جمال باشا.

ومما يسند هذا الرأى قول الدكتور محمد حسين [1]: "ثم ارتكب الرجل الفظ (جمال باشا) الذى كان من اكثر الاتحاديين تطرفا في عصبيته الطورانية فعلته الحمقاء حين بطش بمن وصلت اليهم يده من زعماء العرب، بعد ان شرد ضباطهم وفرقهم في مختلف الميادين، فذهبت فعلته هذه بالبقية الباقية من اخلاص العرب للترك. وخيم على العرب حزن عميق ثائر، تجد صورة منه في قول خليل مطران في (دمعة على الشام ايام الطاغية جمال) [2]

يرقى الذرى ويعيش مغتبطا	شعب على اعدائه خشن
شعب يحب بلاده، فأذا	هانت فما لبقائه ثمن
تبكي العيون "الشام" راسفة	في القيد محدقة بها المحن
اتعز امصار بفتيتها	وتهون تلك بهم وتمتهن
اشقى اليتامى في مرابعه	شعب يعيش وماله وطن

في ١٩ ديسمبر سنة ١٩١٤ خلع الانكليز الخديوى عباس حلمي الثاني وولوا السلطان حسين كامل. فزاد ذلك في كره الانكليز وقوى الدعوة الى المطالبة باستقلال مصر والقول بأن مصر للمصريين. وبعد تلك السنة تلاشى تشيع مطران لتركيا بسبب خلع عباس والتنكيل الذى اصاب العرب من المسوؤلين الاتراك وخاصة جمال باشا.

---

(١) حسين الدكتور محمد . الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ج ٢ ص. ٩١

(٢) الديوان ٢: ص: ٢٠١

فاذا لم يكن مطران من دعاة الخلافة العثمانية المتحمسين فقد كان اول الداعين الى العروبة ومن ذلك قوله مخاطبا شوقي في حفلة تكريمه ومبايعته بامارة الشعر في القاهرة (مبايعة شوقي)[1]

يا باعث المجد القديم بشعره	ومجدد العربية العرباء
اليوم عيدك ، وهو عيد شامل	للضاد في متباين الارجاء
في "مصر" ينشد من بنيها منشد	وصداه في "البحرين والزوراء"
عيد به اتحدت قلوب شعوبها	ولقد تكون كثيرة الاهواء
كم ريم تجديد لغابر مجدها	فجنى عليه تشعب الآراء ؟

ونرى مطران يهب في شعره للدفاع عن طرابلس الغرب يوم اعتدى عليها الطليان (وفي هذا تشترك عروبته وعثمانيته)

(لاعانة طرابلس) ج ٢ ص ٦٧
(عتاب واستصراخ لمعونة طرابلس) ج ٢ ص ٧١
(الهلال الاحمر) ج ٢ ص ٧٩
(بعثة من الاطباء الى ميدان القتال بطرابلس ج ٢ ص ٨٥
(الشهيد الطرابلسي عمر المختار) ج ٤ ص ٨١

ويثور لنكبة دمشق :

(اعانة دمشق) ج ٢ ص ٤
(دمعة على الشام) ج ٢ ص ٢٠١
(نكبة دمشق) ج ٣ ص ١١٣

ويدعو لاعانة منكوبي الاناضول :

(اعانة منكوبي الاناضول) ج ٢ ص ١١٩

ولبنان وطنه الاول له نصيب من العطف في شعره

---

(١) الديوان ٣: ٢٣١

(اعانة بيروت) ج ٢ ص ١٢١

(مجاعة لبنان) ج ٢ ص ٢٠٢

(عيد استقلال لبنان في اميركا) ج ٢ ص ٢١٩

(كارثة كوكب الشرق في بيروت) ج ٤ ص ١٨٦

وقل مثل ذلك على مصر والسودان وذكره لملوك العرب من فيصل وسعود وسواهما .

ويقول بشير فارس[1] ان الخليل رتل نصف قرن انغاما فيها طي الحياء ونشر الشجاعة ، وفيها قبض الحذر وبسط النصيحة . ويا لها من انغام مكنت في اعتقادنا ان الاخلاص حلو ، وان الوفاء احلى ، وان العروبة الشهمة ذمة في اعناقنا شرف لا لسنتنا ، وان مصر باب من ابواب الجنة .

ولم تكن دعوة مطران الى العروبة دعوة سياسية فحسب ولكنها قد شملت ايضا اللغة العربية التي ارادها ان تتجدد وتساير روح العصر في ذلك يقول[2]:

لنعش معاش زماننا ولننتهز	فرص النجاح نفز به أو نسلم
لن ترجع العربية الفصحى الى	ما كان منها في الزمان الاقدم
ما لم يعد ذاك الزمان واهله	والعاد والاخلاق حتى جرهم
للجاهلي لسانه ، ومن الذى	ينفي من الفصحى لسان مخضرم ؟
ان التجدد للسان حياته	ومن الذى يحييه غير المقدم ؟
في عصرنا للضاد فتح باهر	ريدت به فخرا ، فهل من مأثم ؟
من فرق الاخوين يستبقان من	طرق لرفعتها ، اليس بمجرم ؟

ومثل ذلك قوله في (عتب اللغة العربية على اهلها)[3]

سمعت بأذن قلبي صوت عتب	له رقراق دمع مستهل
تقول لأهلها الفصحى : اعدل	بربكم اغترابي بين اهلي ؟
الست انا التي بدمي وروحي	غذت منهم وانمت كل طفل ؟

---

(١) فارس، الدكتور بشر الاديب مجلد ٨ عدد ٨ (١٩٤٩) ص ٢

(٢) الديوان ٣: ص ٣١

(٣) الديوان ٤: ص ٦٥

انا العربيـة المشهود فضلـي ... أألغـد واليوم ، والمغمور فضلـي ؟
اذا ما القوم باللغـة استخفوا ... فضاعت ، ما مصير القوم ؟ قل لـي
وما دعوى اتحاد في بـلاد ... وما دعوى ذمار مستقـل ؟

ونظرة مستوعبة الى شعر مطـران تظهر لنا ان شعـره دار حـول : الاشادة بحب مصـر ، ومشاهـدها ، وآثارهـا ، وتاريخهـا ، كما تناول احداثها السياسيـة الكبيرة ، والتغنـي بحريتهـا والدعوة الى حكـم الشـورى وتمجيـد الوطنيين والمجاهدين والادباء والمفكريـن والمنادات بالاصـلاح الاجتماعـي والحث على طلب العلـم وحفز الهمم ، الى عواطـف البر والرحمة والاحسـان .

فقـد كان مطـران موزع الهـوى بين وطنـه الاول لبنـان ، الذى فارقـه وهو في مقتبل العمـر ولم يعد اليـه الا مـرات معدودات زائـرا فكان يلقى الترحيـب والاكـرام ، ووطنه الثاني مصـر الذى عـاش فيـه ٥٧ عاما وغنـاه في شعـره واكبره ووصفـه ودافـع عنه ومجد ابطاله :

مصـر كهـف الاحـرار في كل عصـر ... وملاذ المروعين الابـاة ! .

فقـد عاش مطـران في مصر عيشة هنيئـة وكان راضيا مرضيـا . فهـو بين اهله ، والكل يحبـه ويخلص لـه ويحترمـه فقـد استطاع مطـران بفضـل شخصيتـه المحببـة القريبـة من كل قلـب ان يكسب صداقـة الجميـع .

ولست اجارى هنـا الدكتـور ادهـم في حديثـه عن خمـول ذكـر مطـران [1]: " ... وحـين نتكلم عن هـذا الخمول ، فانما نتكلم عن حقيقـة لا يتنازع في شأنهـا . فالرجـل خامـل الذكـر ، لان ذكـره على الوجـه الذى هو عليـه بمصـر ، اضعف من ان يتسق مع خصائـص شاعريتـه التي لو وجـدت في واحـد من الـذين ينتهزون الفـرص ويحسنون خوض معـارك الحياة ، لبلـغ من ذيـوع ذكره وشيوع شعـره مبلغـا لا يدانيـه احـد من معاصرى الخليـل ... على ان هنـاك اسبابا اخـر وقفت في وجـه الرجـل وذيوع ذكـره اجتمـع فيها العامـل العنصـرى مع العامـل الدينـي ."

قد لا يكـون من طبيعـة مطـران السـعي في طلب الظهـور والتودد من اصحاب الشأن ليكتسـب شهرة على شهـرة ومكانـة على مكانـة .

---

(١) ادهـم ص: ٥٠ — ٥١

اما ان نقول ان مطران كان خامل الذكر فهذا كلام مبالغ فيه . الا اذا قصدنا ان نقارنه بشوقي . فشهرة شوقي كما ذكرت سابقا تعود لكونه (شاعر البلاط) وشعره اقرب الى ذوق الشعب وفهمه لغنائيته فقد غنته ام كلثوم وغناه عبد الوهاب وغيرهما فذاع على كل شفة ولسان ، ولان شعر شوقي اسهل واقرب الى الذوق العام من شعر مطران الصعب . الذى في فهمه مشقة الا على المثقف ثقافة عصرية واسعة .

وهذا ما يشرحه الدكتور طه حسين بقوله : (١) "يجب ان نكون منصفين ، وان نعترف بأن من شعرائنا من تكره طبيعتهم هذا الكسل وتميل الى القراءة والدرس والتفكير وتحب ان تظهر آثار هذا كله في شعرها ولكن هؤلاء الشعراء لا يجدون من قرائهم تشجيعا ، ولا يرون من اقرانهم الشعراء الا حسدا وحقدا وحربا شعواء تعلن عليهم جهرا مرة ومن وراء الاستار مرة اخرى . و هؤلاء الشعراء ليسوا كثيرين اذكر في مصر منهم خليل مطران . ولكن كثرة القراء توثر على شعر هؤلاء شعر شوقي وحافظ وهي توثر هذا الشعر لان حظه من التفكير قليل فيقف الشعراء من قرائهم موقفين مختلفين : فاما ان يذعنوا لهؤلاء القراء ليروج شعرهم ويثبتوا لمنافسة خصومهم ، واما ان لا يحفلوا بالقراء ولا بالخصوم ويمضوا في مذهبهم الشعرى لانهم يقولون الشعر لانفسهم قبل ان يقولوه للناس، ومن الذين يذعنون للقراء فيسيئون الى انفسهم والى الشعر ويوخرون تطور الشعر ، تأخيرا عليهم اثمه : مطران . فانا اعرفه من اشد الناس ميلا الى القراءة والدرس، ومن احرصهم على ان يكون شعره مظهرا لعقله وخياله معا . وقد قرأت له شعرا اشهد اني لم اقرأ مثله لشعرائنا الذين يخلبون الناس ببهرج اللفظ وزخرف الاسلوب . ولكنه يحس من قرائه فتورا ، ومن اقرانه اعراضا وازدراء فيجارى اقرانه ويقول من الشعر مثلما يقولون ، فلا يبلغ من الزخرف والبهرج والفتنة الكاذبة ما يبلغون ."

اما ان نقول ان العامل العنصرى والعامل الديني اشتركا في خمول ذكر الشاعر فهذا غير صحيح لان مطران ما تذمر ابدا وما تحدث قط بانه كان مضطهدا . فجميع الذين عاصروه يعرفون انه كان مقربا من جميع الاسر المصرية والشخصيات السياسية سواء

---

(١) طه حسين شوقي وحافظ ص. ١٤٧ — ١٤٨

كانت مصرية الاصل ام متمصرة . ومن يستعرض ديوانه يجد انه نظم شعرا كثيرا في افراح واحزان هؤلاء ، لانه كانت تربطه بهم علاقة وصداقة وحب واحترام متبادلين . هذا ما جعله يحرص في ان يبقي شعر المناسبات ، الذى كان نتيجة هذه الصداقات ، في ديوانه ويرد طلب اللجنة المشرفة على طبع الديوان التي ارتأت حذفه .(١) فهو يهنيء سمو الخديوى عباس ويرثي والدته ام المحسنين . ويهنيء بزفاف الوجيه عمر سلطان بك ويرثي الشعراء والادباء الكبار امثال البارودى وصبرى وشوقي وحافظ . ويرثي أعلام الحرية وقادة الفكر امثال مصطفى كامل وسعد زغلول ومحمد فريد وقاسم امين والشيخ محمد عبده ويهنيء بعضهم في مناسبات شتى . ويرثي عمر لطفي بك وادهم باشا ويعزى عبد العزيز فهمي باشا . ويرثي محمد تيمور بك ، ومحمد ابو شادى بك ، واحمد لطفي بك ويحيي سمو الامير يوسف كمال . وله في عودة الامير عمر طوسون . ويرثي اسماعيل اباظة باشا ويكرم مصطفى ماهر باشا ويرثيه ويهنيء بشفاء سمو الامير كمال الدين حسين ويرثيه . وله في تأبين عبد الخالق ثروت باشا وتهنئة الدكتور علي ابراهيم باشا . وتأبين حسين رشدى باشا وعدلي يكن باشا . وفي تكريم محمد حسين هيكل ورثاء اسماعيل شيرين باشا وتحية مصطفى النحاس باشا وجلالة الملك فاروق وتهنئة آل تقلا والصيدناوى وغير هؤلاء كثير .

وبالاضافة الى ذلك فان الحفلة التكريمية التي اوعز الخديوى باقامتها لتكريم الشاعر سنة ١٩١٣ والمهرجان الكبير الذى اقيم لتكريمه سنة ١٩٤٧ والاوسمة والرتب التي منحت له لاكبر دليل على ان الشاعر ما كان قط خامل الذكر .

يجد د مطران ولاءه لمصر وحبه لها كل حين فاسمعه يقول في قصيدته (وداع وسلام ، براح مصر ولقاء الشام)(٢) مخاطبا مصر :

يا مصر دار السعد والهناء	ومهبط الاسرار والايحاء
عليك من هذا المحب النائي	سلام قلب ثابت الولاء

يهواك في السراء والضراء

---

(١) فؤاد صروف في حديث معه .

(٢) الديوان ١: ص: ٩٥

فهو في وطنه الاول لبنان يحيي مصر ويبثها شوقه عن بعد فلو كان مضطهدا فلماذا لا يبقى في وطنه الاول لبنان بين اهله واصحابه ؟ بل على الاقل لماذا لا يسكت ؟ من يجبره على ان يتكلف هذا القول ؟ .

ومطران واضع اول نشيد لمصر (نشيد مصر)(١) نظمه في باريس عام ١٩٠٩ وهو نشيد جميل :

اللازمة

ابشري يا مصر ام المجد من اقصى الحقب
برجال اليوم من ابنائك الغر النخب

دور

بشباب صادقي العزم كبار الفطن
وكهول لا يهابون صروف الزمن
وشيوخ دربتهم محن للمحن
هم دعاة الحق جند السلم حزب الوطن

دور

اجمعوا أن يرفعوا شأنك بين الامم
ويردوا عنك بغى الغاصب المحتكم
ويعيدوا ما تقضى من فخار القدم
يا أباة الضيم طاب السير تحت العلم

وتبقى مصر معه في غربته ففي (من غريب الى عصفورة مغتربة)(٢) التي نظمها في سويسرا وقد مرت معنا ،يقول :

في "مصر" مصرخة اللهيف وملجاء المتفزع
"مصر" السماء الصحو ،"مصر" الدفء ،"مصر" المشبع

---

(١) الديوان ٢: ١٣
(٢) " ٢: ٢١

"مصر" التي ماريع سا | كنها بريح زعزع
حيث المراعي والندى | للمرتوى والمرتعي
حيث السواقي الحانيا | تعلى الطيور الرضع
حيث الحرارة ما تنوا | ل ربيبها يترعرع

وهو ساهر على مصلحة مصر يعرض نفسه الى الهلاك من قبل الانكليز المستعمرين العتاة بغية ان يفتح اعين مصر على حقيقة الامر مما يهيؤه لها المستعمر ومن ذلك قوله يرثي حافظ ابراهيم :

اى جيش يدربون لمصر | وولي التدريب فيه العادى ؟

وهو يقصد الانكليز .

وهو لا يألو جهدا في حث مصر على النهوض والاخذ بركاب الحضارة ولا يدع مناسبة تفوت الا ويعيد هذا التذكير. ومن ذلك قوله في (رأس السنة الهجرية) (١)

اى مسلمي "مصر" ان الجد دينكم | وبئسما قيل : شعب غير مجدود
طال التقاعس والاعوام عاجلة | والعام ليس اذا ولى بمردود
هبوا الى عمل يجدى البلاد فما | يفيدها قائل : يا امتي سودى
تعلموا كل علم وانبغوا وخذوا | بكل خلق نبيه اخذ تشديد
فكوا العقول من التصفيد تنطلقوا | وما تبالون اقداما بتصفيد
"مصر" الفؤاد فان تدرك سلامتها | فالشرق ليس وقد صحت بمفؤود
الشرق نصف من الدنيا بلا عمل | سوى المتاع بما يضني وما يودى
والغرب يرقى وما بالشرق من همم | سوى التفات الى الماضي وتعديد
تشكو الحضارة من جسم اشل به | شطر يعد وشطر غير معدود

. . . .

أبنا "مصر" عليكم واجب جلل | لبعث مجد قديم العهد مفقود
فليرجع الشرق مرفوع المقام بكم | ولتزه "مصر" بكم مرفوعة الجيد

---

(١) الديوان ج ٢: ص: ٤٣

وفي قصيدته (للتأليف بين القلوب) [1] يقول :

يا ايها الاخوان من متوطني	"مصر"، ونعمت كعبة القصاد
لا ننس حقا للكنانة واجبا	ايفاؤه ولقومها الامجاد
حتى نعد اداءه من ديننا	وجحوده ضربا من الالحاد
دار محضناها الولاء ومعشر	سمح نصافيه الهوى ونفادى

وفي قصيدة (الى حافظ ابراهيم) [2] يقول :

"مصر" الحضارة والآثار شاهدة	"مصر" السماحة مصر المجد من قدم
مصر العزيزة ان جارت وان عدلت	"مصر" الحبيبة ان نرحل وان نقم
نحن الضيوف على رحب ومكرمة	منها وانا لحفاظون للذمم
جئنا حماها وعشنا آمنين به	ممتعين كأن العيش في حلم

فهل في هذا الشعر ما يدل على ان مطران كان مضطهدا ؟ . ام فيه ما يجعله يشكو من عنصريته ودينه ؟

وكذلك يقول اجمل ما يكون القول في (يا مصر) [3]

يا "مصر" انت الاهل والسكن	وحمى على الارواح مؤتمن
حبي كعهدك في نزاهته	والحب حيث القلب مرتهن
ملء الجوانح ما به دخل	يوم الحفاظ وما به دخن
ذاك الهوى هو سر كل فتى	منا توطن "مصر" والعلن

ويكمل على هذا النمط الرفيع من النسج واصفا مصر اروع ما يكون الوصف جاعلا اياها بابا من ابواب الجنة .

وفي (عيد بنك مصر) [4] ينتهز الفرصة للتعبير عن حبه واخلاصه لمصر . فيقول في مطلعها :

---

(١) الديوان ٢: ص. ١١٣ (٢) الديوان ٢: ص. ١١٦
(٣) " ٢: ص. ٢٢٦ (٤) " ٤: ص. ١٩٨

ما موقفي في مصرف للمـــال ؟ … انا شاعـر ، ما للحساب وما لي ؟
لا شيء لي فيه ، وكل كنـوزه … من حيث تنفع "مصـر" احسبها لي !
ان ايسرت "مصر" وفيه ضمانها … اني اذن ، فرح برقة حـالي

فهـل بعد هذا الايثار زيادة لمستزيـد ؟.

فمطـران لم يكن يجد فرقا بـين مصـر وطنه الثاني ، ولبنان وطنه الاول — وهو كان معتدا بتاريخهـما — فهما عنده وطن واحـد وهو يعبر عن ذلك في قصيدتـه (الدكتور نقولا فياض) (١) الذى ازمع ترك مصـر والعـودة الى لبنـان فقـال يخاطبـه :

ساء هجرانك الرفاق ولكـن … ليس بين القطـرين من هجـران
وطن واحـد وتجمعـه الضـا … د لمغزى في لفظـة الاوطـان

ولهـذا لقبـه مسلمو مصـر اولا بشاعـر القطرين اى شاعـر مصـر والشام ثم اضفـى عليـه الدكتور علـي العناني لقـب "شاعر الاقطار العربيـة" وهـو ، من جدارة ، يستحق هـذه التسمية.

وفـوق حبه لمصر فهـو محب لشعبها وقد يضطر الشاعـر احيانـا الى المداهنة والتدليس ومن ذلك قـوله في (الحفلـة التكريميـة الكبرى)(٢) التي اقيمـت لـه في النادى الشرقـي بالقاهرة :

كلاء الله وادى النيل ، هـل او … تي واد كحسنه والجـلال ؟
وكهذا الخصب العجيب الذى كا … ن ، وما زال ، مضرب الامثـال ؟
وكهـذا الشعب الامين الذى أو … تي احلى شمائل وخصـال ؟
هـو شعب حر السجايا ، سخـي … وابي من عزة لا احتيـال
دائب ، شاد مجده خالد الآ … ثار من بكرة القرون الخوالـي
باسل ، لم تزده الا ثباتـا … غمرات رمتـه بالاهـوال
صابـر طاول الزمان الى ان … رد ادباره الى اقبـال

هـذا ما شئنا ان نسوقـه بايجاز عن عثمانية مطـران وعروبتـه وحبه الصادق لمصـر.

---

(١) الديوان ٣: ص: ١٠٨
(٢) " ٤: ص: ٣٣٤

شعر المناسبات

شعر المناسبات او شعر الطلب اذا شئنا له تسمية اخرى ، هو ذلك الشعر الذى ينظم في المديح والرثاء ووصف المآدب والحفلات والزواج والتهاني وما الى ذلك من مواضيع ليس فيها من مادة الشعر ما يهيج الخاطر ويدفع الشاعر الى الابداع. وهو ذلك الشعر الذى يجد الشاعر نفسه مسوقا اليه مسايرة لصديق او قريب او صاحب شأن ينظمه بغير دافع لانفعال فاذا هو الوان باهتة ومعان عامة مبتذلة لا حرارة فيها ولا جدة ولا نفاذ .

وهو الشعر الذى ثار عليه مخائيل نعيمة في الغربال حيث حمل على اغراض الشعر التقليدية وبخاصة تسخيره للمناسبات " كمدح بطريرك او مطران او باشا او قائمقام او مدير او شيخ ، ولتهنئة صديق بغلام او بك بوسام ، ولتقريظ كتب "نعيم البطون" و "سلوى الهموم" ولرثاء كل من يزور التراب . "

وهو الشعر الذى ثار عليه صاحبا (الديوان) وهاجما شوقي لتسخيره الشعر لمثل هذا السخف الذى ليس من تحته طائل .

وفي نظر طه حسين (١) ان الشعر قد اصبح بفضل الشعراء وكسلهم العقلي عرضيا لا يحفل به الا للهو والزينة والزخرف ، فاذا اراد بنك مصر ان يفتح بناءه الجديد طلب الى شوقي قصيدة فنظم له شوقي هذه القصيدة ، وان ارادت دار العلوم ان تحتفل بعيدها الخمسيني كما يقولون طلب الى شوقي والجارم وعبد المطلب ان ينظموا لها القصائد فنظموا لها القصائد . واذا مات عظيم واريد الاحتفال بتأبينه ، او نبه نابه واريد الاحتفال بتكريمه طلب الى الشعراء ان ينظموا الشعر في المدح والرثاء فنظموه كما كان ينظمه القدماء . فانحط الشعر حتى اصبح كهذه الكراسي الجميلة المزخرفة التي تتخذ في الحفلات والمآتم ، واصبحنا لا نتصور حفلة بغير قصيدة لشوقي او حافظ (لا ادرى لماذا استثنى مطران) كما اننا لا نتصور عيدا او مأتما بغير مغن او مرتل للقرآن .

---

(١) طه حسين حافظ وشوقي ص، ١٤٩ — ١٥٠

فاما الشعر الذى يقال لنفسه ، الذى يقال ليجلو مظهرا من مظاهر الجمال الطبيعي ، الذى يقال ليكون صلة بين نفس الشاعر ونفس القراء ، الذى يقال لا ليتملق عاطفة من العواطف او هوى من الاهواء ، فلا تلتمسه عندنا ولكن التمسه عند قوم اخرين عرف شعراؤهم لانفسهم كرامتها ، فربأوا بها عن ان تكون اداة للهو والزينة ." ثم يذهب في المقابلة بين شعرنا وشعر غيرنا من الناس فيقول = "افترى ان لتاجور ديوانا او مجموعة قصائد وقفت على المدح والرثاء وافتتاح المصارف والاحتفال بالمدارس ؟ الست تلاحظ ان شعر تاجور شعر انساني وان شعر شعرائنا شعر اشخاص وظروف ؟ .

ولتاجور فلسفة كما للمعرى والمتنبي فلسفة ، فاين فلسفة شوقي او حافظ او البارودى او مطران ؟ وتاجور ترجم شعره الى اللغات الاوروبية فاصبح شاعرا عالميا يكبره الغرب الحديث كما يكبره الشرق القديم . فهل لو ترجم شعر شوقي او حافظ الى الانجليزية او الفرنسية او الالمانية يقرأ ويعجب ويخلب العقول ويضمن لاصحابه جائزة نوبل كما ضمنها لتاجور ؟ . كلا ! وليس مصدر ذلك الا ان تاجور لا يزدرى العقل ولا يسلم نفسه للخيال وحده ، وان اصحابنا لا يلتمسون شعرهم في العالم الحقيقي المعقول ، وانما يلتمسونه في هذا الدخان الذى يرسلونه من افواههم حين يدخنون السجائر او الشيشة ."

واذا كان طه حسين عنيفا في هذه اللهجة فهو صادق ومصيب الى حد كبير .

وان مطران نفسه يميز بين الشعر الذى يقال لنفسه وشعر المناسبات ، وهو عارف لما يجب ان يكون عليه الشعر ولكنه لم يخلص شعره من هذه الشوائب التي افسدته وانقصت من قدره .

وحين سئل عن رأيه في الفرق بين الشعر العربي والشعر الغربي قال (١) "يمكن ان اقول باختصار ان الشعر العربي او الشاعر العربي ذاتي اما الشاعر الغربي فموضوعي . وكذلك

---

(١) الهلال ٣٦٢ (١٩٢٨) ص. ١٠٣٤

ليس في الشعر الغربي مديح او رثاء او هجو او فخر او عتاب او نحو ذلك من الاشياء التي الفناها في اشعارنا القديمة والحديثة ، وانما الشاعر الغربي خيالي يعمد الى فكرة فيخلق الموضوع فيها ويرتب له الاشخاص والاشياء ويجمع المعلومات عنهما ويبدى عندئذ آراءه فيهما . فهو من هذه الناحية خالق مبتكر ولهذا السبب لا يجرى شعراء الغرب على طراز واحد لانهم لما كان كل منهم يعتمد على خياله في ابتكار موضوع فان كلا منهم يتميز عن الاخر وينفرد في الاسلوب والغاية من المقطوعات الصغيرة في وصف زهرة او صبية اوغير ذلك الى الملاحم الكبرى التي ليس عندنا لا في قديمنا ولا في حديثنا مثلها . فالشعر العربي عندنا يسير كالقافلة سيرا رتيبا من عصر الجاهلية الى الان اما الشعر الغربي فمختلف . واذا اردنا التجديد في الشعر فيجب ان نسير على طرق الغرب ."

ثم يجيب على سؤال آخر وجه اليه في كيف ينظم الشعر عفوا او بداهة ، او باستعداد وتحضير ، وفي اى وقت ومكان وفي اية حالة نفسية ، بقوله = هناك نوعان من الشعر = الاول شعر الطلب في المدح والرثاء ونحوهما هذا لايكلفني مجهودا لاني لااعتني في اتقانه فاكتبه كما يتفق .

اما النوع الثاني فهو الشعر الفني وهو يحدث لي وكاني حسب الظاهر اختاره وانما هو في الواقع بايحاء قاهر من حادثة او قصة او غاية اجتماعية ، او سياسية يخطر لي تاييدها والدعوة اليها . وعندئذ تجتمع في ذهني على جملة ايام فكرة القصيدة بمجموعها واحيانا ادون ما يخطر ببالي من الافكار بشأنها في قالب النثر ثم اعود فانظمها ، واحيانا لاادون هذه الافكار. ولكن المهم ان خاتمة القصيدة او الغاية المنشودة تكون حاضرة في ذهني قبل الشروع في النظم . ومعظم نظمي في الصباح . واحيانا انشد الخلوة الذهنية في قهوة ولا يعوقني عندئذ عن النظم كلام الاشخاص ولعبهم النرد او الموسيقى . وانا اعيد النظر كثيرا فيما انظم ولا اتعجل ولكن هناك ظروف كانت تجعلني احسن النظم فاوفيه حقه ولو كنت مع ذلك مستعجلا .

فلما مات صديقي شبلي الشميل مثلا ، حزنت عليه جدا ونظمت رثائي فيه في يوم واحد ولكن هذا اليوم كان يعدل لدى ثلاثين يوما فقد خرجت منه مجهودا مقتولا . وكذلك حدث في وفاة كل من صديقي ابراهيم اليازجي ونجيب الحداد ."

ترى ان مطران يعترف بان شعره على نوعين = شعر الطلب الذى لا يكلفه كبير عناء او اجهاد فكر وانما يسوقه كيفما اقتضى الامر ، والنوع الثاني هو الشعر الفني الخالص الذى يفرض نفسه على الشاعر فيتحضر له ويتهيأ فتختمر الفكر في ذهنه فيدونها نثرا احيانا ثم ياخذ في نظمها وجمع خيوطها . وهذا الشعر هو الذى يخلد لانه يمتاز كما يقول الدكتور طه حسين (١) قبل كل شيء بانه مرآة لما في نفس الشاعر من عاطفة . مرآة تمثل العاطفة تمثيلا فطريا بريئا من التكلف والمحاولة ، فاذا خلت نفس الشاعر من عاطفة ، او عجزت هذه العاطفة عن ان تنطق لسان الشاعر لما يمثلها فليس هناك شعر ، وانما هناك نظم لا غناء فيه .

يرد مندور (٢) اشعار المناسبات في دواوين (ديوان) الخليل الى اضطراره ان يهجر مسقط راسه فيسلخ حياته اما بين قوم غرباء كالفرنسيين او بين قوم مهما قيل في اخوتهم له وارتباطه بهم بمختلف الروابط ، فانه كان بالضرورة غريبا بينهم الى ان ياخذ نفسه بمجاراتهم في الكثير من ميولهم ونزعاتهم ومجاملة افرادهم حتى يستطيع ان ينعم بالحياة بين ظهرانيهم .

وربما كان هذا هو السبب في العثور على الكثير من قصائده ومقطوعاته التي قالها في مجاملات او مناسبات اجتماعية لاتخلو من تفاهة كحفلات الزواج والولائم والورود وانواع الحلوى ومداعبات السيدات والاطفال والاصدقاء ."

واني اضيف الى ذلك ان طبيعة مطران ونفسيته ودماثة اخلاقه ورقة شمائله واخلاصه الود وكثرة الاصدقاء ، هذه جميعا حتمت عليه ان يكثر من شعر المناسبات ولا سيما الرثاء .

والذى ينظر في مناسبات الخليل يجد انه يتناول مواضيع عديدة تناولها شوقي وحافظ وخاصة في الرثاء ، ومن هنا كان يجد نفسه مجبرا احيانا على التشبه والمسايرة ، مسايرة زميليه

---

(١) طه حسين شوقي وحافظ ص١٠٩ (٢) مندور محاضرات عن خليل مطران ص٩ـ١٠

شوقي وحافظ .

ويحدثنا الاستاذ وديع فلسطين في حديث له على صداقته بمطران (١) التي اتاحت له ان يقف على الشيء الكثير من احوال الشاعر الذى كان يحسبه ثريا ، كما صورته الصحف ، ولكنه وجده فقيرا يعاني المسغبة في اباء . اما الثراء الوحيد الذى كان ينعم به فهو ثروة الاصدقاء الذين قال فيهم =

... اني كثير باخوا ني وما موسر له رأسمالي

ولولا عطف نخبة من اولئك الاصدقاء عليه لعز على الشاعر في اخريات ايامه ان يجد اللقمة يتبلغ بها ، وهو الذى كان يفرغ جيبه في ايدى البائسين كلما صادفه واحد منهم ، ولا سيما من المشتغلين بالادب او من الذين يدعون الانتساب الى الشعر . "

ويقول الاستاذ وديع فلسطين في مكان آخر . (٢)

" وكان الخليل يطلب الصحف حتى ايامه الاخيرة ، لا ليقرأها فلم تعد صحته تحتمل ذلك ، بل ليعرف مَن من اصدقائه رزئ في قريب فيعزيه بالبرق ، ومن منهم اقبلت عليه الدنيا فيهنئه .

فقد كان خليل مطران مفطورا على الوفاء ، تجرى دماء الاخلاص في دمه عن سليقة وسجية .

ولما راى اهله ان الخليل يتاثر كثيرا بفقد رفاقه واصدقائه ، عمدوا الى اخفاء الصحف عنه حتى لا تزداد حالته الصحية ضيقا نفسيا ، وحتى يظل نائيا عن كل ازمة تجيء في ركاب الحزن الممض . ولكن خليل مطران كان يتشبث برايه ويصر على طلب الصحف وتلاوة انباء المجتمع ومناعي الناس .

وعندى انه ليس الشاعر وحده المسؤول الاول والاخير عن النزول بالشعر الى درك المناسبا

---

(١) فلسطين ، وديع الرسالة سنة ٣ عدد ٥ ، ١٥ ايار (١٩٥٧) - بيروت .

(٢) = = الاديب م ٨ عدد ٩ (١٩٤٩) ص ٤٥ .

بل هناك شريك له هو المجتمع الذى يطالبه بذلك ، فيمنعه حبه للاخرين من ان يرفض. ومما يرويه الاستاذ وديع فلسطين (١) .

" كنت معه ذات امسية ، وكان جوفه يمج حتى الماء الزلال ، وكان يشكو كلالا في عينيه وصداعا يكاد يشج راسه ، وكان دبره قد تهرأ بسبب ادمانه على الجلوس في مقعد طوال النهار. وبينما مطران على هذه الحال ، جاءه وفد يمثل جمعية خيرية ، وقال كبير الوفد = " سنقيم حفلة في يوم كذا . ونطمع في قصيدة منك تهز قلوب الاريحيين . " فسكت مطران برهة ثم قال = " لكم ما تريدون . " ولما انصرف الوفد ، قال لي خليل مطران = " ارأيت ؟ لم يرحموني حتى في النزع. "وعلى الرغم من حالة الانهيار التي كان خليل مطران يجتازها ، اخذ يستحث الشاعرية الخصبة فيه ، فابدع قصيدة بعث بها الى كبير تلك الجمعية . "

وهل تحتاج هذه القصة الى تعليق ؟ مسكين الشاعر عندنا ، يجب ان يسخر شعره اكراما لعيون الناس ، وعليه ان ينظمه حتى ولو كان على فراش الموت.

ولاشك في ان " مناسبات " مطران تظهر حبه وطيبة نفسه ووداده الى الناس ومشاركته افراحهم واحزانهم . ومطران الانسان حر في ان يمدح او يهنيء او يعزى ولكن عليه كشاعر واجب اخر هو عدم تسخير الشعر لاشياء لاتخرج عن مناسبات صغيرة حقيرة يجب ان يبقى الشعر في مأمن منها بعيدا عنها . ذلك ان للشعر مكانة وحرمة وهو فوق ذلك فيض الخاطر ونتيجة لانفعال دون تكلف. اما ان يسخر الشعر فيتناول جميع الاشياء فهذا ما لا ارتضيه لمطران . فلو نحى هذا الشعر الهزيل عن دواوينه الاربعة لكان من اكبر شعرائنا المعاصرين .

واذا كان مطران قد تاثر بشعراء الغرب ولا سيما (بموسيه) فهلا ترك شعر المناسبات التي ما عرفها شعر الغرب والا فما معنى هذا التاثر ، وكيف يكون ؟ .

---

(١) فلسطين، وديع الرسالة سنة ٣ عدد ٥ (١٩٥٧) - بيروت

(٢) السحرتي، مصطفى عبد اللطيف خليل مطران الرجل والشاعر ص. ١٢

يحرص البعض على ان يبرئوا مطران ويردوا ذلك الى طيب اخلاقه وحسن طويته . كما يفعل السحرتي (١) في رده على روكز زايد" العزيزي" في مقاله "خليل مطران وشعره" (٢) حيث يقول = "ونعتقد ان العزيزي "لم يكن موفقا في الحملة على الخليل لمجاملته الناس ،لان هذه المجاملة ليست ملقا كما ادعى ،انما هي نزول على اعتبارات اجتماعية ،ما كان لمثل قلبه الكريم الطيب ان يزور عنها . او يتحلل منها " .

كثيرا ما ندمج بين اخلاق الشاعر وشعره . فمطران رجل كامل من حيث اخلاقه وسيرته وعلاقاته مع الناس . هل يجعل منه ذلك شاعرا كبيرا ؟ حتى ولو كان قديسا .

الشعر نتاج العبقرية والالهام وقد تكون العبقرية ابنة الشذوذ فاى شيء يستفيده الشعر — من حيث قيمته الفنية — من اخلاق قائله ؟ .

ماذا نقول عن الشعراء الذين عرفوا بشذوذهم العقلي والجنسي وحياتهم الفاسقة الخليعة امثال ابي نواس وبودلير ورمبو وبيرون واوسكار ويلد وبو وسواهم ،وهم بالرغم من كل هذا شعراء كبار .

يجب ان نفصل بين اخلاق الشاعر وشعره وننظر للشعر ونقيمه من حيث هو شيء قائم بنفسه مستقل عن مصدره ،تام الولادة مقطوع النسب .

فلو استعرضت فهارس ديوان الخليل باجزائه الاربعة ماذا تجد ؟ .تجد شعرا رائعا يعد بحق مفخرة الشعر العربي الحديث بل مفخرة الشعر العربي كله . وتجد الى جانبه شعرا هزيلا يساق في (الهرسة) وفي (سيدة زانت رأسها بطاقة فل) (يوسف افندي) (لغز في الضميرانت وفي اسم "انت") (تهنئة بزفاف او قران) (للكتابة تحت رسم) (في اهداء باقة ازهار) (باقة مائدة)(رسالة فاكهة) (فالوذج البرتقال) (تهنئة بمولود) (الشكر المرفوع الى سمو الخديوى عباس حلمي الثاني) (تهنئة بالرتبة الثانية للمرحوم جورج زيدان بك) (تهنئة بوشاح النيل الاكبر) (مطبعة المعارف) (اقامة مشغل للبنات الفقيرات)(هدايا العروس)

---

(١) السحرتي = مصطفى عبد اللطيف خليل مطران الرجل والشاعر ص. ١٢

(٢) المجلة الجديدة مايو (١٩٣٧) عدد ٥ سنة ٦

(بين عروسين) (طبق حلوى) (الغرفة التجارية بالاسكندرية) (حفلات الكشاف) (شكر صديق اهدى ساعة ذهبية الى الشاعر) (في اليوبيل الفضي والذهبي للاشخاص والمؤسسات والجرائد) (تزكية انتخابية لمحمد محمود جلال بك) (تقريظ) الكتب والدواوين (وعود الموظفين لطلاب الوظائف)(في افتتاح المدارس وحفلات التخريج) (بنك مصر وشركائه) (مشروع القرش) (شطرنج اهدى الوامير طفل) (شكر على اهداء كتاب) (في حفلة تكريم) عدى عن الشعر الكثير الذى يساق في الرثاء والتعازى والتآبين والذكر .

ومما يقوله شفيق المعلوف (١)

" ونحن اذا القينا على ديوان الخليل نظرة صادقة ، لوجدنا فيه الى جانب ركام اللؤلؤ خزفا في وسع الشاعر اهماله ، ولكن عاذره كما يقول في المقدمة ، هو انه آثر ان يدارجه القارئ مدارجة غير هائب . ان شعر طريقته هذه ، هو شعر المستقبل لانه شعر الحياة والحقيقة والخيال جميعا ، وليس اكثره سوى مدامع ذرفها ، وزفرات صعّدها ، وقطع من الحياة بددها ، ثم نظمها فتوهم انه استعادها . "

---

١) ـ المعلوف ـ شفيق العصبة م١٠ ١٩٤٩

" وهو قول لم يجيء على جماله مبررا لبعض ما حشر في ديوان الخليل من شعر مناسبات مما يتعاور تراكيبه ومعانيه الابتذال ، ولا يتفق مقام شاعر رفيع الطبقة كالخليل عد من ابرع صيارفة الكلام بين شعراء عصره ، وكان اطولهم باعا في اصطياد المعاني ، وابعدهم تحليقا في اجواء الخيال ."

ويقول الاستاذ مخائيل نعيمه :(١)

" لقد شعرت وانا اقلب اجزاء ديوانه الضخم بالكثير من الاشفاق على تلك القريحة الفياضة ، والديباجة المشرقة ، والالمام الواسع باسرار اللغة وتعاريج علم العروض تنفق جميعها باسراف ما بعده اسراف في الرثاء والتعازي والمديح ، وفي التهاني بمولود او زفاف او وسام او عودة من سفر ، وفي تمجيد " الجمعية التشريعية " والدعاية " للغرفة التجارية بالاسكندرية " و " للكشاف ورسالته " او في اغراض سياسية عابرة ، ومواعظ زمنية مبتذلة كقوله في وصايا انتخابية " وهو موضوع يليق بصحفي صغير لا بشاعر كبير . "

ويعود نعيمه ويرفق بالشاعر بعد ان يقسو فيقول =

" لئن خان مطران ذوقه الفني فتبذل احيانا في مدحه ورثائه وسخر شاعريته لمناسبات كان اولى به ان يترفع عنها ، ففي صناعته ولين عريكته ، وكرم قلبه ويده ، وشدة حدبه على محبيه واصدقائه ، ما يشفع به الى حد بعيد .

---

١) - نعيمه ، مخائيل الرسالة (بيروت) سنة ٣ عدد ٥ ١٥ نوار ١٩٥٧

ويقيني ان نجمه سيلمع طويلا في سماء العروبة ، وانه سيحيا في تاريخ الشعر العربي كفاتح عهد التجديد وخاتم عهد التقليد ، او عهد الكلاسيكية الكاذبة . لئن فاته مجد العباقرة البنائين فما فاته فضل الحداة والفاتحين . "

ويرى ادهم [٢] ان مطران كان صاحب شعور اجتماعي تلون بصلاته بالناس ، وانه كان يسترسل مع هذا الشعور فينظم في اغراض اجتماعية الكثير من الشعر . فقد خلق الرجل وفيه اللطف بسجيته وميل لمعاشرة الناس . واذا بهذا اللطف يتداخل مع ميله للمؤانسة وحبه للمعاشرة فيكون محورا تدور حوله بعض اغراض شاعريته ."

لننتقل الان الى الكلام على الرثاء عند مطران ونتبع ذلك بحديث شامل عن سائر انواع المناسبات .

الرثاء =

من يتصفح ديوان الخليل يجد الرثاء يفوز بقسم كبير منه . فله فيه ما يقارب التسعين قصيدة خلا التأبين والذكر والتعازى . ويكثر شعر الرثاء عند الخليل لانه كانت له صلات اجتماعية كثيرة فهو صديق لعدد كبير من الناس وهو وفي ودود يحافظ على صداقته ويحزن لفقد اصحابه فيلجأ الى رثائهم وتأبينهم .

ورثاء مطران ينقسم الى قسمين :

---

(٢) - ادهم خليل مطران ص ٨٣

١ــ رثاء يقوله في اصحاب له واصدقاء او حكام او امراء ، يلجأ اليه بداعي الالفة والصداقة يتكلفه مسايرة ويقوله لانه يرى في ذلك واجبا اجتماعيا . فيكون في رثائه هذا مثل النادبة المستأجرة بالنسبة الى الام الثاكل ، لا يحسن ان يعبر عن اية عاطفة او احساس .

٢ ــ ورثاء صادق لا يتكلفه ، بل يجد نفسه مدفوعا اليه ، مسوقا لقوله : هو رثاؤه لابطال مصر وللخلص من اصدقائه الشعراء الكبار والاصحاب المقربين وهو في ذلك يعبر عن احساس عام وحزن مشترك ويرى في فقد هؤلاء خسارة للوطن . فياتي رثاؤه صادقا نابضا من قلبه .

ومن النوع الاول رثاؤه (للاميرة كاملة هانم) (١) حيث لا يزيد على ان يكون كلاما عاديا :

من الملأ الاسمى على ذلك القبر	ملائك حراس الفضيلة والطهر
سجود على باب الضريح الذى ثوت	به مصطفاة الله كاملة البر
سلام عليكم فالزموه وآنسوا	غلالة حسن تبتلي بيد الهجر
فقد صورت نفس الاميرة في الضحى	الى الله واستودعتم صدق الدر
تحملها نور الى جنة العلى	كي تحمل الانداء اجنحة الفجر
فيا سيد الدهر المعزى بفقدها	اتخشى عليك اليوم من صولة الدهر ؟

---

١) ــ الديوان ١ : ٧٢

ويا اكرم الآباء بـــــرا بولــد ه ولكنه بــر عصـــته يــد الضـــــر"

"أأنت من الرحمن ارأف والـــدا بمعتاضة الســـراء عن الــم العــمر؟ ..

فاين العاطفة واين البكاء في هذا الكلام العادى الفاتـــر ؟ ...

وفي رثاء (نجل المرحوم الوزير يوسف سابا) (١) يقول =

مافي الاســى من تفتت الكبــــد مثل اسى والـــــد على ولــــد

كم بطل عاش وهو ذ و صـــــيد فرد ه الثكل غير ذ ى صيــــــد

اهون من رزئه عليـــــه اذ ى كفاح جيش او ملتقى اســــــد

" ســـابا " لك الله وهو الطف من يأسو جريحا وانـــت ذ و رشـــد

ان قلوبا محيطـــــة بك مــــن كرامة شاركتك فـــي الكمـــــــد

لهفي على ذلك الحبيب ذ وى منهصر الغصن ولــم ينــل بيـــد

والى ما هنالك من شعر لايخرج عن كونه كلاما موزونــا مقفــى .

وبينما كان الشاعر ينظم هـذ ه الابيــات اذ استوقفت قلمه الحان حزن تصدح بها موسيقى كانت سائرة في الطريق ، فاذا جنازة تسير خلف طبل وبوق . فسأل عنهــا . فقيل له انها جنـــازة المرحوم جبران زريق وقد مات في العشرين من عمره ، فقـــال = "وهذا ياخذ حصته في الطريق ." وكتب فيه الابيات التالية ومنهـــا .(٢) .

مشـــهد سيرا في طبل وبــوق عظـــة جنـــت فغنت في الطريـــق

عظة الموت وما عهدى بهـــا ان تزف النعش فـي تدليـــل سوق

لا ، ولا عهدى بها خاطـــبة عن ثــغور من نحــا س وحلـــوق .

---

(١) الديوان ٢= ١٢٤ (٢) الديوان ٢= ١٢٦

ارايت كم كان يجهد نفسه في هذا الرثـــاء ؟ .

ومطران في رثائه هذا لايكاد يتميز عن سواه من الشعراء ، فهو عبد المبالغات ،

ومن ذلك قوله في رثاء احمد فتحي زغلول باشـــا . (١) .

فهو العامل المســـهد في التحصيل (م) والقوم ، هادئون نيـــام

وهو الكاتب الذى ينشــــــر الدر له روعة وفيـــه انســـجام

وهو العالم الذى يسلس الصـــــعب (م) فلا شبهة ولا ابهـــــام

وهو الغيصل الذى تؤخذ الحكمـة (م) عنه وتـــوءثر الاحكـــــام

وهو المقول الذى يطرب السمع ويبدو فـي لحظـــــــة الالهــــــام

احد الفرقدين من آل زغلـــــــو ل وحسب الفخـار مجد توءام

وكان مطران يبكي في مرثيه الصفات الحميدة والصداقة التي ذهبت ، ويذكر ماكان له عليه

من فضل فكانه برثائه لهم يرد بعض الدين ويقوم بما يفرضه الواجب . وهو يعبر عـــن

حرصه على اصدقائـــه في رثائـــه محمد ابو شـــادى حيث يقول (٢)

ابى الله ان الفى كغيرى مولعـــا بخلع احبائي كخلع ثيابـــي

فما انا من في كل يوم لـــه هـــوى ولا كل يوم لي جـــديد صواب

يراني صديقي منه حيـــن ايابـــه بحيث رآني منه حين ذهاب

ويرى في ذهاب اصحابه واحدا بعد اخر نذيرا بدنو الاجل واقتراب اليقين .

وفي رثاء يوسف سابا باشا (٣) يعزى المعالي والفضائل والامارة والوزارة والندى

والآداب والشرق اجمع فيقول =

---

(١) الديوان ٢ = ١٦٠ (٢) الديوان ٣ = ١٠٧
(٣) الديوان ٣ = ٣٥

عز المعالي ، مات " يوسف سابا "   عز الفضائل فيه والآدابا

عز الامارة والوزارة والندى   والبأس والانساب والاصحابا

والى جميع الشرق فانع مهذبا   فقدانه في الشرق عم " مصابا

وكذلك في رثائه لثريا سليم صيدناوى (١) ورثاء (السيدة بتسي) (٢) فلتراجع .

ويدعي مطران انه صادق في شعره يرثي او يمدح الشخص بما هو اهل له دون ان يطنب او يضيف من عنده وينسب له ما لا يستحقه وفي ذلك يقول (٣) .

ما احسن الشعر والوجدان مصدره   كان هاتفه من نفسه هتفا

اذا دعا الصدق لبى طيعا واذا   دعت مصانعة يوما عتى وجفا

اخص بالشعر احبابي واكرمه   عن ان يكون مداجاة ومزدلفا

اثني عليهم بما فيهم ولست ارى   فيما اخلد من آثارهم كلفا

قد يكون مطران صادقا كل الصدق ولكن كما يقولون = " وعين الرضى عن كل عيب كليلة " . فحب مطران لاصحابه واحترامه لهم يجعله يتغاضى احيانا عن النقائص ، التي قد لا يخلو منها انسان مهما سما . فلا يرى الا الحسنات فيذكرها ويعددها ويصورها فكانما هو لا يصف المرء بما هو عليه فحسب بل وكما يجب ان يكون .

ورثاء مطران هذا لا يخرج كما يخرج رثاء ابي الطيب مثلا ، من كسوة المناسبة الى شرفة الحكم والتأملات في الموت والحياة . فان ابا الطيب الذى رثى كثيرا من الناس ، متكلفا اغلب الامر ، جعل شعره يخلد بفضل ما حشاه بالحكم

---

(١) الديوان ٣ = ١٤١   (٢) الديوان ٣ = ١٥٤   (٣) الديوان ٤ = ٢٧١ .

والفكر والفلسفات التي توسع فيها ابو العلاء من بعده.

ومن هنا تبقى قيمة رثاء مطران هذا قيمة شعر مناسبات هزيل.
فهو ما استطاع ان يخرج به عن التعزية العادية وعن ذكر اوصاف الميت وصفاته وتعزية ذويه وذكر صلاته به وبالناس وبكاء الناس عليه،
ذلك بين شموس تتوارى وبحار تغور وجبال تنثر فهو يعزي الكرم والنبل والامارة والبلاغة وما الى ذلك من اوصاف.

وعلى ذلك يعلق الاستاذ مخائيل نعيمه فيقول = (١)

"ولو اتيح لمطران في مراثيه وتهانيه ومديحه تنكب المبالغات المقيتة في وصف المرثي والمهنأ والممدوح لهان الامر. ولكنه - كالذين سبقوه - اذا رثى او هنأ او مدح رفع المرثي والمهنأ والممدوح الى حيث لم يرتفع بعد انسان من لحم ودم."

ايـن صدق العاطفة، ايـن البكاء الصادق ايـن الالم في هذا الرثاء المأجور المتكلف؟ فهو يرثي الاميرة المعظمة والدة صاحب السمو الامير الجليل يوسف كمال (٢) فيبدؤها بقوله =

وكان ريب قبل ريب الحمام	ببالغ عليـاء ذاك المقام
شمس توارت بحجاب فيا	للغبن ان تمسي بعض الرغام
من اية النور ولألائها	يا اسفا ان راى هذا الظلام

---

(١) نعيمة مخائيل الرسالة س٠ ٣ عدد ٥ (١٩٥٧) بيروت.

(٢) الديوان ٣ = ١٦٨.

يكتفي مطران بستة ابيات من هذا القبيل في رثاء (الاميرة المعظمة) واكبر الظن انه قال ذلك على غير معرفة بها وانما اراد ان يرضي ولدها (صاحب السمو الامير الجليل يوسف كمال) والا ما الذى يعلل نظمه ستة ابيات في رثاء الوالدة وسوق خمسة وعشرين بيتا في مدح الابن ووصفه وتعداد خلاله وحبه لامه وغير ذلك .

وبعد فهل هذا رثاء صادق ؟ ام هو رثاء يخلد ؟ .

وفي رثائه لفرح انطون (١) يلهيه الجناس والتورية عن البكاء =

فيك خطب العلى فدح	اذ توليت يا "فرح"
عثرة دون روعها	عثرة النسر اذ جنح
ان فألا به دعو	ك تناهى الى ترح
يلح صوت لامة	اسف الفضل ان يبح
يا له كوكبا خبا ،	يا له متعبا نزح !

وفي (رثاء للمحسن الخالد الاثار المرحوم يوسف سرسق) (٢) يردد مطران تعابير الاقدمين وينسج على منوالهم = "الخطب الذى يفت الصلاب" ، "والطود الذى يشيع ويحمل على الاعواد" .

انزل الروع في صلاب العماد	ذلك الخطب في عميد البلاد
ومشت امة تشيع طودا	حملته ايد على اعواد

---

(١) الديوان ٣ = ٢٢٣ .
(٢) = ٣ = ٢٤٢ .

وفي (الذكرى الثانية للمرحوم سليم سركيس) (١) يقول =

ان بالشرق بعد "سركيس" شجوا شرقت بالدماء منه الجفون

قل من غرب "مصر" ان يتولى خلها البر والولي الامين

دميت مهجة الشآم، وسالت بالصفا في "لبنان" منه العيون

لمريدي "سركيس"، في اخر المعمور، نوح مردد وانين

كل قطر للعرب، فيه مقام او مقال له، به تابين .

عجب ان خبا الشهاب، وان اعقب ذاك الحراك هذا السكون

كان ملء الحياة فهي، وقد ولى، فراغ، تحس فيه المنون

اوقع الذعر حينه في نفوس خلن من ذاك عزمه لا يحين .

ويعود مطران بعد ان يصف المرثي احسن وصف = فهو الحر وهو الصديق وهو الاديب وهو النديم وهو الاديب الاريب الى آخر ما يعجز عنه العد، الى ذكر اثر المصاب في نفسه وكيف ان الباكي لا يبكي الميت الراحل بقدر ما يبكي نفسه . ان الميت يذهب ويرتاح اما الذى يسلم للعذاب فهو الذى يبقى على قيد الحياة .

ايه "سركيس"! ان بكينا فان الباقي الحزن والسرور الظعين

لا على الذاهبين، لكن علينا — حين يمضون — تستدر الشؤون

وفي (رثاء المغفور له اسماعيل اباظه باشا) . (٢) يقول =

---

(١) الديوان ٣ = ٢٢٦ (٢) الديوان ٣ = ٢٧٨

الى اهلها تنعى النهى والعزائم   فتي فوق ما تهوى العلى والعظائم

ببينك "اسماعيل" غيب شـارق   وقوض بنيان واغمد صـارم

فنعود الى الخسوف والكسوف وتقويض الرواسخ وزلزلة الارض .

ولك ان تراجع قصـيدته في (رثـاء السيد عبد الحليم الحجـار قائمقام بعلبـك) (١) فاذا كان على الشـعراء ان يسـخر لموت كل قائمقام او ضابـط درك او مختـار فلا شـك في انـه سيفقـد قيمتـه .

وفي (رثـاء المرحوم سامي قصيرى) (٢) يشـاء مطـران ، على غيـر عادتـه ، ان يفلسف الموت فيـقول =

نأسى اذا ودعتنا الشمس في الطفل ،   فكيف من لا نـلاقيه الى الازل ؟

تطوى بنا العيش افراس بـلا حكـم ،   ولا نخيـر في الاوقات والنقـل

الامر لله في الدنيا وغايتهـا ،   اكنـت ممتثلا ام غيـر ممتثـل ؟

علام ياسك والايام دائـلة ؟   اخالـد انت ؟ ام باق الى اجـل ؟

اخ لنا كان سـمح القلب وافيـه ،   طلق اللسان ، سليم الود من علـل

نسائل اليوم عنه في معاهـده ،   فـلا نصادف الا خيـبة الامـل

وفي (رثـاء ميشال ذكور) (٣) يقول شـعرا عاديـا لايخلو من جنـاس=

كيف قوضت يـا علـم   وانطـوى ذلك العلـم ؟

---

(١) الديوان ٣ = ٢٩٧

(٢) = ٤ = ٢٧

(٣) الديوان ٤ = ٤٢

ثكل الطود ليـــثه　　　فهـــو في مأتـــم عمـــم

لهف نفسي على الفقيـــد　فتى البأس والكـــرم

ولا يخلو رثاء مطـــران من شـــعر صـــادق يصـــور فيـــه المـــه لفـــقد اصحابه واحدا بعـــد آخـــر فينعـــى تلـــك الصـــداقة التي لا يجني منهـــا ســـوى المـــرارة والالـــم .

ويبدو ذلـــك في رثـــائه للشـــيخ محمـــد الجســـر رئيس مجلـــس النـــواب اللبنانـــي (١) .

فـــي اى جـــو بالاسى مفعم　　　يتصـــل المأتم بالمـــــأتم ؟

يـــا بالـــغ الســـتين كم صاحب　　　ابـــر يمضي واخ اكـــــرم ؟

ما للمنايـــا ورجـــالاتـــنا　　　يفتكـــن بالاعظـــم فلا عظـــم ؟

قوسمت في حزني عليه فمـــا　　　بالـــي كان الحـــزن لم يقسم ؟

عجبـــت للايام ابقيـــنـــي　　　حيـــا وقلبي ملتقـــى الاســـهم

فما رمى عن قوســـه حـــادث　　　في بلـــد الا وقلبـــي رمـــي

من كثر اصحابه حـــولت　　　حلوهم الدنيا الـــى علـــقم

يالدمي اشعر ان الاســـى　　　يصب جمرا سائـــلا في دمـــي .

وفـــي رثائـــه للشـــيخ محمـــد عبد المطلـــب الشـــاعر يقـــول (٢)

---

(١) الديوان　٤ = ٤٩

(٢)　=　٤ = ١٠٠

ما لهذا الخافق الواهي يجب | جزعا للموت والموت يجب
جلل ان يتولى شاعر، | كيف والشاعر " عبد المطلب " ؟
انعزى فيه اهلا وحمى | والمعزى فيه جماع العرب ؟
هل قرأتم شعره الا وقد | خلتم السحر من الشعر وثب ؟

اما ان يقال ان السحر يثب من شعر عبد المطلب فهذا اكثر من كثير، وعبد المطلب شاعر بدوى الاسلوب واللفظ نسيه الناس من يوم ذهب في التراب، ليس في شعره سحر اللهم الا ان قصد مطران بالسحر الشعوذ ه.

غير ان مطران يحاول ان يعطي القارئ صورة واضحة عن مرثيه اقرب ما تكون الى الحقيقة ، وفي رثائه للشعراء او الادباء يسعى جهده ان يظهر ميزاتهم واساليبهم كما يفعل في رثائه للاديب الشيخ عبد العزيز البشرى (١)

احدثت اسلوبا وكنت امامه | وبقيت لهذا فيه مالك ثان
جمع السهولة والجزالة لفظه | تتخالفان حلى وتأتلفان
ديباجة عربية مضرية | نقشت برائعة من الالوان
من للنوادر تجتني منها النهى | ما تشتهي من طيبات مجان ؟
من للبوادر لايجود بمثلها | قبل الروية احضر الاذهان ؟
من للدعابة وهي قد قرنت الى | حلم الشيوخ تراهة الشبان ؟
ان ثقفت لطفت وفي ضحكاتها | ايماض برق لا انقضاض سنان ؟
نهل تساقاها القلوب فتشتفي | غلل ، وتقضي للقلوب امان
بدوات البق كاتب ومحدث | صافي البداهة بارع التبيان
في جده ومزاحه متصرف | بيراعة خلابة ولسان

---

(١) الديوان ٤ = ١٩٥

وعلى كل حال فاذا لم يستطع مطران ان يحلق في هذا الشعر ، فهو لم ينحط وتبقى له ميزة التمرس في سبك الكلام وسهولة النظم .

وقد تشوه الصنعة قوله مثل هذا الجناس في رثائه (للمستر اوز والد فني) .

بقي الذكر والرغام فني   وسيحيى في الخالدين " فني ".

وفي رثائه (لمي) (١) تعود الى الشاعر رومانتيكيته فيوقع اشجى التوقيع على اوتار قلبه فيقول =

قد تولى رفاقنا وبقينا   يعلم الله بعدهم ما لقينا
هل من الصاحب في كؤوسك سؤر؟   قد سقينا يا دهر حتى روينا
اوداع يتلو وداعا ، وتأبين ، على الاثر معقب تأبينا؟
ايها الشاعر الذى كان حينا   يتغنى وكان ينحب حينا
حطم العود ، ان كو الليالي   لم يغادر في العود الا الانينا !

وقد يوفق مطران في بعض مطالع مراثيه كمثل قوله (على ضريح الوجيه المرحوم جورج لطف الله) (٢) .

ما بجرح جرحته من ضماد   نفذ السهم في صميم فؤادى

وكأن رحيل رفاق الشاعر واصدقائه كان شريطاً سينمائيا يتبع واحدهم الاخر وكلما انقضى واحد بكاه الشاعر وبكى نفسه لان ذلك يذكره بدنو اجله ، وما نفع الحياة بدون اصحاب يسوقهم الموت واحدا بعد آخر . وهو يعبر عن نفسيته احسن تعبير في (كشف النقاب عن تمثال مصطفى كامل) (٣) .

---

(١) الديوان ٤ = ٢٧٩   (٢) الديوان ٤ = ٢٨٥
(٣) = ٤ = ٢٩٣

اى "مصطفى" ولـه سنون وما اشتفـى — شوقي اليك بهن جد طوال
عجب بقائي بعد اكرم رفقة — زالوا ولم يشاء القضاء زوالي
حزن بعيد الغور في قلبي ، فان — وجب الرثاء فانما يرثى لي .

وعلى كل حال فان رثاء مطران لم يكن كله من هذا القبيل وانما له قصائد تعد من احسن ما قيل في هذا الفن وهي القصائد التي نظمها مدفوعا بدافع داخلي قوى فبكى ولم يتباك فالرثاء كاى فن من فنون الشعر يجب ان يكون صادقا خارجا عن القلب بل لعله اشد هذه الفنون حاجة الى ذلك .

ويرد ادهم (١) ذلك الى ان موت فتاته وماكان قد تركته من حزن في نفسه مكنه من ان يتفنن في الرثاء حتى اصبح صاحب مقدرة على تصوير فضائل الفقيد وحكي خصائصه وتضمين شخصيته في رثائه في صورة دقيقة لم يعرف تاريخ الادب العربي من قبل مثيلا لها ، حتى اصبح عن حق كما اشتهر "شاعر المراثي" .

ومن رثاء مطران الصادق رثاؤه للشاعر محمود سامي البارودى (٢) الذى يبكيه ويعدد صفاته كشاعر وقائد مجاهد =

مصابك حيا عرا جعفرا — وخطبك ميتا عرا قيصرا .
رزئناك لم يغن منك البيا — ن ولم يعصم الجاه ان تقبرا
وهذى النهاية عقبى النهى — وذاك الثراء لهذا الثرى

. . . .

فكنت كما تبتغي عبقرة — وكنت كما ترتضي مظهرا
وكنت معا فارسا شاعرا — وكنت معا نندسا قسورا
جميع المزايا فما للبيا — ن وما للغياث وما للقرى؟ !
نظيرك مبتكرا مبدعا — شهابا سنيا ندى ممطرا

---

(١) ادهم ص. ٧٩ (٢) الديوان ١ = ص. ٢٧١

نظمت المعالي نظم المعاني   فتح الكلام كفتح القرى

وطعن السنان كنفث اليراع   وكلهما بالنهى حبرا

وضم الجيوش كنسق القريض   وتقسيمه اشطرا اشطرا (١)

وفي رثائه للشيخ ابراهيم اليازجي (٢) ، استاذه وصاحب الفضل في توجيهه نحو الثقافة العربية التي ساعدته كثيرا على تجويد شعره ، يبدأ قوله بهذا المطلع الفخم =

رب البيان وسيد القلم   وفيت قسطك للعلى فنم

نم عن متاعبها الجسام و زر   آلامها غنما لمغتنم

ما اصغر الدنيا واحقرها   في جنب ما للميت من عظم

وفيها يطيب لمطران ان يسأل استاذه عن الموت والخلق ، والبكاء ، والفناء ، ساحبا القول على شيء من التعمق راغبا في كشف النقاب عن السر السرمدى . وفي ازاحة الستار عن (تمثال الشيخ ابراهيم اليازجي) (٣) يعطف مطران على قوله في مطلع رثائه الاول حيث قال =

رب البيان وسيد القلم   وفيت قسطك للعلى فنم

فيقول =

قم (٤) لابسا ثوب الخلود وعلم   بفم المثال الصامت المتكلم

فيكون قد وصل في المعنى بين فعلي "نم" و"قم" ، وعطف على نومة الجسد ، بعثا للروح يحيا به في عالم الذكرى والخلود .

ولا ينسى ان يذكر ما لليازجي الكبير من ايادٍ على لغة الضاد .

---

(١) نلفت النظر الى ما في هذه الابيات من تورية وتشبيه وجناس ، فالشاعر يجيد الصنعه ويحكمها ، ولا ريب ، فهو في معرض رثاء شاعر كبير .

(٢) الديوان ١ = ٢٩٠   (٣) الديوان ٣ = ٣٢٦   (٤) الديوان "عدد" (في)

ويرى في فقد مصطفى كامل كارثة على المسلمين والنصارى واليهود جميعا فيقول (١) :-

جزع النصارى واليهود لمسلم　　هو خير من والى واوفى من وفى .

ثم يلتفت الى "مصر" التي فقدت اعز ما يفقد =

"مصر" العزيزة قد ذكرت لك اسمها　　وارى ترابك من حنين قد هفا

وكانني بالقبر اصبح منبرا　　وكانني بك موشك ان تهتفا

"مصر" التي لم تحظ من نجبائها　　باعز منك ، ولم تعزّ باحصفا

"مصر" التي لم تبغ الا نفعها　　في الحالتين ملاينا ومعنفا

"مصر" التي غسلت يداك جراحها　　بصبيب دمعك جاريا مستنزفا

"مصر" التي كافحت لد عداتها　　متصدرا لرماتها مستهدفا

"مصر" التي سقت الجيوش منا قبا　　ومنى لتكفيها المغير المجحفا

"مصر" التي احببتها الحب الذى　　بلغ الفداء نزاهة وتعففا

حتى مضيت كما ابتغيت موءلفا　　من شملها ما لم يكن ليوءلفا .

وفي رثاء قاسم امين (٢) يرثي المصلح الاجتماعي معددا ما للرجل من فضل على امته فيقول =

لقد فدح الخطب في "قاسم"　　فيا لك من زمن غاشم

اما يشفع الفضل في فاضل　　اما يشفع العلم في عالم ؟

عزيز على "مصر" هذا المصاب　　بمقدامها المصلح الحازم

لك الله من شائد للعلا　　وفي يده معول الهادم

يدك القبيح ويبني المليح　　رجوعا الى سنة الراسم

×××××××××

---

(١) الديوان ١ = ٣٠٨

(٢) = ٢ = ٢

وليت القضاء فكنت القضاء — على المعتدى وعلى الآثم

تزيل دجى الريب المسد لات — بامضى والمع من صارم

وكم ليلة بتها ساهدا — وذو الشأن في غبطة النائم

تبالغ في البحث عن حقه — كبحث الشحيح عن الخاتم

وتوقع حكمك عن حكمة — فما من هضيم ولا هاضم

وفي رثائه للشاعر الكبير اسماعيل صبرى (١) يبدع في تصوير صبرى وتحليل شعره بقول رائع جميل ، وان يكن قد اخذ عليه (٢) في مطلع القصيدة ذكره للخمرة في معرض الرثاء حيث يقول =

شهب تبين فما تؤوب — فكأنها حبب يذوب

ارايت في كأس الطلا — دررا وقد صعدت تصوب ؟

لان مقام الرثاء يجل عن ذكر الحبب والكأس ، وليس لك ان تشبه الشهاب حين يغيب بالحبب حين يذوب .

وينتقل الى الكلام على شعر صبرى فيقول ويبدع =

كنسيبه الاخاذ بالالباب — فليكن النسيب

وكمدحه المدح الذى — ابدا له ثوب قشيب

وكوصفه الوصف الذى — عن روية الرائي ينوب

يتناول الغرض البعيد اذا البعيد هو القريب

او يبرز الخلق السوى — فللحياة به دبيب

كل يصادف من هوا — ه عنده ما يستطيب

فكان ما تجرى خوا — طره به تجرى القلوب

---

(١) الديوان ٣ = ١٣

(٢) مبارك ، زكي الموازنة بين الشعراء ص ٢٠

وبقصيدة تبلغ مئة وخمسة واربعين بيتا يرثي سعد زغلول (١) ويبكي فيه بطلا من ابطال الشرق ويعزى مصر والشرق اجمع في هذا المصاب الاليم =

يا "مصر" خطبك خطب الشرق اجمعه	على اختلاف بنيه والاسى عمم
"لبنان" مادت به حزنا رواسخه	وجف "بالغوطة" الصفصاف والرتم
وفي "السواد" عيون بالسواد جرت	وفي "الحجاز" و "نجد" للجوى ضرم

ثم ياخذ في الكلام على سعد الصحفي والمحامي والقاضي والوزير والاديب والخطيب والزعيم الاكبر ، ودفاعه عن مصر ونفيه وعودته .

وفي رثاء احمد شوقي (٢) يصور وحشته بعد ان تولى زميلاه حافظ وشوقي ، وهو صادق في تصوير جزعه وياسه وقد اصبح وحيدا يتمنى لو ارتحل مع الراحلين =

عجبا اتوحشني وانت ازائي	وضياء وجهك مالئ سودائي ؟
لكنه حق – وان ابت المنى –	انا تفرقنا لغير لقاء
جرحوا صميم القلب حين تحملوا ،	الله في جرح بغير شفاء !
الطيب المحمود من عوى مضى	والمفتدى بالروح من خلصائي
لا بل هما مني جناحا طائر	رميا ولم يكن نافعي اخطائي
الصاحبان الاكرمان توليا	فعلام بعد الصاحبين ثوائي ؟

ثم يخاطب شوقي معترفا بامارته على الشعر حافظا له العهد ، فهو ما تعود ان يخون اصحابه =

مهلا امير الشعر غير مدافع	ومعز دولته بغير مراء

××××××××××××

---

(١) الديوان ٣ = ٢٦١

(٢) = ٤ = ١٢٦

يجلو نبوغك كل يوم آية عذراء من آياته العذراء
كالشمس ما آبت اتت بمجدد متنوع من زينة وضياء
هبة بها ضل الزمان فلم تتح الا لافذاذ من النبغاء
يأتون في الفترات بوعد بينها لتهيؤ الاسباب في الاثناء
كالانبياء ومن تاثر اثرهم من علية العلماء والحكماء

ثم ينتقل الى وصف شعره فيقول =

من اى بحر دره متصيد وسناه من تنزيل اى سماء ؟
شعر سوى مسرى النسيم بلطفه وصفا بروعته صفاء الماء
ويكاد يلمس فيه مشهود الرؤى ويحس همس الظن في الحوباء
عجبا لما صرفهت فيه فنونه من فطنة خلابة وذكاء
فلكل لفظ رونق متجدد ولكل قافية جديد رواء
يجلى الجمال به كابدع ما انجلت صور حسان في حسان مرائي
ولربما راع الحقيقة رسمها فيه فما اعتصمت من الخيلاء

يقول ادهم في حديثه على رثاء مطران (١) "ولقد حاول مطران في كل مراثيه المتاخرة ان يجيب عن هذا السؤال مظهرا ما ترك كل فقيد من اثر في الحياة وما اضافه الى سجل الايام من اعمال . ومن هنا جاءت الناحية الوصفية من شعر الرثاء عند مطران ، والعناية التامة بترجمة حياة الفقيد في مراثيه المتاخرة وهذا واضح في كل من مرثاته لحافظ ابراهيم وشبلي الشمّيل واحمد شوقي وسعد زغلول . وهي تبلغ غايتها وقمتها في مرثاته لحافظ .

---

(١) ادهم ص . ٢٠٣ ـ ٢٠٤ .

وننتقل بعد ذلك الى رثائه لحافظ (١) فبعد ان يصور موته وخسارة الامة العربية فيه ينصرف الى تعداد مميزاته كشاعر واديب =

شاعر لم يباريه احد في ال	اخذ بالمستحب المستجاد
يحكم الصوغ في القلائد فما يأ	تي صناع بمثلها في القلاد
ناشر تنفث البراعة منه	نشوة الخمر في مجاج شهاد
لم يكن في مصايد اللؤلؤ الفا	خر يبقي فريدة لاصطياد
في تراكيبه وفي مفردات اللفظ	حارت نفاسة الحساد
كان في سمعه رقيب عليه	يقظ من جهابذ النقاد
يقع الزين منه في موقع (م)	الزين وينبو بالشين نبو سداد
فالمعاني تتيه بين المعاني	بسني الحلي والابراد
والمباني تعز بين المباني	بمتين الاسباب والاوتاد

وخلاصة القول ان مطران في مرثيته هذه تناول عصر حافظ وسيرته وشاعريته وحلل عناصر فنه والمؤثرات التي اثرت في شعره . وصور مصاب الامة المصرية واللغة العربية فيه وبكاه بشعر جميل رائع .

والذى ينظر في رثاء مطران للبارودى وصبرى وشوقي وحافظ يلمس فهمه الدقيق لشاعريتهم ومميزاتهم في القول والصناعة . ولا يخرج بشيء ظاهرها ان مطران صاحب ملكة نقدية هائلة ، وبصيرة حادة في فنون القول . ومن اجدر من الشاعر الكبير بمعرفة القول البليغ وتلمس دقائق الصناعة .

وكان مطران اذا رثى صحفيا اظهر مقدرته الصحفية وخدماته لوطنه

---

(١) الديوان ٤ = ١٣٤ .

وموقفه في الدفاع عنه ، واذا رثى بطلا استشهد في سبيل وطنه بكى تضحيته وحثّ على الموت في سبيل الاوطان . واذا رثى اديبا او شاعرا اظهر مميزات ادبه ومزاياه وخسارة امته في فقده .

ففي مثل هذا الرثاء يجب ان نبحث عن شعر يمس القلوب .

التهاني والحفلات =

وما تبقى من شعر المناسبات عند مطران ينقسم بدوره ايضا الى نوعين = نوع ركيك هزيل خال من الروح الشعرية لا يرتفع بالمناسبة الحقيرة الى اعلى بل يشاركها في الاسفاف .

ونوع آخر وان تناول المناسبات العابرة فقد يوفق الشاعر في صياغته وفي الارتفاع بالمناسبة الحقيرة وسكبها في شعر لا بأس به . فمطران بفضل موهبته الشعرية وذوقه الفني يستطيع ان يجيد النظم ويرضي القارئ .

وحسب هذا التقسيم سنتناول شعر مطران في المناسبات بعد ان تناولنا رثاءه .

ففي (زفاف الانسه نجلا سركيس) (١) يقول في مدح والد العروس ، سليم سركيس =

وما " سليم " الا ابرّ اب	ربى بنيه بالخطة الفضلى
يجيد في كل ما يجيء به	اكان قولا ما جاء ام فعلا
" سليم سركيس " هل اعرفه ؟	جواب هذا السائل = كلا
من يتصدّى لان يعرفكم	"سركيس" مشى عليكم الجهلا

(١) الديوان ٣ = ٢٣ .

لكن هذا اليوم اجازلنا ايفاءه المدح شاءه ام لا

" سركيس" في حلبة الكتابة ان جلى فلا غروانه جلّى

فهل مثل هذا النظم يليق بشاعر كبير كمطران ؟ اين المعنى البليغ ؟ واين الفتح المبين ؟ واين النظم الرائع ؟

وفي (الغرفة التجارية بالإسكندرية) (١) وهي القصيدة التي انشدها يوم افتتاح صرحها الجديد عام ١٩٢٢ يصبح الشعر لغة التجارة =

اليس شيئا عجيبا صرح ويدعى بغرفه ؟

تناقض فيه سر تجلو البداهة لطفه

وما التواضع عجز ان التواضع عفه

صرح به كل غنم لمن يقلب طرفه

في كل مطرح لحظ من الصناعات طرفه

ومن عروض التجارا ت تحفة عند تحفه

النسج تبدى حلاه والطيب يبذل عرفه

متانة في رواء وحسن ذوق وخفه

ويكمل بمثل هذا النسج فيمدح المليك والامير ووزير المالية ووزير التجارة ورئيس غرفة التجارة . فالقصيدة كما رايت كسيفة سخيفة ليس فيها معنى بليغ ولا موسيقى ولا نغم فليته تكلم نثرا لكان ابقى للشعر كرامته واراحنا واراح نفسه من هذا العذاب .

وفي (بطاقة عاشقين) (٢) يتكلف الجناس فيفسد على نفسه القول =

لو ان ما نتمنى يكون منا بطاقة

اهديت جنة ورد وما رضيت بطاقه

لكنني من دمائي نظمت هذي البطاقه

---

(١) الديوان ٢ = ٣٤٤

(٢) الديوان ٤ = ٣٤٢ .

ومثل ذلك قوليه في (تهنئة) (١) السمو الخديوى عباس الثاني على اثر فتح السودان :

النيل عبدك والمياه جوارى	بالجن والبركات فيه جوارى
امنته بمعاقل وضوارى	وجعلته ملكا عزيز جوار

وقد ينهج النهج القديم في بعض اشعاره فيقدم المقدمات الغزلية ، مثل قوله في (عيد الجلوس الخديوى عام ١٩١٢) (٢)

مرّ في بالنا فاحيانا	كيف لو زارنا وحيّانا
رشاء والنفار شيمته	لا لشيء يصد احيانا
قد سلا عهده ونحن على	عهدنا لا نطيق سلوانا
نحن اهل الهوى نضام و لا	نسأل العدل من تولانا
آمرات العيون تأمرنا	ونواهي الخصور تنهانا
يعذب الطعن في جوانحنا	اذ تكون القدود مرّانا
ونبيح السيوف اكبدنا	اذ تكون الجفون اجفانا
ما لنا غير تلك رائعة	في زمان العزيز مولانا .

في رأى ادهم (٣) ان مطران قد اساء الى شاعريته الممتازة حيث اضطرته الظروف الاجتماعية التي تكتنفه والملابسات الدنيوية التي تحيط به الى ان ينظم كلاما ليس فيه من روح الشعر ما تتقوّم به ، وهو لو جرد ديوانه منه ، وخلص شعره من هذا المديح الضعيف الذى لا يدل على اية نفحة شعرية - الا في بعض الاجزاء - لصان شعره من ان يجد فيه الناقدون موضعا للجرح والمؤاخذة ، ولكانت رسالته الادبية اقرب للتوثيق والكمال . "

(٤)
ومن قوله في (قران ا اميل زيدان بك والانسه روز كريمة المرحوم المحامي

---

(١) الديوان ١ = ٤٤   (٢) الديوان ٢ = ٨٦   (٣) ادهم ص ٢٠٦
(٤) = ٢ = ٢٣٢ .

الكبير نقولا توما =

هو يوم اغر مبتسم   عن وجوه بالبشر غرا ن

رضي المجد ان تزف به   بنت " توما " الى ابن "زيدان"

هل في هذا القول ما يزيد على ان يكون كلاما عاديا او دون الكلام العادى ؟

وفي(شكر)(١) لاعيان بلدة قلقيلية بفلسطين وقد اقاموا حفلة لاكرام الشاعر =

في المخلصين سلام   على بني " القلقيل "

الصائنين حماهم   بغير قال وقيل

الكائدين عداهم   بكل فعل نبيل

الحاملين خفافا   عبء الوفاء الثقيل

البارزين السجايا   بكل وجه جميل

نرى "فلسطين" منهم   عزت بخير قبيل

داموا ودامت علاهم   فيها لجيل فجيل

بدا مطران ضعيفا ركيكا ، فمابعد هذه " القلقيل "عن موسيقى الشعر . وما هذه " القال والقيل " . ولكن مطران ، وهو شاعر كبير ، لا يلبث ان يسف حتى يعود فينهض من جديد . فقوله =

الحاملين خفافا   عبء الوفاء الثقيل

رائع . فقد وفق في الجمع بين الخفيف والثقيل .

ومهما يكن من الامر فان شعر المناسبات عند مطران لا يخلو من شعر يرتفع بالمناسبة الى الاوج احيانا وقد يوفق فيه مطران كل التوفيق مما يدل على شاعريته الهائلة ومقدرته على سيلق القول فاذا كان شعر

---

(١) الديوان ٣ = ٩٨ .

المناسبات شعرا هزيلا في كل حال ، يغدو على يد مطران غير هزيل لانه يعرف كيف يخرج من حدود المناسبة السخيفة الى نظم ابيات من الشعر تعد من روائعه.

ويرى ابو شادى (١) " انه وان كانت لمطران مناسبات شتى لقصائده العامة تتبعا للاوضاع الاجتماعية والسياسية في مصر والشرق العربي ، الا ان جميع هذا الشعر زاخر بكل العناصر الرفيعة التي يتميز بها شعره كيفما كان عنوانه وموضوعه ومناسباته ."

وقد يصح قول ابي شادى هذا اذا خلا من تعميمه لان ليس " جميع شعر مطران زاخر بكل العناصر الرفيعة التي يتميز بها شعره . "

فلو اخذنا ابياته في (الهريسة) [٢] نرى انما قاله من شعر فيها لا يمكن ان يقال احسن منه في موضوعه وبهذا يكون قد اجاد اكثر ما يمكن في مثل هذه المناسبة .=

اتت بلا وعد ويا حسنها	هريسة طابت لهراس
ينبدران تطهى فايامها	من بهجة ايام اعراس
لو قد رايت الشحم واللحم في	اية حال بين اضراس
سمعت من انشودة الحمد ما	تنشده انياب فراس

والجمال في هذه الابيات يقع فرقوله = (اتت بلا وعد) و(ايامها ايام اعراس) و (انشودة الحمد) .

وفي (تهنئة بزفاف) [٣] يقول =

تجرى على آمالك الاقدار	فكأنهن مناك والاوطار
ومن اصطفته عناية من ربه	تأتي الامور له كما يختار

---

(١) ابو شادى ، احمد زكي الاديب ١٢ عدد ١٠ (١٩٥٣) ص ٣ـ٤ .

(٢) الديوان = ١ = ٢٢ (٣) الديوان ١ = ١٦٧ .

فهذا بيت رائع قد يساوي قصيدة بكاملها .

وفي " مغيب في البزوغ" (١) وهو يرثي ماري كندرجي يوفق في التمازج بين حالات النهار وبين موت المرثية .

هل كان هذا البين في الفجر ... فتلوت كوكبه على الاثر ؟
ام في الضحى فنفحت آخر ما ... نفحته ذابلة من الزهر؟
ام في الهجيرة فانحللت كما ... شرب الضرام وحيدة القطر؟
ام في الزوال فمغربان معا ... للشمس في الدنيا وفي خدر ؟
ام في الظلام فزاده حلكا ... سر رقيت به الى سر؟
ام في تجلي البدر ممتزجا ... منك انسجى بكآبة البدر؟

وفي (حفلة لاعانة الطلبة الغرباء في الازهر الشريف) (٢) يستهل القول بابيات تعد من اروع الشعر ساقتها المناسبة عن قصد او عن غير قصد ، فجاءت على اجمل ما تكون =

فاح ريحانها ولاح الخزام ... وجلت عن حليها الاكمام
كل ورد في غير " مصر" له عا ... م وفي " مصر" ليس للورد عام
ما لاعقابه وداع ، ولكن ... ن (م) بواكيره سلام سلام
بلد من حيائه دعة السوا ... دى ومن كبريائه الاهرام
فاض بالخير نيله فسقاه ... وتراءى للازديان الغمام
رق فيه الشتاء حتى ليبدو ... في ثناياه للربيع ابتسام
غردت صادحاته فرحات ... وتناست نواحهن الحمام
سطعت شمسه فما يتغشى ... نورها الصافي البهيج قتام
حبذا "مصر" في الرباع رباعا ... لا يضاهي المقام فيها المقام

---

(١) الديوان = ١ = ٢٥٧

(٢) الديوان = ٢ = ١٦٩ .

فوصف مطران للورد المصري وصف رائع ليس في ذلك شك . وعلى هذه الابيات يعلق امين نخله بحديث له على خليل مطران (١) "فيقول =

"قصر صاحب ـ ديوان الخليل ـ اشاد صاحبكم بورد مصر ، في قوله =

كل ورد ، في غير مصر ، له عام — وفي مصر ، ليس للورد عام

ما لاعقابه وداع ، ولكن — بواكيره سلام سلام .

فابى اهل مصر ، عندنا ، الا ان يكون قصره في هذه العطفات من طريق واديهم ، والا ان يبتنوه له على شكل الورد القحابي ، وهو ورد ارضهم الذي يلهجون بذكره ، والذي هو مما يجتمع لهم من الزهرات السبع ، في وقت معا ، على ما تطنطن بذلك كتب الوصاف ، والمقومين . فجعلوا قصر الرجل ما ترى = باطنا من ياقوت ، ومظاهرا من ذهب عين . "

فتقول = " ايه لهذا القصر اللبناني ، في الحارة المصرية ! ثم ، يا عجبا للبنانيين ، هاهنا . يقيم المصريون قصر هذا البعلبكي على هيئة السابعة من زهرات ارضهم ولا يقيمون هم ، قصر صاحبهم على هيئة ما في مسقط راسه ، عندهم" ، من سابعة عجائب الدنيا ...

" ذلك ، وهو الذي يهتف في بعض اشعاره =

"ان المصير الى الثرى ، واخاله اندى ، وارفه ، في ثرى لبنان ." (٢)

واجمل من قوله في ورد مصر قوله في مصر =

بلد من حيائه دعة الوادي — ومن كبريائه الاهرام

فقد استطاع مطران ، ببيت واحد من الشعر ان يصف مصر اجمل وصف واروعه .

---

(١) نخله ، امين ذات العماد ـ تحت الطبع ـ ص. ١٣٥ ـ ١٣٦ ـ

(٢) ديوان الخليل ٤ = ٢٥٨ .

فمطران شاعر كبير ، والشاعر الكبير يعرف كيف يظل كبيرا حتى في احط المناسبات .

يستهل قوله في (عيد بنك مصر) [١] بهذه الابيات وقد مرت معنا في الحديث عن حبه لمصر =

ما موقفي في مصرف للمال ؟ انا شاعر ما للحساب ومالي ؟

لاشيء لي فيه ، وكل كنوزه من حيث تنفع "مصر" احسبها لي !

ان ايسرت "مصر" وفيه ضمانها اني ، اذن ، فرح برقة حالي .

فهل اجمل من هذا القول واروع ؟ وهل يحتاج هذا الى تدليل على ما فيه من حب واخلاص لمصر ؟ .

وفي (تهنئة بالرتبة السامية لحضرة صاحب السعادة يوسف صيدناوي باشا) [٢] يقول =

الجود خير وكل الخير فيه اذا لم يعد مغزاه اولم ينقلب سرفا

والحرص ان يغدو "شحاباء صاحبه بالعار ، طال به مكث ، او انصرفا

فما زاد مطران على ان اخذ معنى الشاعر القديم الذي قاله في بيت واحد فاحسن واجاد فمغطه مطران في بيتين دون ان يضيف شيئا =

بين تبذير وبخل رتبة وكلا الامرين ان زاد قتل .

يجب ان نلاحظ هنا ان شعر مطران قد خلص من شعر الهجاء - وهو احط شعر المناسبات - والفخر . فلم يكن له اعداء يثور عليهم فيهجوهم ، ولم تكن طبيعته ومزاجه لتنسجم مع الهجاء ومرارته . والهجاء ينضح من اناء البغض والحقد والحسد وفقدان العاطفة الانسانية ، ونفسية شاعرنا تترفع عن مثل هذه النقائص.

---

(١) الديوان ٤ = ١٩٨

(٢) الديوان ٤ = ٢٦٩ .

واذا بحثنا في دواوينه لا نجد سوى ابيات معدودات دفع اليها مطران دفعا ، دفعته غيرته وحبه وذلك قوله في " حكاية عاشقين " (١)

جزى الله اخوانا وشوا بي عندها فكانوا لسعدى حين تم عثارا

يسرون لي شرا ويبدون رأفة ، اكانوا اذن يبغون عندى ثارا؟

ثم ما تلبث ان تنتصر طبيعته السمحة فيصفح عن وشاته فيقول =

فصفحا لكم عما اقترفتم احبتي وتدرون اني ما صفحت حذارا

ولكنه يعود ويردف ذلك بقوله =

توهمتكم حينا كبارا بنبلكم فالفيتكم كالمجرمين صغارا

ولم يغن مال من مهانة سعيكم اتشرون خلقا بالنضار نضارا ؟

ويخلو شعره كذلك من الفخر وهذا شيء طبيعي لان الخليل لما عرف عنه من رقة الحاشية ونكران الذات ودماثة خلق ، لايمكن ان يكون معتدا بنفسه ساحبا ذيله الطويل على سائر الشعراء الادباء مغرورا بموهبته الشعرية بل على العكس فقد كان متواضعا يخجل من الاطراء ويبتعد عن حب الظهور.

وليس له في شعره ما يخالف هذا القول سوى بيات يقولها في (عيد الميلاد) (٢) فيسمح لنفسه ان يمتدحها ويصف كرمه واحسانه الى الناس فيقول =

اعطي ولا اعطى واستوفي حقوقي ناقصه

ونيتي للخير في كل مقام خالصه

انا الذي يجده العافي اذا خطب الم

مداركا ومدركا بقلبه معنى الالم

شركة خيرية في كاسب منفرد

ساع صنوف السعي او مستنفد ما في اليد

---

(١) الديوان ١ = ١٩٧ (٢) الديوان ٢ = ٢٥٢ .

ولكنه ما يلبث ان يورد هذه الملاحظة على هامش الصفحة : " تسامح الشاعر في وصف نفسه كما وصف ، لانه حين نظمها كان يعدها لتطالعها والدته ." فتأتي ملاحظته هذه فتكون اروع من قصيدته .

ومهما يكن من امر فهذا رأى سقته في شعر المناسبات عند الخليل وانا اتمنى لو خلا شعره من هذه الحشائش تنبت بين الزرع فتضعفه .

حدثني الاستاذ فؤاد صروف بانه واللجنة المشرفة على طبع ديوان الخليل طلبوا من الشاعر ان ينحوا شعر المناسبات ويكتفوا بجمع جزء واحد يحتوى على جميل شعره فابى واصر على ان يجمع كل شعره فهو يصور حياته وصداقاته للناس التي يحرص عليها ، وهكذا كان .

واني اميل الى ان اشفق على الشاعر الذى اجبر على التزام هذا النوع من الشعر فملأ به دواوينه — اجبرته :

١ — طبيعته الودودة وكثرة علاقاته مع الناس .
٢ — ظروفه الخاصة التي حتمت عليه ان يعيش في غربة عن بلده واهله فاذا هو مضطر لمصادقة الجميع والتقرب اليهم .
٣ — كونه مسيحيا الزمه ان يساير ولا يورط نفسه في مآزق حرجة تجعل الناس ينظرون اليه نظرة ليس فيها كثير من الرضى .
٤ — ووجود نفسه مسوقا ، عن قصد او غير قصد ، الى مجاراة كبار الشعراء امثال شوقي وحافظ الى تناول المواضيع التي يتناولونها من رثاء او تهاني او ترحيب حتى لا يشذ عنهم .

واتمنى ايضا لو كان الشاعر امتنع عن جمع هذا الشعر واكتفى بديوان واحد بدلا من دواوينه الاربعة .

واختتم هذا الحديث عن مطران بالاعتذار الى روحه الخالدة ونفسه السمحة مرددا قول الناقد الفرنسي الشهير بوالو :

" ما اسهل النقد وما اشق الفن ! "



الخلاصة

الخلاصة

ولقد آن لنا ان نربط اطراف الموضوع ونجمع فصوله ملخصين ما جاء فيه من آراء .

قلنا ان العصر الذى سبق مطران كان عصر تحول في تاريخ الشرق العربي ، عصر احياء التراث العربي القديم وانفتاح الادب العربي على ثقافات حديثة .

فقد ساعدت عوامل النهضة هذه على بعث الشعر الذى كان قد انتهى الى ان يكون كلاما موزونا مقفى محشوا بالبديع والتضامين والتشطير والمعارضات وحساب الجمل همه ان يمدح ويهنيء لا يدع مناسبة تمر الا ويسجلها ، وشعراء ذلك العصر لا يفهمون الشعر الا انه تطريز على ثوب خلق .

الى ان جاء البارودى فكان هو الجسر الذى عبر عليه الشعر العربي المعاصر من طور الركاكة الى طور القوة . فقد رجع البارودى الى منابع الشعر العربي الصحيحة وانتخب منه اجود ما جادت به عبقرية العرب القدامى وخاصة الشعر العباسي . وقد عرف كيف يستفيد من اختباراته في الحياة ودقة ملاحظته في تصوير ما يجيش في خاطره .

وسار على طريقه الشعراء الذين جاءوا بعده امثال اسماعيل صبرى وشوقي وحافظ .

فكان صبرى اول شاعر بعد البارودى ،عبّر عن نفسه بشعر رومانتيكي امتاز بقوة الديباجة وصحة النسج .

ثم جاء شوقي واكمل طريق الشعر الاصولي الذى بلغ عنده ارفع منزلة . فقد استطاع بفضل غنائيته وموسيقيته وموهبته الفذة ان يعيد للشعر العربي سابق مجده ورونقه وادخل عليه فنا جديدا ، لم يعرفه من قبل ، هو الشعر التمثيلي .

وحافظ الذى كان اقل ثقافة من شوقي سار سيره في اقتفاء الشعر العباسي وفنونه . واستطاع ان يعبر عن آلام بني قومه ويصور محنتهم وعواطفهم وبرّز في الرثاء ما شاء الله له .

×××

كان من حظ مطران انه ولد في لبنان سنة ١٨٧٢ ونشأ فيه زمن قويت فيه الحركة الفكرية ، وكانت المدنية الغربية ،وخاصة الافرنسية ، قد انتشرت بمجيء الارساليات الاجنبية الى هذى الديار . فاخذ مطران بالثقافتين ، تهيأت له ثقافة عربية لا بأس بها على يد استاذيه الشيخين اليازجيين ابراهيم وخليل . ودرس اللغة الافرنسية واتقنها ووقف على آدابها . وبدأ ينظم الشعر وهو طالب لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره ، مقلدا الشعراء القدامى اول الامر وذلك ظاهر في اوائل شعره . فكان كلاسيكيا متجددا .

.../...

ولكنه ما لبث ان همّ في الاخذ بيد الشعر والنهوض به والسير نحو الرومانتيكية تدفعه ثقافته الغربية وحاسيته وحبه الذى كان له اكبر الاثر في شعره الابداعي .

لم ينصرف مطران انصرافا تاما للشعر فقد اشتغل في الصحافة فتركها ثم تعاطى التجارة فربح ثم خسر ثروته فعاد الى الوظيفة ، وهوى التمثيل وعرّب عددا كبيرا من المسرحيات العالمية لشكسبير وموليير وراسين وكورنيل وهيجو .

وقد لعب مطران دورا هاما في تطور الشعر العربي ففهم القصيدة على انها وحدة لا تتجزأ بينما فهم الشعراء الذين عاصروه وسبقوه ان البيت هو وحدة القصيد . واستطاع ان يتحرر من القافية الموحدة وان حافظ على وحدة الوزن . وادخل القصص على فنون الشعر. ولكنه اكثر من شعر المناسبات الذى اساء الى شعره وخفض من مكانته .

ولو شئنا ان نكون في الحكم ذوى نصفة قلنا ان مطران هو نهاية الكلاسيكية المتجددة واول الشعراء الرومانتيكيين .

× × ×

يرد فضل مطران الى انه اثر فيمن عاصره وجاء بعده من الشعراء . وكان هذا التأثر بالجديد الذى استحدثه مطران في

.../...

الشعر على وجهين[١] الاول التاثر بشعر مطران بالذات • والاخر التاثر بما تركه مطران في المحيط الادبي العربي • اما من الوجه الاول فذلك يكون اما باحتذاء مطران في طريقته ونهجه احتذاء تاما كما هي الحال مع خليل شيبوب ، واما التاثر بالطلاقة الفنية عند مطران مع بعض التاثر باخيلته كما هي الحال مع احمد زكي ابو شادى والتأثر بالطلاقة الفنية عند مطران دون ان يتجاوزها الى التأثر باخيلته وطريقته في قرض الشعر كما هي مع فوزى المعلوف وابراهيم ناجي وابي القاسم الشابي •

غير ان عبد الرحمن شكرى يرد على ادهم[٢] وينكر ان يكون قد تاثر بمطران ويقول انه قد اطلع على الادب الاوربي من مصادره ، فثقافته كانت انكليزية بينما كانت ثقافة مطران فرنسية ، وانه قد اطلع على الادب الفرنسي مترجما الى الانكليزية وليس بواسطة مطران ، وانه لم يعرف مطران ولم يجتمع به سوى مرتين ، وانه كان قد نشر قسما من شعره قبل ان يصدر مطران ديوانه •

ومهما يكن من الامر فان مطران كان اول من ركب الثورة على الاتباعية في الشعر العربي وحطم وحدة البيت وعبث بعمود الشعر• فمهد السبيل امام الشعراء الذين جاءوا بعده ، فمنهم من تأثر بروحه ، ومنهم من تاثر بعبارته ، ومنهم من تأثر بالاثنتين معا •

٠٠٠/٠٠٠

---

١) ـ ادهم ص ٢١٩

٢) ـ شكرى عبد الرحمن الرسالة م ٧ (١٩٣٩) عدد ٣٠٢

وان يكن بعضهم (١) انكر ان يكون قد تاثر بمطران وادعى انه تأثر بشعراء الغرب وادبائهم مباشرة وهذا ينطبق على المدرسة الانكليزية التي تشمل بالاضافة الى العقاد صاحبيه شكرى والمازني .

ويعترف ابراهيم ناجي باثر مطران هذا فيقول :(٢)

" لقد كان الشاعر خليل مطران يكتب قصصه الشعرية " الجنين الشهيد " وغيرها حين كان حافظ وشوقي يقلدان البارودى او يعارضان القدماء . وكنا نحن في صبانا نقرأ شعر مطران كما نقرأ شعر حافظ وشوقي وقد ترك الثلاثة في نفوسنا آثارا لا تمحى ، ولكني اعتقد ان اثر مطران علينا كان قويا واضحا ، فاذا كتبنا اليوم شعرا نسميه فنا حديثا اوجديدا ، فمن فضل ذلك الرجل " .

وقد اثر مطران في جماعة شعراء المهجر الذين تجرأوا اكثر منه فيما بعد على تحطيم (حلحلة) وحدة البيت والقافية والبحر .

وكذلك تاثر فيه شعراء سوريا ولبنان وان يكن مدى هذا التاثير يتفاوت في الضعف والقوة . .

ويعترف ابو شادى ايضا باستاذية مطران فيقول : "

" عرفت هذا الرجل (يعني مطران) واستاذيته منذ ثلاثين سنة ، اذ تعهدني صغيرا وبقيت اهتدى بهديه ، واثره في شعرى اثر

.../...

---

١) ـ العقاد : شعراء مصر ص١٩٩ ـ ٢٠٠

٢) ـ ناجي ، ابراهيم مقدمة " اطياف الربيع" لابي شادى

٣) ـ ابو شادى ، احمد زكي ا نداء الفجر ص ١٢٨

عميق لانه يرجع الى طفولتي الادبية ، ويصاحبني في جميع ادوار حياتي ، واذا كان استقلالي الادبي متجليا الان في اعمالي ، فهو في الوقت ذاته ، يمثل الاطراد الطبيعي للتعاليم الفنية التي تشربتها نفسي الصبية من ذلك الاستاذ العظيم ، وما زالت تحرص عليها نفسي الكهلة ، الوفية ، ناظرة الى آثار الصبا والى معلمي الاول بحنان عميق ".

وهو لا يدع مناسبة الا ويعترف باستاذية مطران هذه .

ويقول عبد المنعم خفاجي : (١)

" ان ابا شادى اخذ عن مطران احترام المذاهب الادبية المختلفة ، واحترام النقد ، وكراهية الفردية ، وتقديس الشخصية الفنية الحرة ".

وكذلك يعترف الشاعر خليل شيبوب باستاذية مطران فيقول : (٢)

استاذى الاعلى ومرشدى الذى منذ الصبا قد حاطني ورعاني

فاذا نطقت فان ذلك لفظه منه اليه يساق بالشكران

ويعترف مندور(٣) لخليل مطران انه " ادخل في الشعر العربي الحديث اخيلة ونغمات واتجاهات لم يعهدها الشعر التقليدى ، وبخاصة تلك الحركة الدراماتيكية القوية التي تهتز بها روائع قصائده المطولة ".

.../...

---

١) - خفاجي ، عبد المنعم مع الشعراء المعاصرين ص٢٢

٢) - شيبوب ، خليل الكتاب الذهبي ص٢٠٦

٣) - مندور ، محمد الشعر المصرى بعد شوقي ص ٥

وكذلك يعترف بشر فارس بفضل مطران على الادباء والشعراء فيقول :(١)

" قد علمنا نحن الكتاب كيف نثب بالفكرة من لفظ الى لفظ ، ثم كيف نجرى باللفظ من فكرة الى فكرة . فادخل ما بين المبنى والمعنى ، وشد الوثاق بين المدلول والملفوظ بسلك هش متصل .

" ثم علمنا نحن الشعراء ان اللفظ وساطة لا غاية وان الصورة شرارة لا حكاية ، وان الحس يقتله الافتعال ، وان القصد بنيان متماسك لا حائط مرفوع هنا وطاقة منقورة هناك وزخرفة ملقاة فيما بينهما . ثم علمنا ان الروح للعبارة عصارة ، فعلى قدر الخلجات تكون انواع التعبير وبقدر الخطرات تأتي الوان التخييل . فارشدنا الى استخراج الدفائن الخاصة وصرفنا عن ترداد الملتقطات ، وهدانا النزول الى اعماق الضمائر حتي ينطق كل منا بحسب شعوره وهو حر قد خلا لقريحته او استأنس بطبعه ."

ولعل خير كلام نختتم به هذا البحث هو راى شوقي في مطران ، في مقدمته للطبعة الاولى من "الشوقيات" ، وهو رأى فيه صواب كثير ، على ما فيه من اختصار كبير : " خليل مطران صاحب المنن على الادب العربي ".

---

١)ـ فارس بشر الاديب مجلد ٨ عدد ٨ (١٩٤٩) ص٢

ملحق

مختارات من شعر مطران

قلعــــة بعلبــــك
تذكار صبى

هم فجر الحياة بالادبـــار | فاذا مر فهى في الآثار
والصبى كالكرى نعيم ولكـن | ينقضى والفتى به غير دارى
يغنم المرء عيشه في صباه | فاذا بان عاش بالتذكـار

• • •

ايه آثار "بعلبك" سلام | بعد طول النوى وبعد المزار
ووقيت العفاء من عرصـات | مقويات اواهل بالفخــار
ذكريني طفولتي واعيدى | رسم عهد عن اعينى متوارى
مستطاب الحالين صفوا وشجوا | مستحب في النفع والاضرار
يوم امشى على الطلول السواجى | لا افترار فيهن الا افترارى
نرقا بينهـن غــرا لعوبا | لاهيا عن تبصر واعتبار
مستقـــلا عظيمها مستخفا | ما بهـا من مهابـة ووقار
يوم اخلو "بهند" نلهو ونزهو | والهوى بيننا اليف مجارى
كفراش الرياض اذ يتبـارى | مرحا ما له من استقرار
نلتقى تارة ونشرد اخــرى | كل ترب في مخبـاء متدارى
فاذا البعد طال طرفة عين | حثنا الشوق مؤذنا بالبدار
وعداد اللحاظ نصفو ونشقى | بجوار ففرقـــة فجوار
ليس في الدهر محض سعد ولكن | تلد السعد محنـة الاكدار
كلما نلتـقى اعتنقنا كأنـــا | جد سفر عادوا مــن الاسفار
قبــلات على عفـاف تحاكـى | قبــلات الانــداء والاسحار
واشتباك كضــم غصن اخاه | وكلثــم النوار للنــوار
قلبنــا طاهر وليــس خليا | اطــهر الحــب في قلوب الصغار
كان ذاك الهوى سلاما وبردا | فاغتدى حين شب جذوة نـــار
حبـذا "هند" ذلك العهد لكن | كل شئ الى الردى والبوار
هدعزمى النوى وقوى جسمــى | قدمــار يمشى بــدار دمــار

• • •

خرب حارت البرية فيها فتنة السامعين والنظار

معجزات من البناء كبار لا ناس ملء الزمان كبار

البستها الشموس تفويف در وعقيق على رداء نضار

وتحلت من الليالي بشاما ت كتنقيط عنبر في بهار

وسقاها الندى رشاش دموع شربتها ظوامىء الانوار

زادها الشيب حرمة وجلالا توجتها به يد الاعصار

رب شيب اتم حسنا واولى واهن العزم صولة الجبار

معبد للاسرار قام ولكن صنعه كان اعظم الاسرار

مثل القوم كل شيء عجيب فيه تمثيل حكمة واقتدار

صنعوا من جماده ثمرا يجنى ولكن بالعقل والابصار

وضروبا من كل زهر انيق لم تفتها نضارة الازهار

وشموسا مضيئة وشعاعا باهرات لكنها من حجار

وطيورا ذواهبا آيبات خالدات الغدو والابكار

في جنان معلقات زواه بصنوف النجوم والانوار

واسودا يخشى التحفز منها ويروع السكوت كالتزآر

عابسات الوجوه غير غضاب باديات الانياب غير ضوارى

في عوانينها دخان مثار وبالحاظها سيول شرار

تلك آياتهم وما برحت في كل آن روائع الزوار

ضمها كلها بديع نظام دق حتى كأنها في انتثار

في مقام للحسن يعبد بعد العقل فيه والعقل بعد البارى

منتهى ما يجاد رسما وابهى ما تحج القلوب في الانظار

×+×+×+×+×+×+×+×+×+×+×

اهـل " فينيقيا " سـلام عليكـم   يـوم تغنـى بقيـة الادهـــار

لكـم الارض خالديـن عليـــها   بعظـيم الاعمـال والآثـــار

خضتـم البحـر يـوم كـان عصيـا   لـم يسـخر لقـوة مـن بخـــار

وركبتـم منـه جـوادا حـــرونا   قلقـا بالممـرس المـــغوار

ان تمـادى عـدوا بهـم كبحـوه   واقـالوه ان كبـا مـن عثـا ر

واذا مـا طغى بهـم اوشكوا ان   يأخـذوا لاعبـــين بالاقمـار

غيـر صعـب تخلـيد ذكر على الار   ض لمـن خلـدوه فوق البحـار

شـيدوها للشمـس دار صـــلاة   واتـمّ "الرومـان" حلـى الـدار

هـم دعـاة الفـلاح فـي ذلـك العصـر واهـل العمـران فـي الامصار

نحتـوا الراسيـات تحـت صـخور   وابانـوا دقـائـق الافكـــار

واجـادوا الـدمى فجـاز عليهـم   انهـا الآمـرات فـي الاقـدار

سـجدوا للذى هـم صـــنعوه   ســجدات الاجـلال والاكبـار

بعـد هـذا ، اغايـة نترجـــى   لتـمام ، ام مطمـح فـي افتخـار؟

***

نظـرت "هند" حسنهن فغـارت،   انـت ابهـى ياهنـد من ان تغارى

كـل هـذى الدمـى التي عبـدوها   لـك يا ربـة الجمـــال جـــوارى

***

الاهـــرام

على اثـر زيـارة لاهرام سقارة

شـــاد فاعلـى ، وبنى فوطـدا — لا للعلى ، ولا لـه ، بل للعدى

مستعبد امتـه فـي يومــــه — مستعبد بنيـه للعـــادى غـد ا

انى ارى عـدّ الرمـال هـهنـا — خـلائقـا تكثـران تعـــددا

صـفر الوجـوه نـاديـا جباههم — كالكلا اليـابس يعـلوه النـدى

محنيـة ظهورهـم ، خرس الخطـى — كالنـمل د ب مستكينـا مخلـــدا

مجتمعيـن ابحـرا ، منفرعيـن انهـرا ، منحـــدريـن صـــعدا

اكـل هذى الانفـس الهلكى غدا — تبنـى لـفان جـدثـا مخلـــدا ؟

+×+×+×+×+×+×+×+×+×+×+×+

يا ايهـا الموتى الم يسمعكـــم — صـوت المنادى صـادعا مـرددا ؟

قومـوا انظـروا السوقـة فيما حولكم — تدوس هامـات الملـوك همـــدا

قومـوا انظروا العدو في د يـاركـم — يحكـم فيـها مستبدا ايّـــدا

قومـوا انظروا اجسادكم معروضـــة — فـي مشهد لمـن يـروم المشهدا

بعـث بـه يسـألكم حساب مـــا — قدمتـم مـن راح منا وافتـد ى

لـم يغنكم منـه البنـاء عـاليا — والارض نهـبا والملوك اعبـــدا

وكـان يغنيكم جميل الذكر لـــو — خفضتـم اللحـد وشدتم بالهـــدى

اخـطأ مـن توهـم القـبر لـــه — حـرزا يقيـه بالـردى مـن الردى

+×+×+×+×+×+×+×+×+×+×+×+

مقتل بزرجمهر

اشتهر كسرى بالعدل وكان بلا نزاع اعدل ما يكون الملك المطلق اليد في احكام بلاده .. فان كان ما وصفناه في هذه القصيدة احدى جناياته مثله في العادلين فما حال الملوك الظالمين ؟

سجدوا لكسرى اذ بدا اجلالا ... كسجودهم للشمس اذ تتلالا

يا امة الفرس العريقة في العلى ... ماذا احال بك الاسود سخالا ؟

كنتم كبارا في الحروب اعزة ... واليوم بتم صاغرين ضئالا

عباد "كسرى" ما نحيه نغوسكم ... ورقابكم والعرض والاموالا

تستقبلون نعاله بوجوهكم ... وتعفرون اذلة اوكالا

التبر "كسرى" وحده في فارس ... ويعد امة فارس ارذالا

شر العيال عليهم واعقهم ... لهم ويزعمهم عليه عيالا

ان يؤتهم فضلا يمن وان يرم ... ثأرا يبدهم بالعدو قتالا

واذا قضى يوما قضاء عادلا ... ضرب الانام بعدله الامثالا

×××××××××××××××××

يا يوم قتل "بزرجمهر" وقد اتوا ... فيه يلبون النداء عجالا

متألبين ليشهدوا موت الذي ... احيى البلاد عدالة ونوالا

يبدون بشرا والنفوس كظيمة ... يجفلن بين ضلوعهم اجفالا

تجلو اسرتهم بروق مسرة ... وقلوبهم تدمى بهن نصالا

واذا سمعت صياحهم ودويهم ... لم تدره فرحا ولا اعوالا

×××××××××××××××××

ويلوح " كسرى " مشرفا من قصره — شمسا تضيء مهابة وجلالا
شبحا "لارموز" العظيم ممثلا — ملكا يضم رداءه رئبالا
يزهو به العرش الرفيع كأنه — بسنى الجواهر مشعل اشعالا
وكأن شرفته مقام عبادة — نصب التكبر في ذراه مثالا
وكأن لؤلؤة بقائم سيفه — عين تعد عليهم الآجالا ؟

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

ما كان "كسرى" اذ طغى في قومه — الا لما خلقوا به فعالا
هم حكموه فاستبد تحكما — وهم ارادوا ان يصول فصالا
والجهل داء قد تقادم عهده — في العالمين ولا يزال عضالا
لولا الجهالة لم يكونوا كلهم — الا خلائق اخوة امثالا
لكن خفض الاكثرين جناحهم — رفع الملوك وسود الابطالا
واذا رايت الموج يسفل بعضه — الغيت تاليه طغى وتعالى
نقص لفطرة كل حي لازم — لا يرتجي معه الحكيم كمالا

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

واذا استوى كسرى واجلس دونه — قواده البسلاء والاقيالا
صعدت اليه من الجماعة صيحة — كادت تزلزل قصره زلزالا
واذا الوزير "بزرجمهر" يسوقه — جلاده متهاديا مختالا
وتروح حولهما الجموع وتغتدى — كالموج وهو مدافع يتتالى
سخط المليك عليه اثر نصيحة — فاقتص منه غواية وضلالا
"ابزرجمهر" حكيم فارس والورى — يطأ السجون ويحمل الاغلالا ؟
" كسرى "اتبقى كل فدم غاشم — حيا وتردى العادل المفضالا
وتدق في مرأى الرعية عنقه — ليموت موت المجرمين مذالا
اين التفرد من مشورة صادق — والحكم اعدل ما يكون جدالا
ان تستطع فاشرب من الدم خمرة — واجعل جماجم عابديك نعالا

وادبح ودمر واستبح اعراضهم ... واملأ بلادهم اسى ونكالا
فلانت "كسرى" ما ترى تحريمه ... كان الحرام وما تحل حلالا
وليذكرن الدهر عدلك باهرا ... ولتحمدن خلائقا وفعالا
لو كان في تلك النعاج مقاوم ... لك ، لم تجيء ما جئته استفحالا
لكن ارادت ما تريد مطيعة ... وتناولت منك الاذى افضالا

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

ناداهم الجلاد = هل من شافع ... "لبزرجمهر" ؟ فقال كل = لا ، لا .
وادار "كسرى" في الجماعة طرفه ... فرأى فتاة كالصباح جمالا
تسبي محاسنها القلوب وتنثني ... عنها عيون الناظرين كلالا
بنت الوزير اتت لتشهد قتله ... وترى السفاه من الرشاد مدالا
تفرى الصفوف خفية منظورة ... فرى السفينة للحباب جبالا
باد محياها ، فاين قناعها ؟ ... وعلام شاءت ان يزول فزالا ؟
لاعار عندهم كخلع نسائهم ... استارهن ، ولو فعلن ثكالى

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

فاشار "كسرى" ان يرى في امرها . ... فمضى الرسول الى الفتاة وقالا =
مولاى يعجب كيف لم تتقنعي . ... قالت له = اتعجبا وسؤالا ؟
انظر وقد قتل الحكيم ، فهل ترى ... الا رسوما حوله وظلالا ؟
فارجع الى الملك العظيم وقل له = ... مات النصيح وعشت انعم بالا
وبقيت وحدك بعده رجلا فسد ... وارع النساء ودبر الاطفالا
ماكانت الحسناء ترفع سترها ... لو ان في هذى الجموع رجالا

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

المســـــــــــا ء

قـال النـاظم وهو عليل في مكس الاسكندرية

داء الـمّ فخلت فيـه شـــفائي ... من صبوتي ، فتضاعفت برحائي

ياللضعيفين إذا استبدّا بي وما ... في الظلم مثل تحكم الضـعفاء

قلـب اذابته الصبابة والجـوى ... وغلالة رثـت من الادواء

والروح بينهما نسـيم تنهـــد ... في حالي التصويب والصعداء

والعقل كالمصباح يغشى نوره ... كدرى ويضعفه نضوب دمائي

xxxxxxxxxxxxxxxx

هـذا الذى ابقيته يا منيـتي ... من اضلعي وحشاشتي وذكائي

عمرين فيك اضعت لو انصفتني ... لم يجدرا بتأسفي وبكائي

عمر الفتى الفانـي وعمر مخلـد ... ببيانه لولاك في الاحـيـاء

فغدوت لم انعم كذى جهل ولم ... اغنم كذى عقل ضمان بقاء

xxxxxxxxxxxxxxxxx

يا كوكبا من يهتدى بضيائـه ... يهديـه طالـع ضلة وريـاء

يـا موردا يسقي الورود سرابه ... ظمأ الى ان يهلكوا بظمـاء

يا زهرة تحيي رواعي حسنها ... وتميت ناشقها بلا ارعـاء

هـذا عتابك ،غيراني مخطـيء ... ايام سـعد في هوى حسناء

حاشاك بل كتب الشقاء على الورى ... والحب لم يبرح احب شقاء

نعم الضلالة حيث تؤنس مقلتي ... انوار تلك الطلعة الزهـراء

نعم الشفاء اذا رويت برشفة ... مكذوبة من وهم ذاك المـاء

نعم الحياة اذا قضيت بنشقة ... من طيب تلك الروضة الغناء

xxxxxxxxxxxxxxxxx

انّي اقمت على التعلة بالمنى | في غربة قالوا= تكون دوائي
ان يشف هذا الجسم طيب هوائها | ايلطف النيران طيب هواء ؟
او يمسك الحوباء حسن مقامها | هل مسكة في البعد للحوباء ؟
عبث طوافي في البلاد وعلة | في علة منفاى لا ستشفاء
متفرد بصبابتي ، متفرد | بكآبتي ، متفرد بعنائي
شاك الى البحر اضطراب خواطرى | فيجيبني برياحه الهوجاء
ثاو على صخر اصم وليت لي | قلبا كهذى الصخرة الصماء
ينتابها موج كموج مكارهي | ويفتها كالسقم في اعضائي
والبحر خفاق الجوانب ضائق | كمدا كصدرى ساعة الامساء
تغشى البرية كدرة وكأنها | صعدت الى عينى من احشائي
والافق معتكر قريح جفنه | يغضي على الغمرات والاقذاء
يا للغروب وما به من عبرة | للمستهام ! وعبرة للرّائي ! !
اوليس نزعا للنهار وصرعة | للشمس بين مآتم الاضواء ؟
اوليس طمسا لليقين ومبعثا | للشك بين غلائل الظلماء ؟
اوليس محوا للوجود الى مدى | وابادة لمعالم الاشياء ؟
حتى يكون النور تجديدا لها | ويكون شبه البعث عود ذكاء

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

ولقد ذكرتك والنهار مودع والقلب بين مهابة ورجاء

وخواطري تبدو تجاه نواظري كلمى كدامية السحاب ازائي

والدمع من جفني يسيل مشعشعا بسنى الشعاع الغارب المترائي

والشمس في شفق يسيل نضارة فوق العقيق على ذرى سوداء

مرت خلال غمامتين تحدرا وتقطرت كالدمعة الحمراء

فكأن اخر دمعة للكون قد مزجت بآخر ادمعي لرثائي

وكانني آنست يومي زائلا فرأيت في المرآة كيف مسائي

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

فتاة الجبل الاسود

في حادثة جرت قبيل استقلال ذلك الجبل

طغت امة الجبل الاسود   على حكم فاتحها الايّد
وهبت منيخات اطوادها   نواشز كالابل الشرّد
وابلى النساء بلاء الرجا   ل لدى كل معترك اربد
نساء لدان القدود لها   خدود كزهر الرياض النّدى
تنظم مرحسنها جنة   على ذلك الجبل الاجرد

×××××××××××××

ويوم كأن شعاع الصبا   ح كساه مطارف من عسجد
تفرقت الترك فيه عصا   ئب كل فريق على مرصد
يسدون كل شعاب الجبا   ل على النازلين اوالصعد
اسود تراقب امثالها   ولا يلتقون على موعد
وكان عداهم على بؤسهم   وطول جهادهم المجهد
يوافونهم بغتات اللصو   ص ويرمون بالنار والجلمد
ويفترقون تجاه الصفو   ف ويجتمعون على المفرد
ويمتنعون بكلّ خفي   عصى على امهر الروّد
وأيّ رأى شاردا يقتنصه وأيّ رأى واردا يصطد
ويلتقمون جناح الخميس اذا العون اعيي على المنجد
منامهم جاثمين وقوفا ولا يهجعون على مرقد
وما منهم للعدى مرشد   سوى غادر ساء من مرشد

اذا لم يقدهم الى مهلك اضلّ بحيلته المهتدى
ويعتسف الترك في كل صو ب فهذا يروح وذا يغتدى

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

وما الترك الا شيوخ الحرو ب ومرتضعوها من المولد
اذا القحوها الدماء فلا نتاج سوى الفخر والسؤدد
سواء على المجد ايّا تكن عواقب اقدامهم تمجد
ولكنّ قوما يذودون عن حقيقتهم من يد المعتدى
وتعصمهم شامخات الجبا ل وكل مضيق بها موصد
ويدفعهم حب اوطانهم ويجمعهم شرف المقصد
لو الموت مدّ اليهم يدا لردوه عنهم كليل اليد

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

وكان من الترك جمع القليل على رأس منحدر اصلد
كثير الثلوج كأنّ الفتى اذا زلّ يهوى على مبرد
وقد نصبوا فوقه مدفعا يهز الرّواسخ ان يرعد
وحفوا كاشبال ليث به وهم في دعاب وهم في دد
ففاجأهم هابط كالقضا ء في شكل غضّ الصبى امرد
فتى كالصباح باشراقه له لفتة الرّشاء الاغيد
يدل سناه وسيماؤه على شرف الجاه والمحتد
ترد سواطع انواره سليم النواظر كالارمد
اقب الترائب غض الروا دف يختال عن غصن اميد
لهيب الحروب على وجنتيه والنقع في شعره الاسود

وفي محجريه بريق السيوف وظل المنية في الاثمد

فأكبر كلهم أنه رآه تجلى ولم يسجد

وظنوه مستنفرا هاربا اتاهم بذلة مستنجد

ولم يحسبوا ان ذا جرأة يهاجم جمعا بلا مسعد

تبين هلكا فلم يخشه واقدم اقدام مستأسد

فأفرغ نار سدا سيه على القوم ايا تصب تقصد

وضارب بالسيف يمنى ويسرى فأين يصب مغمدا يغمد

سقى الصخر من دمهم فارتوى ولم يشف منه الفؤاد الصدى

فما لبثوا ان احاطوا به فدان لكثرتهم عن يد

ولو لا اتقاء الخيانة فيه لكان الالد له يفتدى

فلما احتواه مقر الامير مقودا وما هو بالقيد

اشار، وما كاد يرنو اليه، بأن يقتلوه غداة الغد

فاقصى الفتى عنه حراسه وشق عن الصدر ما يرتدى

وابرز نهدى فتاة كعاب بطرف حيي ووجه ندى

كحقي لجين بقفلى عقيق وكنزين في رصد مرصد

فكبر مما رآه الامير وهلل اشهاد ذاك الندى

وراعهم ذانك التوأما ن وطوقا هما من دم الاكبد

ووثبهما عندما اطلقا بعزم الى ظاهر المجسد

كوثب صغار المها الظامئا ت نفرن خفافا الى مورد

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

وارخت ضفائرها فارتمت الى منكبيها من المعقد

تحيط دجاها بشمس عرا ها سقام فحالت الى فرقد

وقـالت = امهجة انثى تغـي — بثارات صرعاكـم الـهمـــّـد ؟
تفانوا فما خاس في وقعـــة — فتى من مســـود ولا ســيّـد
يرى العـز في نصر سلطانه — والا نفي مـوت مستشـهـد
ومن خلق الترك ان يورد وا — سيوفهم مهج الخـــّـرد
فدونكم قتـلة حلّـــلـت — تدى من دمائكـم مـا تـــدى

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

فاصغى الامير الى قولـهـا — ولم يستفزّ ولـم يحـــقد
واعظم نفـس الفتاة وبـــأ — سـا بها في الصناديد لم يعـهد
وحسنا بمشركة داعيــــا — الى الشرك من يـره يعبـــد
ابى عزة قتل انثى تـــذو — د ذياد المدافع لا المعتـدى
فقال = انقلوها الى مأمـــن — واوصوا بها نطـس العـــّـود
لتعلم انا باخـــــلا قنـا — ننـزّه عن تهـم الحســـد
فاذ اخرجـت قال للما كتيـــن وهم فـي ذهولهـــم المجمـــد =
لها الله في الـخيد من غـــادة !× — وفي الصيد من بطل اصـــيد !
انهلك شعبا غزت دار ه — ثقال الجيوش فلم يخــلـد ؟
خليق بنا ان نود القـــلى — ودادا ومن يصطنع يـــود د
فما بلـــد تفتديه النّـسا — ء كهذا الفداء بمستـــعبد

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

رثـــــاء

للمغفور لــه

الوزير الفارس الشاعر محمود باشا سامي البارودى

مصابك حـيّا عرا جعفرا وخطبك ميتا عرا قيصرا

رزئناك لم يغن منك البيا ن ولم يعصم الجاه ان تقبرا

وهذى النهاية عقبى النهى وذاك الثراء لهذا الثرى

وغياية مجدك في العالمين اذا عرفوا الفضل ان تشكرا

وآخر باسك ان يعتدى عليك دنينا وان يفترى

ايهتك عنها قميص المرو ءة تحت البلى منع ان تسترا ؟

وتثوى المروءة في دارهم وترضى المروءة ان تذكرا ؟

كذا انكشف الدهر للناس فيك عن قاهر عزّ ان يقهرا

حليم تراكا باقبا له ضروب دراكا متى ادبرا

لامر صفا لك حين صفا وكدّر وردك اذ كدّرا

يقول باحداثه الواعظا ت لمن همّ بالزهو اطرق كرى

xxxxxxxxxxxxxx

حياك زمانا بجاه الملو ك وبطش الاساطين مستوزرا

وفخر الغزاة قروم السرا يا وفكر الهداة نجوم السرى

وعزم يكون على امة قتاما وفي امة نيّرا

فكنت كما تبتغي عزّة وكنت كما ترتضى مظهرا

وكنت معا فارسا شاعرا وكنت معا ندسا قسورا

جميع المزايا فما للبنيا ن وما للغياث وما للقرى ؟!

نظيرك مبتكرا مبدعا شهابا سنيّا ندى ممطرا

نظمت المعالي نظم المعانــي ففتح الكلام كفتح القرى
وطعن السّنان كنفث اليراع وكلهما بالنهى حبّرا
وضم الجيوش كنسق القريض وتقسيمه اشطرا اشطرا
وسهل القتال كطرس به يسطر باسك ما سطرا
بنقط الجماجم اعجامه واهماله جوبه مقفرا
وتغويفه بنعال الجيا د وتدبيجه بدم احمرا
فيا غازيا ذاك اعجازه ويا ناظما ذاك ما صورا
اتلك من الكلم الذّاكيا ت تسيل النفوس بها انهرا ؟
شقائق آياتك النـاديا ت رحيقا من الانس اوكوثرا ؟
ام الصافيات شوافي الاوا م بما تحتها من زلال جرى ؟
ام الجاليات يبنّ لنا من الغيب كل ضمير سرى ؟
ام المطربات يشنغننا بشد والهزار وقد بكّرا
ام المرسلات هدى للانا م حقائق مودعة جوهرا
فهل كان افرس منك فتى ؟ وهل كان منك فتى اشعرا ؟
كلا المفخرين يراعا وسيفا دعا تاجه لك مستأثرا
فتاج عصاك وتاج علا ك وكان الاحق بان يؤثرا

xxxxxxxxxxxxx

فلما رقيت الى المنتهى وكدت تجاوز ما قدرا
رماك الزمان باحداثه مجيشة فانبرت وانبرى
ابان المحبين وا لآل عنك واقصى الموالي والعسكرا
واسكت افراسك الصاهلات واصمت صمصامك الابترا
واخرس من قال =لله انت ء وابكم حولك من كبرا
وسكن روع الغلا مجفلات وامّن شامخها اصعرا

ونفس كرب الظبا لا فتات ... ويروح اليها اصورا
والوى عليك فادمى واصلى ... وصال وطال وما اقصرا

xxxxxxxxxxxxxx

رمى بك في السجن من حالق ... اليف الجناة طريح العرا
واثخن جرحا فاقصاك عن ... ثرى مصر مجتنبا مزدرى
وزادك ضيما فحجب عن ... عيونك ضوء الضحى مسفرا
وجاز النكال فاردى ابنتيك كما يذبح الذبح او انكرا
ولكن ابى لك ذاك الابا ... ء الا الثبات وان تصبرا
وهل في الاسى غير صدع الحشى ؟ ... وتدمية الجفن مستعبرا ؟
وتهوين نفس لدى خصمها ... بلا طائل غيران تصغرا ؟
فلم تنتقصك الرزايا ولكن ... اعادتك محنتها اكبرا
ورد بياض المشيب ثنا ... ءك اجلى بهاء وقد طهرا
فما كان سجنك الا قرارا ... وقد تعب الجد ان يسهرا
ولا النفى الا خلاء اعدت ... به زمن الادب الازهرا
ولا الثكل الا لتأسى اسا ... ك وتبكى بكاء ليوث الشرى
ولا الغض عما تراه العيو ... ن الا وقد ساء ان ينظرا
اذا وسع الكون فكر امرىء ... فلا بأس بالطرف ان يحسرا
على الشمس ان تهدى المبصرين ... وليس على الشمس ان تبصرا

xxxxxxxxxxxxxxx

فيا جسم "محمود" بت في سكون ... ويا عين "سام" اهنئ بالكرى
ويا فكرة كم نشدت العلى ... بلغت مداها فماذا ترى ؟
اطل على هذه الكائنا ... ت من حيث انت باسمى الذرى
اتنظر غير فضاء رحيب ... تحاكي النجوم به العثيرا ؟

وتسمع غير شبيه الحفيف   لما اصطك منها وما كوّرا ؟
فقل صامتا واشر مائتا   لمن تاه في الارض واستكبرا
علام تباذخ هذى الجبال ؟   وفيم تشامخ هذا الورى ؟

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

حـــق الوطـــــــن

وحـــق الاخــــاء

هي المرثية التي انشدها الناظـم علـى ضريح
المغفور له مصطفى كامل باشا فـي حفلة الاربعين

اعلى مكانتك الالــه وشرّفا   فانعم بطيب جواره يا مصطفى
اليوم فزت باجر ما اسلفتــه   خيرا ،وكل واجد ما اسلفــا
وجزيت من فاني الوجود بخالد   ومن الاسى الماضي بمقتبل الصفا

xxxxxxxxxxxxxxxxxx

اعظم بيومك في الزمان ومن له   بك واصفا ذاك الجلال فيوصـفا ؟ !
يوم الملائكة الكرام تنزلـــوا   حانين حولك في السرير وعكّفـا
وتحمّلوك على الاشعة وارتقوا   سربا يجوز بك الدراريء موجفـا
فوردت وردك في الخلود منعّما   والارض مائدة عليـك تأسّــفا
لم تلف قبلك امـّـة في مشهد   يذري الرجال به المدامع ذرّفـا
متثاقلين من الوقار وانّـــما   ساروا بطيف ناحل او انحـــفا
بحر من الاحياء نعشك فوقــه   فلك يظلله اللــواء مرفرفـــا
يبكون في آثاره العلم الـــذى   آثاره من رفعـــة لا تقتــفــى
ســعت الخوادر حاسرات والاسى   ملق على الابصـار سترا اغدفـا
ولئن سفرن ولم يخلن فانـــه   خطب الان بروعه صمّ الصّفا
فزع الشباب الى الشيوخ بثأرهم   من دمعهم ان خانهم فتكفكفـا
ومن الغضاضة ان دعا داعي العلى   بعد الفقيد فتى بهم فتوقـفا
جزع النصارى واليهود لمسـلم   هو خير من والى واوفى من وفى

بكوا المرجّى في خلاف عارض ... ليزيل ذاك العارض المتكشّفا

واشتد رزء المسلمين وحزنهم ... لما مضيت ولست فيهم مخلفا

من بعد كاتبهم وبعد خطيبهم ... يعلى لهم صوتا وينشر مصحفا ؟

xxxxxxxxxxxxxx

من يبرئ الاسلام من تهم العدى ... ويرد نقد الناقدين مزيّفا ؟

يبدي لأعين جاهليه فضله ... ويزيل ما يلد التناكر من جفا

ويثير من غضب الغضاب لمجده ... همما تعيد له المقام الاشرفا

لكنّ من اقلام صحبك حوله ... سمرا تهز لكل خطب معطفا

ولعل حرا لايدين به انبرى ... ليذود عنه خصمه المتعسفا

قف ايها الناعي عليه جموده ... فلقد تجاوزت الهدى متفلسفا

ان يعتر الشمس الكسوف هنيهة ... ايكون منقصة لها ان تكسفا ؟

وهل الكسوف سوى تعرّض حائل ... يثني اشعتها الى ان يكشفا ؟

لم تنزل الاديان الا هاديا ... للعالمين ورادعا ومثقفا

بشعار حيّ على الفلاح وما بها ... ان قصّر الاقوام عنه فاخلفا

وبكل امر موجب اصلاحهم ... ان خالفوه فما استحال ولا انتفى

قد كان للاسلام عهد باهر ... نلنا به هذا الرقيّ مسلّفا

ملاء البلاد انارة وحضارة ... ومنى السماحة عوده مستأنفا

فالخير كل الخير فيه مقبلا ... والشر كل الشر ان يتخلّفا

يدعو البقاء الى التكافؤ بالقوى ... بين العناصر او يهين ويضعفا

والخلق جسم ان المّ ببعضه ... سقم ولم يتلاف عمّ واتلفا

xxxxxxxxxxxxxxxxxxx

"مصر" العزيزة قد ذكرت لك اسمها ... وارى ترابك من حنين قد هفا
وكأنني بالقبر اصبح منبرا ... وكأنني بك موشك ان تهتفا
"مصر" التي لم تحظ من نجبائها ... باعز منك، ولم تعز با حصفا
"مصر" التي لم تبغ الا نفعها ... في الحالتين ملاينا ومعنفا
"مصر" التي غسلت يداك جراحها ... بصبيب دمعك جاريا مستنزفا
"مصر" التي كافحت لدّ عداتها ... متصدرا لرماتها مستهدفا
"مصر" التي سقت الجيوش منا قبا ... ومنى لتكفيها المغير المجحفا
"مصر" التي احببتها الحب الذى ... بلغ الفداء نزاهة وتعففا
حتى مضيت كما ابتغيت مؤلفا ... من شملها ما لم يكن ليؤلفا
امنية اعيت خصابك دونها ... لو لم يضافرها رداك فيسعفا
وهي التي لو قسمّت لنما بها ... شعب يعز بنفسه مستنصفا

xxxxxxxxxxxxxx

من كان اجرأ منك يوم كريهة ... بالحق، لا شكسا ولا متصلّفا ؟
من كان اقدر منك تصريفا لما ... يعيي الحكيم مدبرا ومصرفا ؟
من كان اطهر منك خلقا جامعا ... فيه مهيب الطبع والمستظرفا؟
من كان اسمح منك منّاعا لما ... تهوى ومعطاء لغيرك مسرفا؟
من كان اصدق منك لا متنصّلا ... مما تقول ولا تعاهد مخلفا؟

xxxxxxxxxxxxxxxx

يامن تعى تلك الفضائل والعلى ... اغدت معالمهن قاعا صفصفا؟
لا لا وحقك يا شهيد وفائه ... ورجائه كذب النعّى وارجفا
ما انت بالرجل الذى يمسي وقد ... ملء الوجود به ويصبح قد عفا

انـى اراك ولا تزال كعهد نــا ... بك في جهـادك او اشد واشـعفا

ثابر على تلك العزائم ذائــدا ... عن " مصر " تضرب في البلاد مطوفا

اصدر صحائفك التي تحيي بهـا ... نضو الطريق وتدفع المتخلـفا

تجرى بها الانهار وهي دوافـق ... هما وتوشك ان تطـمّ فتجرفـا

وتكاد اسطرهـا تهب نواطـقا ... ويكاد يعزف كل حرف معـزفـا

فاذا حنوت على الحمى متحبّبا ... فهو النسيم وقد ذكا وتلـطفا

وكأنمـا الالفاظ مـمّا خفّـفت ... نقش المـداد رسومها وتخـفّفا

تستام من اثوابها اروا حـهـا ... وتعاف تحليـة لـئلا تكـثفا

قم للخطابة في المجامع وامتـلك ... تلك النفـوس موعـا ومثـنفا

اعد القديم من الممالك والقـرى ... ذكرى وعرفنـا الحياة لنعرفـا

شـدد عزائمنا وقاتـل ضعفـنا ... حتى نبيـت ولا نرى متخوفـا

ما هذه الآيات يرمي لـفظها ... شررا ، وتهوى الشهب فيها احرفـا ؟

ما ذلك الترصيع ليس مرصّـعا ؟ ... ما ذلك التفويف ليـس مفوّفـا ؟

وحي باهجيـة اذا ما اطلقـت ... هبطت رواسب عنه ، والمغزى طفا

تحيي حرارتها ويهدى نورهـا ... متماهل الاشراق او متخطّـفا

تالله ما انت الخطيب وانـما ... وقف القضاء من المنصـة موقـفا

عن نطقه تقع الصروف مواعـظا ... وكأمره امر الزمـان مـصرّفا

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

يا حبذا لو كل ذلك لم يزل ... لكنه حلم مضى مستطرفا
والان نحن لدى ثراك نحجه ... متلهبين تشوقا وتشوفا
نثني ،وهل يوفي ثناؤك حقه ؟ ... وبأى الفاظ المحامد يكتفي ؟
ماذا يعيضك من شبابك نظمنا ... فيك الرثاء منسقا ومصففا ؟
ويعيض منك وكنت جوهرة الحمى ... صوغ الكلام مرصعا ومزخرفا ؟
يا اخلص الخلصاء ابكي بعده ... كبكاء "مصر" تحرقا وتلهفا !
هذا مثالك لاح يرعانا وقد ... كشف الجوى عنه الحجاب فاشرفا
جاد الهلال برسمه تاجا له ... وكسته نا سجة الطهارة مطرفا

xxxxxxxxxxxxxxxxxx

يا من رماه عداته بتطرف ... حققت آمال الهدى متطرفا
كهواك للاوطان فليكن الهوى ... لا مفترى فيه ولا متكلفا
يجري على قدر المطالب ناميا ... ويجل في مجراه عن ان يصدفا
انشأت من "مصر" الشتات بفضله ... "مصر" الفتاة حمى يعز ومألفا
احدثت فيها امة اندى يدا ... للصالحات وبالعظائم اكلفا
عرفت اهليها حقيقة قدرهم ... وكفاهم من قدرهم ان يعرفا
نفحات روحك خامرت ارواحهم ... فهم مرامك ساء دهرا وصفا
حصن اشم تساندت اجزاؤه ... علما ، وامنه النهى ان ينسفا
فارقد رقادك ان ربك قد محا ... بك ذنب "مصر" كما رجوت وقد عفا

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

مقاطعـــــــــة

نظمت لما بدئ اضطهاد الاحرار وسلط قانون المطبوعات على الافكار

شرّدوا اخيارها بحرا وبرّا ... واقتلوا احرارها حرّا فحرّا

انما الصالح يبقى صالحـا ... اخر الدّهر ويبقى الشّر شرّا

كسّروا الاقلام هل تكسيرها ... يمنع الايدى ان تنقش صخرا

قطّعوا الايدى هل تقطيعهـا ... يمنع الاعين ان تنظر شزرا

اطفئوا الاعين هل اطفأوها ... يمنع الانفاس ان تصعد زفرا

اخمدوا الانفاس هذا جهدكم ... وبه منجاتنا منكم فشكرا !

الاســـد الباكـــي

اصل العنوان "ساعة يأس" ولكن اجماع القراء بعد نشر القصيدة اطلق عليها اسم "الاسد الباكي". قالها الشاعر ، وقد اعتكف في مصر الجديدة حين تأسيسها واسمها آنئذ "عين شمس" ، وبث بها حزنا دويا كان قد انتابه .

دعوتك استشفى اليك فوافنى على غير علم منك انك لى آسى
فان تونى والحزن ملء جوانحي اداريه فليغررك بشرى وايناسى
وكم في فؤادى من جراح ثخينة يحجبها بردای عن اعين الناس
الى "عين شمس" قد لجأت وحاجتي طلاقة جو لم يدنس بارجاس
اسرى همومى بانفرادى آمنا مكايد واش او نمائم دساس
يخالون انى في متاع حيالها وای متاع في جوار لديماس
ارى روضة لسكنها روضة الردى واصغى وما في مسمعى غير وسواس
وانظر من حولي مشاة وركبا على مزجيات من دخان وافراس
كأنى في رؤيا يزف الاسى بها طوائف جن في مواكب اعراس

+ + +

وما "عين شمس" غير ما ارتجل النى بقفر جديب من مبان واغراس
بنوها فاعلوها وما هو غير ان جرت احرف مرسومة فوق قرطاس
بدت ارم ذات العماد كأنها من القاع شدتها النجوم بامراس
كفتها ليال نزرة فتجددت ثوابت اركان رواسخ آســاس
وغالط فيها البعث ما خالط الحلى بها من ضروب محدثات واجناس

+ + +

هناك ابيح الشجو نفسا منيعة على الضيم مهما يفلل الضيم من باسى
يمر بي الاخوان في خطراتهم اولئك عوّادى وليسوا بجلاّسى
أهشّ اليهم ما اهشّ تلطفا وفي النفس ما فيها من الحزن والياس
ذروني وانجوا من شظايا تصيبكم اذا لم اطق صبرا فاطلقت انفاسى
فانى على ما ندلني من مساءة لأرحم صحبى ان يلمّ بهم باسى
ذرونى لا يملك وجيفى قلوبكم اذا مرّ ذاك الطّيف وادّكر النّاسى
فتالله لولا ذلك الطّيف والهوى لمسعد لم يملك الدّهر اتعاسى
ذرونى احس الخمر غير منفر عن الورد منها نفرة الطّائر الحاسى
فربّت كاس عن شفاهى رددتها وقد قتل الدّمع السلافة في الكاس
ذرونى انكّس هامتى غير متق ملامة روّاد وشبهة جوّاس
فبى حرّة بكر ضلوعى سياجها أراش عليها سهمه معتد قاس
اعيد اليها كلّ حين نواظرى واخفض من عطف على جرحها راسى

+ + +

يكاد يبث المجد مالا ابثه من السّقم العوّاد والسّأم الرّاسى
أنا الألم السّاجى لبعد مزافرى انا الامل الداجى ولم يخب نبراسى
انا الاسد الباكى ، انا جبل الاسى انا الرمس يمشى داميا فوق ارماس
فيا منتهى حبى الى منتهى المنى ونعمة فكرى فوق شقوة احساسى
دعوتك استشفى اليك فوافنى على غير علم منك انك لى آسى

من غريب

الى عصفورة مغتربة

نظمت في جنيف بقرب تمثال جان جاك روسو · وقد رأى الشاعر على شجرة طائرا يشبه ان يكون مصريا ·

هي خطرة فكر للناظم ألف ان يرسل مثلها في موعد من كل عام تحية الى فقيد عزيز في عالم الغيب· وقد جعل مدارها في هذه القصيد على عصفورة اشتبهت عليه بين ان تكون مجلوبة من مصر للاتجار او قاطعة من قواطع الاطيار ·

يا من شكت الى معي	طيّبته في مسمعي
شكواك الطف بلسم	لجراحة المتوجع
ما أعلق الشدو الرّخيم	بكلّ قلب مولع

\+ \+ \+

بنت " الكنانة " ما رمى	بك بين هذى الأربع ؟
فيم اغتربت وكنت في	ذاك الأمان الأمنع ؟
أحملت محمل سلعة ~~جلبا ×××××~~	جلبا بغير تطوّع؟
نفررت من قفص الكفيل	الى الفضاء الأوسع
وبودك الحود القريب	لسربك المستمتع
في " مصر " مصرخة اللّهيف	ومجلاء المتفزع

"مصر" السّماء الصّحو ، "مصر" ـ ـ الدّفء "مصر" المشبح

"مصر" التى ماريح سا كنها بريح زعزع

حيثالمراعى والنّدى للمرتوى والمرتعى

حيث السواقى الحانيا ت على الطّيور الرّضع

حيث الحرارة ما توا ل ربيبها يترعرع؟

+ + +

أم انت من تلك الجوا لى في الفصول الاربع

لا تعرفين من الوّما ن سوى المكان الممرع

تثبين من مترنّح ابدا الى مترنّح

بهداية صحّت على طلب الاحب الانفع

وثقوب فكر في التوجّه واختيار المنجع

وغناء رأى عن دلا لة ابرة او مهيع

وقناعة من قسمة لك عند خير موزّع

في السّرب انّى سار لا تخشين سوء الموقع

+ * +

السّرب ما في السّرب من عجب لذى قلب يعى

تنضم حين جلائه	اشتاته في مجمع
من غير ميعاد تقد	م للترحيل المزمع
فاذا علا ازري على	سرب السفين المقلع
آلا ف آلاف بغير	تلكوء الاهلع وتضعضع
وبلا هزيز تقلقل	وبلا ازيز تخلع
وبلا اصطدام في الزحا	م محطم ومصدع
ان تلتئم فمرورها	كالعارض المتقشع
او تفترق فهي الجيو	ش بقادة وبتتبع
كل يسير ولا يخا	لف في الطريق المشرع
كل يجاري رأيه	والرأي غير موزع
كل كربان يدير	زمام فلك طيع

\+ \+ \+

باليمن ياغريدة	الوادي الى الوادي ارجعي
اني لا سمع في غنا	ئك رقرقات الأدمع
ويروعني شجن به	كشجي بحلق مودع
تلك البراعة ما استتمت	في جمال ابرع

\+ \+ \+

جسم كحق للحيا	ة معرق ومضلع

يغشاه ثوب دبّجت ‏ ‏ الوانه يد مبدع

المتن يزدهر ازدها ‏ ‏ ر الاخضر المتجمع

والصدر فيما دونه ‏ ‏ يزهى باحمر مشبع

والجيد زين من النضا ‏ ‏ ر بحلية لم تصنع

دع كل نقش في الخلال ‏ ‏ موشم ومبقع

ودع القوادم تستقل ‏ ‏ بريشها المتنوع

آيات خلق من يجل ‏ ‏ نظرا بها يتخشع

اعظم بها في ذلك الجـ ‏ ‏ سم الصّغير الاضرع

لولا الحراك لخيل من ‏ ‏ ثمر هنالك مونع

حلو الشمائل ان يجا ‏ ‏ ر الطبع او يتطبع

يرنو بفائضتى سنى ‏ ‏ كالجوهر المتطلع

يسهو بغاشيتين تنسدلان ‏ ‏ سدل البرقع

متطاول الخدّين · في ‏ ‏ وجه حديد المقطع

منقاره كقلامتين من ‏ ‏ الظلام الأسفع

+ + +

اخت الشوادى الخضر حا ‏ ‏ نت لفتة المتنوع

بك نزعتى نحو الحمى ‏ ‏ وكذاك قيدى فانزعى

القى الوداع تأهبا ‏ ‏ واستوفزى واستجمعى

لله وثبتك البديعة ‏ ‏ اذ وثبت لتطلعى

حيث الضحى متساكب ‏ ‏ كطلا بكف مشعشع

والريح تحضن آخر النّغمات ‏ ‏ حضن المرضع

والدّوح ميّاد الرّؤو — س مشيّع بالاذرع
وتعطّف الأفنان — شبه تقصّف في اضلع

\+ + +

خضت الضياء على غوا — رب موجه المتدفع
تتصاعدين وما الشها — ب المستطار باسرع
يرمي جناحاك المها — وى بالشعاع السطّع
وتراع رائعة التّها — ر لوهجك المتفرّع
ولشكّة الالوان حولك — كالنصال الشرّع
مزّقت استار الدّنى — عن عالم متقنّع
جمّ الخلايا في حوا — شي النور خافي الموضع
انزلت هولا في قراه — وفي الذرائر اجمع
انظرت عن كثب الى — ملاء هناك مروّع
هي وقعة في الجوّ بيـ — ن هبائه المتلمّع
هبّت خلائقه على — ذاك المغير المفزع
في اسد غاب تستطير — ونبي ذباب وقّع
يجددن حربا كالكما — ة وكلّ لرماة الرّكع
يكررن او يفررن — بين تفرّد وتجمّع
يرمين بالرّجم الدّقا — ق وبالنجوم الظلّع

\+ + +

تيهي بغارتك السنية   في المجال الارفع

ماشأن "كسرى" في الفتو   ح وما مفاخر "تبّع" ؟

لا مجد يبلغ مجدك الاسنى   بذاك المفرع

لا صفو اروح من   تحرير خصمك المتضعضع

لا سلم ابهج من تها   يل ركنه المتزعزع

امم الاثير جمالها   في ان تراع ، فروّعي

وتتمّ آية حسنها   بالأمن بعد تفزّع

فاذا مضيت ولم تصب   ببلائك المتوقّع

بل جزيت بالحسنى وسا   ء تورّع المتورّع

ثابت الى فرح ،كذ   لك توبة المتسرّع

فسديمها كغبار درّ   ساطع في مسطع

والجوّ تملأه نسا   لات البروق اللمّع

+ + +

سيرى وولّى صدرك ال   مشتاق شطر المربع

حتّى اذا ما جئته   وشرعت اعذب مشرع

وشدوت ماشاء السّرو   ر على ارتقاص الأفرع

عوجى ببستان هنا   لك في العراء مضيّع

صفصافه متناوح   والنور بادى المدمع

لى في ثراه دفينة   كالكنز في المستودع

تخفى الأزاهر قبرها عن اعين المستطلع
كانت مثالا للمحا سن في مثال اروع
فتحوّلت لطفا الى طيف ارقّ وابدع
طيف يشفّ به البلى عن رفعة وتمنّع
فاذا السماء قراره والنجم بعض البرقع
قولى له ان جئته يا ايّها هذا البلقع
اتحسّ في هذا الثّرى نبضان قلب موجع ؟
هذا حنين من فوءا د محبّك المتفجّع
عدت العوادى جسمه عن قرب هذا المضجع
فمضى بأحزن ما يكو ن اخو الأسى وبأجزع
ونوى الضّريح اضرّه كنواك يوم المصرع

+ + +

نعم الشّفيعة انت لى عند الملائك ! فاشفعى
من لى بصوت مثل صو تك مبلغ لتضرّعى ؟
ينهى الى ثاوى الجنا ن فيستجيب وقد دعى
انّ الذى ابكيه وهو من النّعيم بمرتع
برّ على رغم الفرا ق بعبده المتخشّع
كم زرته في يقظة والمّ بى في مهجع
يدعو الىّ تنزّلا عن عرشه المترفّع

وكم التمست لصوته رجعا فحقق مطمعى

قطع الغيوب وجاءنى بحروضه المتقطع

هذا الوفاء وفاؤه فادعيه لا يتمتع

بهتاف لوعتى اهتفى وصدى حنيني رجعى

حتى يجيب ، فأنصتى بضميرى المتسمع !

حفلــــة لاعانة الطلبة الغرباء

في الازهر الشريف

شهدها كبراء رجال الدولة وعلماؤها وسراتها وأدباؤها بدار الاوبرا عام ١٩١٥

فاح ريحانها ولاح الخزام — وجلت عن حليّها الأكمام
كلّ ورد في غير "مصر" لعا — م وفي مصر ليس للورد عام
ما لأعقابه وداع ، ولكنّ — بواكيره سلام سلام
بلد من حيائه دعة الوا — دي ومن كبريائه "الاهرام"
فاض بالخير نيله فسقاه — وتراءى للازد يان الغمام
رقّ فيه الشتاء حتى ليبدو — في ثناياه للرّبيع ابتسام
غرّدت صادحاته فرحات — وتناست نواحهنّ الحمام
سطعت شمسه فما يتغشى — نورها الصّافي البهيج قتام
حبّذا "مصر" في الرّباع رباعا — لا يضاهي المقام فيها مقام
شمل السّعد اهلها وكفتهم — ما كفتت اصفياءها الأيام
ملء الخافقان قتلا وثكلا — وحماها على الصروف حرام
لم يرعها هزيم رعد ولا ايما — ض برق ولم يضرها صدام
تغنم العيش في رخاء وامن — ويغول الشّعوب موت زؤام
ايها الناعمون ان تشكروا الله — كما ينبغي له لم تضاموا
باشروا الخير يدفع الشّر عنكم — انما الخير عصمة وسلام
كلّ ضرب من الجميل جميل — غير ان العزيز فيه التّمام

هل سواء في الفضل ما يتقضى — معه نفعه وما يستدام ؟
اعطاء به تربى نفوس — كعطاء xxxxxx به ترمّ عظام ؟
للندى موقع الندى فاذا لم — تصلح الارض فالجنى لا يرام
رب سهل تقشع العارض الهطا — ل عنه كما يمرّ الجهام
وكثيب سقاه من زاد سفر — رشح ماء ، فبشّ فيه الثمام
أكمل الجود ما به كثر الصفوة في — ام اُمّة وقلّ الطّغام

+ + +

طالب العلم اجدر الناس بالحسنى — اذا ما ابتغى الصّلاح الانام
من يعاونه بالحطام يحقق — في غد قدر ما افاد الحطام
من يقلده نعمة يوم عسر — فعلى قومه له الانعام
من يبدد عنه الغياهب يطلع — كوكبا تهتدى به الاحلام
من يمهد له السبيل يهيئ غثرة — واقعا بها الظّلام
درّ في المجد درّ فتيان مجد — كلهم نابه الفؤاد عصام
قد يمارون بالكلام اباء — وبهم غير ما يبين الكلام
فمن الحال ما تراه ومنها — ما تحسن الظّنون والافهام
وكمال الكرام ان يستشفوا — من حجاب مالا يبثّ الكرام
للنبيين معشر كفلوهم — والنبيّون قصّر ايتام
ما على العلم لا ولا طالبيه — من نصير غضاضة او ذام
هم اماني كل شعب ومنهم — يستمد الهداة والاعلام
هكذا تستغل احسانها الأقوا — م فيهم فتسعد الأقوام
لم تقم أمّة بسوقة جهل — انما الأمة الرجال العظام

رثـــــاء .

المرحوم اســـــماعيل صبرى باشا .

شهب تبين فما تـــــأوب فكأنها حبب يـــذوب .
أرايت في كـــأس الطلى دررا وقد صعدت تصوب ؟
هو ذاك في لج الدجـــى طفو الدرارى والرسوب .
لافرق بين كبيـــــرها وصغيرها فيما ينوب .
كل الى أجل وعقبـــــــــــــــــى كل طالعة وقـــوب .

. . . .

اليوم نجم من نجوم الشعر أدركـــــــــــــه الغروب .
وثبت به في أوجه الـــــــ أسنى فغالته شعوب .
لقي الحقيقة شاعـــــر ما غره الوهم الكذوب .
أوفى على "عدن" ومـــا هو عن محاسنها غريب .
كم بات يشهدها وقـــد شفت له عنها الغيوب .
يا خطب "اسماعيل صبـــــــــرى" ليس تبلغك الخطوب .
جزع الحمى لنعيـــه وبكاه شبان وشيـــب .
أى صاحبي لقد قضـــى أستاذنا البر الحبيب .
فعرا قلادتنا ـ وكـــا نت زينة الدنيا شحوب .
اني لأذكر والأســـى بين الضلوع له شبوب .
عهدا به ضمت فـــؤا دا واحدا منا الجنوب .
اذ بعضنا من غير مـــا نسب الى بعض نسيب .
وبغير قربى بيننـــــا كل الى كل قريب .
الشعر ألفنا فما اختلـــــــــف العريق ولا الجنيب .
والفن يأبى أن تفـــــــــــرقه المواطن والشعوب .
مستشرف لا السلـــم طلاع اليه ولا الحروب .
يضفي به الضوء الهـــلا ل ويبسط الظل الصليب .
لو دام ذاك العـــهد . . لكـــن هل ليوم رضى عقيـــــب ؟

. . . .

يا « مصر » قام العذران يقلق مضاجعك الوجيب .
وعلى فقيد كالذى تبكين فليكن النحيب .
مات الأديب وانه في كل معنى للأديب .
مات المحامي عن ذمار ك مات قاضيك الأريب .
مات الأبي وتحت لين قوله الرأى الصليب .
مات الذى تدعوه داعية الولاء فيستجيب .
مات الذى كان مشهده يذم ولا المغيب .
مات الذى ما كان في أخلاقه شيء يريب .
مات الذى منظومه لأولى النهى سحر خلوب .
الضارب الأمثال ليس له بروعتها ضريب .
هل في الجديد كقوله المأثور والمعنى جليب :
« آهان لوعرف الشباب وآه لو قدر المشيب » .

....

شعر على الأيام يرويه مردده الطروب .
وكأنما في أذن قارئه يغني عندليب .
كل المعاني معجب ما شاء والمبنى عجيب .
ناهيك بالألفاظ ما جود اللبق اللبيب .
كالدر مكن في العقود وللشعاع به وثوب .
ديباجة كأدق ما نسجت شمال أو جنوب .
فيها حلى جد الفواتن وشيها واش لعوب .
آيات حسن كلها صفو وليس بها مشوب .
في رقة النسمات بالعبق الذكي لها هبوب .
تستافها رأد الضحى ويظلك الوادى الخصيب .
في بهجة الزهرات باكرهن مدرار سكوب .
فاللحظ يشرب والندى مشمولة والكم كوب .

....

كتسيبه الآخاذ بـــــــالألباب فليكن النسيب .
وكمدحه المدح الذى أبدا له ثوب قشيب .
وكوصفه الوصف الذى عن رؤية الرائي ينوب .
يتناول الغرض البعيـــــــد اذا البعيد هو القريب .
أو يبرز الخلق السـوى فللحياة به دبيب .
كل يصادف من هوا ه عنده ما يستطيب .
فكأن ما تجرى خـــوا طره به تجرى القلوب .

....

لله - صبرى - وهو للغـــــــــة التي انتهكت غضوب .
بالرفق « ينقد » ما يزيــــــف المخطئون ولا « يعيب » .
في رأيه « اللغة البلا د - أجل هو الرأى المصيب .
يودى الفصيح من اللغات اذا غفا عنه الرقيب .

....

أفديك ، فارقت الحيا ة وغيرك الجزع الكئيب .
جارت عليك فضا ق عنـ سعة بها الذرع الرحيب .
تلك الحياة وما بها الا لأهل الخبث طيب .
كم بت في سهد وأنـــــــت لغاية شقت طلوب .
جواب آفاق المعـــــا رف والأسى فيما تجوب .
حتي تحصل ما تحصــــــــل من فنون لا تثيب .
وجزاء كدك ذلك الـــــــداء الدوى به تثوب .

....

الكاتب العربي مهمــــــــا يدهه فله الذهوب .
ان لم يصب مالا وكيـــــــف وتلك بيئته يصيب .
فالفضل منقصة لـــــه وخلاله الحسنى عيوب .
ويمر بالعيش الكريم ومــــــا له منه نصيب .
فاذا قنى مالا كمـــــا يقنى لعقباه الحسيب .
حذر المهانات التـــى متقدموه بها أصيبوا .
أفني بمجهوديه قو ته وأرداه اللغوب .

....

قتلا بنفث دم قتلـــــت وعج مرقدك الخضيب .
فثويت في اليوم المنجـــــي واسمه اليوم العصيب .
وبحق من كنت المنيـــــب اليه يانعم المنيب .
لا خف من بعض المقا لة ذلك الموت الحزيب .
أعني مقالة كاشـح في قدرك العالي يريب .
ممّن يهش كما تثائـب وهو طاوى الكشح ذيب .
شر الأنام الباســمو ن وفي جوا نحهم لهيب .
المدعون « البحث » حيـــــن القصد منهم أن « يغيبوا »
متنقصو محســـود هم وله التجلة والوجوب .
فئة تنال من الفتى ما لم تنل منه الكروب .
لفخاره تأسى كأن فخــــــاره منها سليب .
قالت لتضليل العقــو ل وليس كالتضليل حوب .
« صبرى » مثل ورده عذب وآفة النضوب .
للحب بما أخفوا وظا هر قصد هم عطف وحوب .
ما الشعر يا أهل النهى والذكر ديوان رغيب .
من يسأل الحصرى و « ابن ذريق » فاسمهما يجيب .
أزهى وأبهى الورد لا يأتي به الفل العجيب .
ماذا أجاد سوى القليل أبـــوعبادة أو حبيب .
لو طبق السبع النعيـــب أيطرب السمع النعيب ؟
أو لم يطل شدو وشا ديه الهزار أما يطيب ؟
الشعر تلبية القوا في والشعور بها مهيب .
وبه من الايقاع ضر ب لا تحاكيه الضروب .
هو محض موسيقى وحســـات تصورها الضووب .
هو نوح ساقية شكت لا قدر ما يحوى القليب
هو ما بكاه القلب لا معيار ما جرت الغروب .
هو أنة وتسيل من جرائها نفس صبيب .

. . . .

عمد ورا ليك وأنت ميـــــت ذاك بأسهم الغريب .
ولقد تراهم ساخرا منهم وأجمعهم نخيب .
خالوا رداك أباحة خابوا ومثلهم يخيب .

. . . .

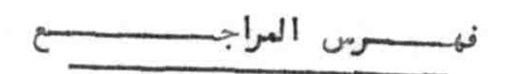
فاذهب أبا الشعراء فخـــرك ليس ضائره الذهوب .
أمّا بنوك فعنـــد ظـــن النبل أبرار ندوب .
نم عنهمو ومقامك العـــــالي وجانبك المهيب .
لك في النهى بعد النوى شفق ولكن لا يغيب .

الشـــاعر

يوقع على وتره الأخير لحن الرضى
وسكينة النفس .

ماذا يريد الشعر مني ؟   أ خني عليه علو سني ما
هل كان ما ذهبت به ال   أيام من أدبي وفني ؟
أحسنت ظني والليا   لي لم توافق حسن ظني .
ورجعت من سوق عرضت بضاعتي فيها بغبن .
أفكان ذلك ذنبها   أم كان ذنبي ؟ لا تسلني لم
خمدت بي النار التي   رفعت بعين العصر شأني .
هي شعلة كانت تثير قريحتي وتنير ذهني .
أيام لي طرب وقلبي موقع السهم المرن .
لا تندبني للعظا   ثم بعدها ، لا تندبني !
يا من يحلني تكا   ليف الشباب ارفق بوهني .
زمني تولى والأولى   عمروه من صحبي فدعني .
ولى الربيع وجف عو   دي وانقضى عهد التغني .
وعدمت لذات الرؤى   وعدمت لذات التمني .
اني ختمت العيش في   وادي المخيلة أو كأني .
فاذا بدت لك همة   من دائب يشقى ويبني ،
فعذيره خوف التشبه بالرحى من غير طحن .
ويكد كد النحل وهي لغيرها تسعى وتجني .
أرضى بأن تقضى منى   للآخرين وان عدتني .
أخلي مكاني للذي   يسمو اليه بغير حزن .
ولقد أهش لمن يطا   ولني وان يك تحت ضبني .
ان الحقيقة ، حين نبلغها ، لتكفينا وتغني .
فيها الجلال بكل معناه ، وفيها كل حسن .
تتشابه التركات في   أنا نعد لها ونفني .
فاذا تولينا فهل   أسماؤنا منا ستغنني .
ان نبق والأرواح قد   ذهبت ، فما الأسماء تغني ؟

لو لم يكن في الذكر لـــــذ أعقاب نفع لم يشقني .
أما الجزاء فاني اســــــــتوفيت منه فوق وزنـــي .
في الحاضر استسلفت مـــا سيقوله التالون عنّي .



فهـــرس المراجـــع

١ ـ ابو شادى ، احمد زكي : الاديب ١٢ ، عدد ١٠ (١٩٥٣) ص. ٣ـ٤

٢ ـ " " " انداء الفجر.

٣ ـ آدمس ، دونالد Adams, Donald: The writer's Responsibility 1946

٤ ـ ادهم ، اسماعيل : خليل مطران شاعر العربية الابداعي ، نشر المقتطف (١٩٣٩)

٥ ـ ارقش ، موريس : خليل مطران كما عرفته ، محاضرات الندوة م ١ : (١٩٥٦) ص. ٤٢٥ ـ ٤٣٨

٦ ـ امين ، احمد : مقدمة ديوان حافظ ، مطبعة دار الكتب المصرية (١٩٣٩)

٧ ـ بارنباوم ، ارنست : Bernbaum, Ernest: Anthology of Romanticism (Third edition) The Ronald Press Company New York, 1948

٨ ـ البارودى ، محمود سامي : ديوان البارودى ، نشر علي الجارم ومحمد شفيق معروف ـ جزئين المطبعة الاميرية بالقاهره (١٩٥٢)

٩ ـ ببيت ، ارفنج : Babbit, Irving: Rousseau and Romanticism Boston & New York, Houghton Mifflin Company 1919

١٠ ـ التيمورية ، عائشة : حلية الطراز ، مصر (١٣٢٧) هـ.

١١ ـ جلال ، محمد عثمان : العيون اليواقظ في الامثال والمواعظ ، مصر (١٢٧٤) هـ.

١٢ ـ جمال الدين ، نجيب : خليل مطران شاعر العصر ، (١٩٤٩)

١٣ ـ الجميّل ، انطون : ديوان اسماعيل صبرى ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة (١٩٣٨)

١٤ ـ " " : شاعرية خليل مطران ، مجلة الزهور مايو (١٩١٣) ص. ١١٣

١٥ ـ حافظ ، ابراهيم : ديوان حافظ ابراهيم (جزئين) ، نشر احمد امين احمد الزين وابراهيم الابيارى ، مطبعة دار الكتب المصرية (١٩٣٩)

١٦ ـ حسين محمد محمد : الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ، القاهرة مكتبة الآداب (١٩٥٤)

١٧ ــ خفاجي عبد المنعم : مع الشعراء المعاصرين ، القاهرة المطبعة المنيرية (١٩٥٦)

١٨ ــ خوری ، رئيف : الطغاة ، منشورات دار الكشوف (١٩٤٩)

١٩ ــ الدرويش ، علي : الاشعار بحميد الاشعار ، (١٢٧٠) هـ ٠

٢٠ ــ الرافعي عبد الرحمن : شعراء وطنية مكتبة النهضة المصرية (١٩٥٤)

٢١ ــ " " " : مصطفى كامل ، الطبعة الاولى ، (١٩٣٩) مطبعة الشرق ٠

٢٢ ــ الزحلاوى ، حبيب : الشاعر خليل مطران ، الكتاب الذهبي (مطبعة الهلال) (١٩٤٨)
ص: ٢٥٧ ــ ٢٥٨

٢٣ ــ زيدان ، جرجي : تاريخ مصر الحديث (جزئين) الطبعة الثانية ، مطبعة الهلال (١٩١١)

٢٤ ــ الساعاتي ، محمود صفوت : ديوان الساعاتي ، مطبعة المعارف بمصر (١٩١١)

٢٥ ــ السحرتي ، مصطفى عبد اللطيف : خليل مطران الرجل والشاعر ، مطبعة المقتطف والمقطم
(١٩٤٩)

٢٦ ــ سركيس ، حنا : خليل مطران واخلاقه ، الكتاب الذهبي ص٠ ٢٧١

٢٧ ــ السندوبي ، حسن : الشعراء الثلاث ، شوقي مطران حافظ ، مطبعة المكتبة التجارية
القاهرة (١٩٢٢)

٢٨ ــ شكرى ، عبد الرحمن : الرسالة م٠ ٧ (١٩٣٩) عدد ٣٠٢

٢٩ ــ شللي بارسي
Shelley, Percy Bysshe - Complete Poetical works.
Bost. Houghten
Mifflin, 1901

٣٠ ــ شهاب الدين ، محمد : الديوان ، (١٢٧٧) هـ ٠ مصر

٣١ ــ شوقي ، احمد : الشعراء الثلاثة للسندوبي ، مطبعة المكتبة التجارية ، القاهرة (١٩٢٢)

٣٢ ــ " : الشوقيات ، (اربعة اجزاء) مطبعة الاستقامة بالقاهرة (١٩٥٠ ــ ١٩٥٣)

٣٣ ــ شيبوب ، خليل : الكتاب الذهبي ٠

٣٤ ــ شيخو ، الاب لويس : الآداب العربية في القرن التاسع عشر ، مطبعة الآباء اليسوعيين
(١٩٣٦) بيروت

٣٥ ـ صبري ، اسماعيل : ديوان اسماعيل صبري ، نشر احمد الزين ، مطبعة التأليف والترجمة والنشر (١٩٣٨) القاهـرة

٣٦ ـ صبري ، محمد : اسماعيـل صبري ، (١٩٢٣) مصـر

٣٧ ـ ضيف ،شوقـي : شوقي شاعر العصـر الحديـث ، دار المعارف بمصـر (١٩٥٣)

٣٨ ـ الطاهـر ، احمد : حافظ ابراهيـم ، معهد الدراسات العربية العالية (١٩٥٤)

٣٩ ـ طـه ، حسين : حافظ وشوقي ، الطبعة الثانية ، (١٩٥٣) مكتبة الخانجي ـ بالقاهـرة

٤٠ ـ عبـاس، احسان : فـن الشعر ، دار بـيروت للطباعـة والنشر (١٩٥٥)

٤١ ـ عبد المطلب ، محمـد : ديوان عبد المطلب ، مطبعـة الاعتمـاد

٤٢ ـ عبيـد ، احمد : ذكرى الشاعـرين ، المكتبـة العربيـة في دمشـق

٤٣ ـ " " : مشاهـير شعراء العصـر ، المكتبة العربية في دمشق (١٩٢٢)

٤٤ ـ العريّض، ابراهيم : الشعر وقضيتـه في الادب العربي الحديث ، منشورات صوت البحـريـن (١٩٥٥)

٤٥ ـ العزيزي ، روكس زايد : خليل مطران وشعره ، المجلة الجديدة ، مايو (١٩٣٧) عدد ٥ س ٦

٤٦ ـ العقـاد ، والمازنـي : الديوان ، الطبعة الثانية ، مكتبة السعادة بمصـر (١٩٢١)

٤٧ ـ العقـاد ، عباس محمود : شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي ، مطبعة حجازي بالقاهـره ٩٣٧

٤٨ ـ عوض، لـويس : بروميتيوس طليقا لشلي . مكتبـة النهضة المصرية (١٩٤٧)

٤٩ ـ الغضبان ، عادل : خليل مطران الحليم الغضوب ، الرسالة سنة ٣ عدد ٥ (١٩٥٧) بـيروت

٥٠ ـ " " : الكتـاب ، ابريل (١٩٤٧) ص. ٨٣٨

٥١ ـ فاخوري ، حنـا : تاريخ الادب العربي ، طبعة ثانية (١٩٥٣) المطبعـة البولسيـة

٥٢ ـ فارس، بشـر : الاديب مجلد ٨ عدد ٨ (١٩٤٩) ص. ٢

٥٣ ـ فلسطين ، وديـع : الرسالة س. ٣ عـدد ٥ (١٩٥٧) بـيروت

٥٤ ـ مبارك ، زكـي : الكتاب الذهبي ص. ٢٦٠

٥٥ ـ " " : الموازنة بين الشعراء ، مطبعة المقتطف والمقطم ، مصـر

٥٦ ـ مجلـة الزهـور ج : ٨ السنـة ٤ ك ١٠ (١٩١٣)

٥٧ ـ محفوظ احمـد : حياة شوقـي ، القاهـرة مطبعـة مصـر

٥٨ ـ مطـران ، خليل : ديوان الخليل ٤ اجـزاء ، مطبعة دار الهلال (١٩٤٩) مصـر

٥٩ ـ " " : اهم حادث اثـر في حياتي ، الهلال يناير (١٩٣٠) ص. ٢٧٠

٦٠ ـ " " : الكتاب الذهبي ص. ٢٦٧

٦١ ـ " " : حديث مع شاعر القطرين ، الهلال م. ٣٦ (١٩٢٨) ص. ١٠٣٤

٦٢ ـ " " : مجلة الطريق ، م. ٤ عـدد ١٤ ص. ٣

٦٣ ـ معلـوف ، شفيـق : العصبة الاندلسيـة ، م. ١٠ (١٩٤٩) ص. ٣٣٩

٦٤ ـ المقتطف ، يونيو (١٩٣٩) هامـش ص. ٨٧

٦٥ ـ المقدسي ، انيس الخـوري : العوامل الفعالة في الادب العربي الحديث ،
منشورات الجامعـة الاميركيـة في بـيروت

٦٦ ـ المكشـوف ، (رأى لا نوفيل ليترار) عـدد ١٢٩ ص. ٤

٦٧ ـ منـدور ، محمد : الشعر المصري بعد شوقي ، معهد الدراسات العربية العالمية (١٩٥٥)

٦٨ ـ " " : محاضرات عن خليل مطـران ، معهد الدراسات العربية العالية (١٩٥٤)

٦٩ ـ " " : مسرحيات شوقي " " " " (١٩٥٥)

٧٠ ـ موسيـه ، الفرد ده Musset, Alfred de: Poesies - Paris, Hachette, 1949.

٧١ ـ ناجي ، ابراهيم : اطياف الربيـع ، لابي شادي .

٧٢ ـ نخلـة ، الاب روفائيـل ، المشـرق ٤٦ ، (١٩٥٢) ص. ٦١٧

٧٣ ـ " امين : ذات العمـاد ـ تحت الطبـع

٧٤ ـ نعيمة ، مخائيـل : الرسالة سنة ٣ عدد ٥ (١٩٥٧)

٧٥ ـ " " : الغربال ـ مصـر